الجنة حين أتمنى

محمد الصوياني

العبيكان
Obeikan

يا من تقول:

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾

يا من تقول:

﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

ناشدتك فيها جوار من يقول:

(إنما أنا رحمة مهداة) ﷺ.

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد حمد

الجنة حين أتمنى./ محمد حمد الصوياني - ط٣- الرياض، ١٤٣٤هـ.

٢٥٦ص؛ ١٤× ٢١سم

ردمك: ٩ - ٥١٤ - ٥٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الجنة والنار ٢- الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي: ٢٤٣ رقم الإيداع: ١٤٣٤/٣٣٣٣

الطبعة الثالثة

(الطبعة الأولى الخاصة بالعبيكان)

١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

العبيكان Obeikan

امتياز التوزيع شركة مكتبة

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

إلى رفيقة حلمي.. إلى زوجتي

وإلى عشاق الجنة..

خاصة تلك الأطياف العذبة

التي احتفت بهذه الأمنيات،

وجعلت منها تواقيع ورسائل،

كم أشتاق إلى احتفال معكم هناك،

أهدي هذه الورقات

الجنـــــة

الجنة بالنسبة إلي ليست مجرد حقيقة قادمة فقط..

إنها المواعيد التي تم تأجيلها رغماً عني..

والأماكن التي لا تستطيع الأرض منحي إياها..

إنها الحب الذي بخلت به الدنيا..

والفرح الذي لا تتسع له الأرض..

إنها الوجوه التي أشتاقها.. والوجوه التي حرمت منها..

إنها نهايات الحدود وبدايات إشراق الوعود..

إنها استقبال الفرح ووداع المعاناة والحرمان..

الجنـة زمـن الحصول على الحريـات.. فلا قمع، ولا سيـاج، ولا سجون...
ولا خوف من القادم والمجهول..

الجنة موت المحرمات.. وموت الممنوعات..

الجنة موت السلطات..

الجنة موت الملل.. موت التعب..

موت اليأس..

الجنة موت الموت..

خلالها سأبحر في قارب فاخر من الأماني.. أهدانيه محمد ﷺ بكلمات كالنعيم.. كلمات تقول: (إذا تمنى أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه عز وجل).

سأنشر شراعاً أبيض نقش عليه ﷺ كلمات تعشقها الرياح: (إذا سأل أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه).

سأمارس الرحيل، حيث لا نهايات للمتعة، ولا سقف للإبداع، ولا للجمال.

قال مبدع الجنان سبحانه.. قال الجميل الذي يحب الجمال، ويحثنا على الجمال: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر).

عندما أقرأ هذه الكلمات.. تأخذ نياط قلبي، وأنا أرى قوافل الصالحين تمر، فلا تأخذني معها.. أرى مطاياهم تتهادى أمامي، وأنا مكبل بخطاياي، وأرى اليأس جاء ليجهز على ما تبقى.

لكن شمس محمد ﷺ تشرق من جديد بكلمات كالمطر.. كلمات زادت حبي لأنس بن مالك رضي الله عنه. ذلك الغلام الذي نعم بخدمة النبي ﷺ وحنانه..

كلمات أشرقت على أنس، عندما رأى رجلاً غريباً أخرجه قلبه من بيته..

أخرجه قلبه المفعم بحبٍّ راح يعلنه على النبي ﷺ، ولما وقف أمامه سأله سؤال المشتاقين فقال: متى الساعة؟

قال ﷺ: وماذا أعددت لها؟

قال: لا شيء... إلا أني أحب الله ورسوله.

فقال ﷺ: أنت مع من أحببت.

قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: (أنت مع من أحببت).

قال أنس رضي الله عنه: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

وأنا أقول: ربِّ، إني أحبك، وأحب نبيك، وأحب أبا بكر وعمر وأنس، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

ربِّ، حررني بحبك من تلك القيود.. ربِّ، اشملني بقولك: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

إلهي.. عندما أقرأ هذه الكلمات تضيع الموانئ، وتختفي السواحل.. وأظل في محيطات النعيم وسكرتها دون وصول أو إفاقة..

ربِّ، إن جنتك لن تضيق بي.. ورحمتك وسعت كل شيء، وأنا ضعيف فارحمني... ربِّ، اجعلني أفقر الناس إليك، وأغناهم بك.

ربِّ، رحمتك وكرمك.. فلا تكلني إلى عملي، ولا إلى نفسي، ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

ربِّ، إني أسألك الجنة.. الفردوس.. فلا تحرمنيها

ما ألذ العيش مع تلك الكلمات التي قالها حبيبي ﷺ. تستفز مخيلتي حتى تستنزفها، ثم تأخذها من وهدتها نحو آفاق أرهقني عشقها وعشق التحليق فيها.

في هذه الصفحات لن يجد القارئ وعظاً أو إرشاداً أو نصائح أو إحداثيات.. فلست أهلاً لذاك..

في هذه الصفحات لن يجد القارئ إدعاءً لكشف الحجب أو التماهي بالغيب.. أو تألياً على الله..

هذه الصفحات ليست وصفاً لجنة الخلد على الإطلاق..

هذه الصفحات ليست حتى تصوراً لها..

إنها باختصار: مجرد أمنية.. حلم.. إنها دعاءٌ مسافرٌ دون ملل..

سيجد القارئ إبحاراً طويلاً سابحاً في الأماني والأحلام، والشعر والمشاعر، وحتى الفكر.. شراعي ومركبي فيه تلك الكلمات الإلهية والنبوية.

أولم يطلقنا ﷺ في آفاق ما زلنا نهابها حتى الآن.. عندما قال: (إذا تمنى أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه عز وجل).

دعونا نتمنى..

دعونا نكثر، ونكثر.. فالله أكثر.

دعونا نخرج عبر هذه النوافذ نحو عوالم ساحرة ومذهلة.. لم يَرَها بشر، ولم يسمع بها، ولم تخطر على باله يوما.

لن نصل إلى تلك الآفاق والمستويات، لكن حسبنا أننا قمنا بالتحليق نحوها.

لقد حلَّقت، حتى ظننت أنني في الجنة.. وسافرت، حتى غدت مدائن الأرض مزرعة شاحبة بين مدائني.. وعشت في عوالم أرقى، حتى أصبح

أغنى الخلق بالنسبة إلي مدقع الفقر.. وملكت فيها، حتى رأيت أكثر الناس سطوة وملكاً كالمساكين...

بعد فراغي من كتابة هذه الأماني شعرت بأنني خلقت من جديد.. لم تعد الدنيا كما كانت، ولم يعد في حياتي مكان للملل..

بدأت أرى الدنيا على الرغم من تفاهتها أجمل مما هي عليه.. شعرت بضرورة تحويلها إلى جنة مؤقتة.. كي يذكرني كل شيء فيها بالجنة..

جعلتني أرى العداء من أجل الدنيا أمراً مخجلاً..

على الرغم من أنني لست من العباد، ولا من الزهاد.. على الرغم من أن التقصير يأكلني من كل أطرافي.. مكثت وما زلت .. أجوب عالماً جديداً.. اسمه الجنة.

زاد شوقي إليها.. زاد عطشي إلى رحمة الله.. وزادتني طاقة للسير في الدنيا.. أصبحت كالعاشق الذي تهون مطالب معشوقته، وترخص من أجلها الأشياء، وتهون من أجلها المعاناة.. حتى إنه يتلذذ بها..

أدركت أحد أسباب تضحية الأنبياء والصديقين والشهداء والمؤمنين.

الجنة التي ملأ ذكرها القرآن والسنة.. وأحرق الشوق إليها قلوب عشاقها.. لم تعد في مخيلتي حنيناً إلى تلك الأزهار والأنهار فقط.. ولا إلى تلك المباني الساحرة والقصور العائمة فقط..

لقد أخذني الحنين إلى وجوه تحرقت شوقاً إليها.. وجوه كتبتني قصائدها، وتعطرت بعبق ذكراها محطات حياتي المتواضعة..

كم أنا بشوق إليهم..

كم أتوق إلى طبع قبلة على جبين محمد ﷺ ..

كم أنا بشوق إلى تناول فنجان قهوة مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم..

كم أتوق إلى إقامة احتفال على شرف المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم..

كم أنا بشوق إلى من انتزعهم الموت مني.. أو حالت الدنيا بيني وبينهم..

كم أنا بشوق إلى إبداع أحلم بتحقيقه، لكن الأرض لا تطيقه.. كم أنا بشوق إلى عالم دون حروب ومآسٍ وحسد وأحقاد..

عالم بلا ممنوعات أو قمع أو سلطات..

كم أنا بشوق إلى الجنة..

كم أنا بشوق إلى أن يجمعني الله في فردوسها، ومن يقرأ هذه الحروف، ومن نشرها، واحتفى بها مع الأنبياء والصديقين والشهداء.

محمد الصوياني

دلفنا بوابة من بوابات الجنة لا أستطيع وصف روعتها، ولا أستطيع تشبيهها.. تجوبها الملائكة ببهائها وأجنحتها وهيبتها، ووجوهها التي تشع جمالاً ونضارة تحف بنا.. سلامهم يكاد يحملنا:

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾.(الحجر: آية ٤٦).

يلبسوننا ثياباً فاخرة ويرددون: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾.(الحجر: آية ٤٦).

بسلام في أجسادنا، فلا أمراض بعد اليوم.. لا حمى ولا زكام، ولا ربو ولا سكري ولا ضغط ولا جلطات ولا سكتات ولا غيبوبة، ولا ضعف في البصر أو عمى..

بسلام في أجسادنا، فلا إعاقات، ولا شلل، ولا إصابات، ولا كسور، ولا جروح، ولا حروق، ولا علل، ولا عيوب..

بسلام في أجسادنا، فلن تنبعث منها بعد الآن روائح نكرهها وتضايقنا، ولن تفرز ما نستقذره، ونكرهه من سوائل أو عرق أو إفرازات مقززة، ولن تعرف أجسادنا بعد اليوم الترهل أو الشحوم أو الشيخوخة والتجاعيد والتهدل...

بسلام في طرقاتنا، فلن نرى بعد اليوم لصًّا أو مجرماً أو قاطع طريق، أو غازياً أو معتدياً، أو حتى رجل أمن أو مرور أو نقاط تفتيش..

بسلام في طرقاتنا، فلن نرى فيها حفراً أو مجاري أو مزابل متكومة أو روائح عفنة أو مناظر كريهة..

بسلام في أرواحنا.. فلن تفارق أجسادنا الساحرة، ستظل ترفرف في سعادة بين جوانحنا، فلا قلق ولا كآبة ولا إحباط ولا ملل، ولا يأس ولا انكسار ولا حزن، ولا قتل؛ فقد ذبح الموت.

بسلام في قصورنا وبيوتنا وأكواخنا ومزارعنا وشاليهاتنا ومنتجعاتنا، فلا لصوص ولا عصابات، ولا جيران مؤذين، ولن نبحث عن بيت في حي آمن؛ فالأحياء مزينة بالحب والأمن والسلام..

بسلام في أموالنا، فلن نخشى عليها من الاختلاس أو السلب والنهب والتلاعب والسطو والاغتصاب والمصادرة، ولن يمنّ علينا أحد بعد اليوم بإعطائنا بعض حقوقنا، ولن نقف طوابير للحصول عليها، ولن نرى في الجنة قضاة أو أقسام شرطة تنصفنا، فقد غمرنا الرحمن برحمته وحبه..

لا خوف على أراضينا ومزارعنا واستراحاتنا ومنتجعاتنا من سطو لصوص الأراضي والعقارات وشباكهم وتزويرهم وارتفاع أسعارهم..

بسلام في مستقبلنا، فالقادم أجمل من الحاضر، ولن نخشى بعد اليوم جفافاً أو قحطاً أو زلازل أو براكين أو فيضانات أو حروباً تأكل الأخضر واليابس.. ولن نرى بعد اليوم عدواً لله ولمعتقداتنا، فهم هناك في قعر منتن يلعن بعضهم بعضاً..

بسلام في خصوصياتنا، فلن يتجسس علينا أو يراقبنا أحد، أو يحسب علينا خطواتنا وأنفاسنا وكلماتنا والأماكن التي نرتادها، ولن نتعرض لمساءلة على يد محقق أو نقطة تفتيش أو نقطة عبور..

بسلام في تنقلاتنا.. سنجوب الجنة دون أن نحتاج إلى نقاط جوازات وتفتيش، ولن نضطر إلى استخراج تأشيرات، مع أننا لن ننتقل بين قرى وجزر ومدن أو حتى قارات، بل بين عوالم وعوالم.. ولن يمنعنا أحد من السفر أو العبور، ولن يحدد مسؤول بعد اليوم مدة إقامتنا، أو فرض الإقامة الجبرية علينا..

بسلام في طعامنا وشرابنا، فلن نعاني الجوع والعطش أو الغصص أو المرارة والتعفن والتسمم، وليس في قوائم الطعام والشراب شيئ محرم أو ممنوع، أو مقزز أو محترق أو متعفن، أو مسموح به لأحد دون أحد، أو لطبقة دون طبقة، ليس في الجنة طعام لا نشتهيه أو لا نستسيغه أو لا نحبه، أو يضر بصحتنا.

بسلام في أجوائنا، فلن نعرف الحر المزعج أو البرد القارس، أو الغبار المؤذي، أو الرطوبة الخانقة أو الريح أو العواصف والأعاصير المدمرة..

بسلام في تفكيرنا وعقولنا، فليس بيننا متخلف أو أبله أو مجنون، ولن يقلقنا بعد اليوم عدم التوصل إلى معلومة، كل ما علينا هو البحث.. والوصول، ثم البحث ومواصلة الإبداع والتمتع بالوصول..

لن يقلقنا البحث عن لقمة العيش ومحاولة تأمين المستقبل، ولن يذلنا أحد بصدقة أو معروف أو مكرمة أو منحة أو هبة..

سرت بين مصاريع البوابة مسحوراً، وأنا أزين صدري بتلك الجمل الفريدة من السلام.. سرت وعيناي ترفرفان في نعيم باذخ..

تقدم مني أحد الخدم الأنيقين، ومد يده بأدب للسلام، فتركت يده وعانقته من شدة الفرح، وبعد عناق طويل.. جاء آخر، فقدم لي مشروباً زاد من سعادتي وذهولي بتلك البوابة..

أخذتني تلك العوالم التي بين تلك البوابة.. صرت أدور.. أمشي.. أتأمل ما حولي.. أسجد شكراً وألهج حمداً.. أقفز فرحاً.. كان الحماس والجمال يتنافسان في كل ذرة من جسدي الفاتن الجديد..

بعد مدة طويلة من الدهشة والسعادة.. بدأ الفضول يسحبني نحو جديد المساحات.. ومفاجآت الأماكن..

أخذني طريق عريض جدًّا.. أما طوله فكأنه بلا نهايات.. طريق مرصوف بحجارة ليست من حجارة الأرض الباهتة، بل بأحجار كريمة ملونة.. هل هي من الياقوت أم من الألماس، لا أدري، فأنا جديد، وقلبي يبكي من الفرح..

إنها أحجار الجنة الكريمة.. لم تعد حكراً على الملوك والأثرياء.. لم تعد مقطعة بأحجام غاية في الصغر فقط.. إنها مزخرفة تحت أرجلنا، إنها أحواض زهورنا، ورصيف طرقاتنا..

سرت، وكأن ماءً ملوناً يجري من تحتي، نظرت فإذا أمامي أرض منقوشة بالألوان والفتنة لا حدود لها، وعن يميني ويساري وأمامي بساط من الزهور التي أعرف بعض ألوانها وأجهل معظما.. أما أنواعها وأشكالها

فأكثر من ألوانها أو ألوانها أكثر.. هكذا تبدو لي.. كأن الأرض المحيطة بي سجادة لا أطراف لها.. وفتنة لا نهايات لها.. بأي شيء أبدأ التأمل.. بالسماء الجديدة المدهشة بأنوارها الساحرة التي تسافر بالعين.. أم بالأشجار والشجيرات التي لم تعد خضراء فقط، إنها بكل الألوان.. وألوان الجنة كالأرقام بلا نهاية.. أم أهيم ببلاط الجنة وتربتها وطرقاتها وزهورها...

يا ألله، إلى كم من السنين أحتاج لأشبع من أول مساحات الجنة.. لا أدري.. لكن الزمن كان يمر دون أن يسلم علي أو حتى ينبهني.. كنت مشغولاً عنه وعن فواته.. لقد نسيت الزمن.. نسيت شكله ولونه وطعمه ووزنه.. ما عاد يهمني.. لقد أبدلني الله بالسعادة عوضاً عنه..

الفضول.. العشق لما يأتي فقط هو ما يحركني، ويستدعيني..

سرت ببطء شديد.. أمشي، وأتوقف أكثر مما أمشي، فالمشهد أروع من أن تتجاوزه العيون والأقدام.. خلعت حذائي الجديد والأنيق.. مشيت حافياً.. أردت لأقدامي أن تلامس النعيم.. لا خوف من تشقق الأقدام وتيبس جلدها.. فالسير في الجنة يزيدها نظافة ونعومة وعطراً..

كنت أمشي من ذهولي على تلك الزهور، فتزداد عبيراً وعبقاً.. وكأن أقدامي الناعمة تنشط المزيد من ذاكرة الرائحة والعطور فيها.. تأملت قدمي، فلم أعرفهما.. وتقت إلى مرآة لأرى ما فعل الله بوجهي وجسدي..

جسدي الذي أشعر معه بنشاط وشباب وجمال، وعنفوان لم يمر بي يوماً قط.. كنت أشعر بجسد لم يعد في حاجة إلى النوم.. لم يعد في حاجة

إلى نظام صحي أو غذائي أو رياضي مرهق للحفاظ على روعته وتناسقه وقوته وشبابه..

سرت لا أدري كم قطعت من مساحات الجمال.. حتى لاحت لي في الأفق مبانٍ فخمة للغاية.. فخمة وكثيرة الأشكال والألوان.. هل هي قصور الجنة أم أسواقها أم معارضها؟

بدأ الطريق يتشعب إلى طرقات.. وكل طريق قد رصف وزيِّن بأحجار مختلفة، وألوان مختلفة، وتصاميم وهندسة مختلفة..

أوعية الزهور على كل طريق مختلفة.. تحولت الطرقات إلى عشرات.. إلى مئات.. وأكثر، وكل طريق يؤدي إلى مبانٍ متباينة البناء والتصميم واللون والجمال..

وقفت مدهوشاً.. أريد أن أسلكها كلها، وأزورها كلها..

لم أكن في عجلة من أمري، فالأرض من تحتي تناشدني، والسماء تهتف بعقلي وروحي.

سار بجانبي شاب لم أَرَ أجمل منه وجهاً وجسداً.. عرفته، لكنني لم أعرف وجهه.. ونظر إلي، ففتح فاه، ونسي أن يغلقه، وازدادت عيناه اتساعاً فازداد جمالاً ودهشة.

كان ينظر إليَّ.. إلى جسد مفتول وعملاق، وإلى شاب أشقر أمرد دون لحية أو شارب، وإلى عينين مكتحلتين بالسحر.

عانقته بحرارة وشوق، وكأنه بعض أهلي.. قلت له: كيف حالك؟

بل أنت كيف حالك.. أتسأل عني، وأنا داخل هذا النعيم؟

لو رأيت وجهك لبكيت.

ولو شاهدت جمالك لذهلت.. يا ألله.. هل أنت فلان صاحبي.

أجل، ولكن ليس بشحمه ولحمه.. بل بوسامة أهل الجنة وروعة خلقها، فلا أعصابنا ولا عقولنا ولا حواسنا ولا قوانا الدنيوية قادرة على تحمل مباهج الجنة ولذاتها وروعتها، ولا أعمار أجسادنا الدنيوية الهزيلة تكفي لمجاراة الخلود في رحلته التي لا تتوقف، ولا تتوقف مفاجآته المذهلة.

إن كنا معشر الرجال بهذه الفتنة، فهل لقلبي أن يحتمل رؤية حبيبتي وهي تتهادى وسط أرض ساحرة كهذه، إن كانت هذه القصور التي أمامنا هي مساكننا، فكم سيبقى لأهلي وأحبابي وأصدقائي من قلبي؟!

انطلقنا، وانطلق الشوق بنا إلى كل شبر من الجنة..

بدأ الحماس يحملني، فلم أشعر بوزني، وأنا أخطو خطواتي الأولى.. وداعاً أيتها الدنيا.. وداعاً أيها الحرمان والمعاناة والتعب والملل.. وداعاً لكل ما نغص أعمارنا وخنق أنفاسنا.. وداعاً حتى لأشيائك وذكرياتك الجميلة..

بدأ الناس يدخلون، ويتوقفون عند بوابات الجنة.. يسيرون ببطء شديد وفرح أشد مثلنا.. كان ما حولهم يدعوهم للمكوث، لكن ما أمامهم يغريهم بأكثر..

الملائكة.. ما أجمل تحياتهم، وهم يبتسمون.. ينثرون الزهور والعطور على رؤوسنا.. يبدون خدماتهم بمنتهى الذوق والرقة.

أدهشني ما حولي من حفاوة.. بدأ الصخب والأنس البشري يدب في الجنة.. بدأ الصراخ الجنوني المدهش يملأ أول مساحاتها.. القفز والذهول والتكبير، والدموع والعناق والبكاء والرقص والغناء والشكر..

يكاد هذا القلب يطير من الفرح..

سرنا وسرنا، وبعد أزمنة تقدم منا شخص أنيق الثياب.. جميل الوجه تشع من ثيابه أطياف النعيم والود والبشاشة، وقدم نفسه على أنه أحد خدمنا، وطلب بكل أدب وذوق أن نصحبه إلى أي مبنى نختاره من تلك المباني الباذخة..

حِرْنا، فالمشي يتحفنا بالتفاصيل والتأمل، والركوب معه يغمرنا بالإثارة..

قدم لنا عربة مكشوفة بالغة الفخامة من الذهب، ومقابضها ومقودها من الألماس، وحتى عجلاتها كانت من الذهب أيضاً.

سبقنا الخادم، ففتح لنا أبوابها، فركبنا فإذا بالمقاعد تحتضننا بكل شوق.. مقاعد أرجوانية وثيرة.. مطرزة بالذهب بطريقة فنية بالغة الدقة والروعة، وأمامنا طاولة من الذهب المصقول والمصمم بدقة وإتقان وذوق بالغ الفخامة والرقي، وفي أدراج الطاولة صفت كؤوس وقوارير المشروبات الألماسية، وقد لفت بأشرطة ومناديل حريرية تحوي عبارات ترحيبية شاعرية.. كانت الكؤوس والقوارير من الرقة والدقة، بحيث ترغمك على التلذذ بتأملها قبل ارتشاف ما فيها.

وبين مقعدها الخلفي الدائري الوثير ومقعد السائق مسافة مريحة وكبيرة، وكانت أرضية السيارة مفروشة بسجاد حريري منقوش ومؤطر بالذهب.

يا ألله.. أهذه سيارات الجنة!

إنها نعيم وحدها.. إنها فتنة وأناقة وذوق وفخامة ودقة لا حدود لها..

إن ما فيها من ألماس وذهب، لو كان من ذهب الدنيا وألماسه لكلف ميزانية دولة غنية..

تحركت السيارة - هكذا نسميها في الدنيا - كأنها تسبح فوق الطريق، ولا تلامس الأرض إلا عند وقوفها، بينما كنا نسبح فيما حولنا، ونعد بعضنا بالرجوع إلى هذه الأماكن يوماً.. سرنا وسرنا دون أن نشعر.. كل شيء في الجنة مسكر.. لا ندري أنتأمل السيارة أم ما حولها أم ما فوقنا؟

ولما توقفت المركبة أمام أحد تلك المباني المذهلة التصميم نزل خادمنا والسائق، وقد تسمرنا من هول المفاجآت.. تقدما ليفتحا أبوابها.. لم نتعود على ذلك، وما كنا لنسمح لتلك الأناقة والوسامة أن تخدمنا، لكن ما حولنا من فتن الجنة أشغلنا عن تلك المراسيم التي أكرمنا الله بها.. كان المبنى فخماً.. محاطاً بأكاليل الزهور الصغيرة والكبيرة.

العطور.. أجواء الجنة عطور.. ثيابها عطور.. أشجارها وشجيراتها وزهورها.. عطور.. أنفاس أهلها عطور.. كل شبر في أجسادنا عطور..

دلفنا بوابة زرقاء فخمة، فإذا نحن في قاعة هائلة وفواحة ذات قبة ألماسية مرتفعة كأنها السماء.. تنساب منها أشعة أخاذة.

إنها أشبه بسوق مهول لا نرى أطرافه، ولا تُحصى معارضه ولا مقاهيه وباراته (مشاربه).. كانت أرضيته قطعة واحدة مصبوبة من اللؤلؤ الناصع البياض.. ممراته وقاعاته مزينة بعد كل أمتار عدة بمقاعد

وجلسات غاية في الجمال. بتحفة، بباقات ورد، بنافورات ماء، بنافورة ألوان وأشياء لا نعرف ما هي.. كانت الموسيقا الحالمة تنساب كالهمس في بعض ممراته.

بدأ الرجال والنساء يتجولون.. رجال ونساء في منتهى الجمال والذوق والأناقة.

سألت مرافقنا عن هذا المكان؟ فقال: سيدي.. هذا المكان واحد من ملايين الأسواق التي تستطيع أن تنتقي منها أحدث ما في الجنة من أزياء وأحذية وعطور وحلي.

قال صاحبي: حلي؟!

نظرت إلى صاحبي، ونظر إلي، ونحن لم نفق بعد مما مررنا به.. فكيف سنفيق مما نحن فيه؟

معارض لكل نوع من أنواع الملابس.. للأحذية، وما يتعلق بها.. للعطور.. معارض للحلي..

سحرتنا المعارض كلها دون أن نشعر بتعب أو ملل. أين كنز القناعة.. لقد اختفى في أول أمتار الجنة، لكن دون طمع أو حسد، فالطموح لا حدود له، والأناقة بلا سماء.. كانت الملابس فوق ما نتخيل، وأرقى مما نحلم .. ألوانها.. أقمشتها.. تفصيلها.. أسماؤها.. أنواعها.. تنسيقها.. أما الجديد من الملابس الرجالية التي لم نخترعها في الدنيا فلا حصر له.

لم نأخذ كثيراً.. فقط من كل صنف ما استطعنا رؤيته.. ومن كل حذاء ما يناسب ما أخذنا، ومن كل حلي ما راق لنا.. كلها كانت تروق لنا..

وعندما يسألوننا عن عناويننا كي يوصلوها لنا.. كان مرافقنا الأنيق يتكفل بكل شيء.

يا ألله، كل هذه المقتنيات الجميلة والراقية والثمينة وغيرها.. كلها لنا.. لو لم نكن في الجنة لما صدقنا.. كنا نخشى أن ينسوا إيصالها، فنلتفت إلى مضيفنا، ونطلب منه أن يكتب كل شيء.. ما زلنا نفكر بطريقة عصر الأقلام والأوراق في الدنيا.. الأمر في الجنة أرقى بملايين السنوات العلمية.. ومع ذلك، فإن للأوراق عبقها القديم والشاعري.

انتقينا لباساً أنيقاً.. دخل كل منا جناحاً فخماً به كل الخدمات الفندقية، ولكن بمستوى نجوم الجنة.

خلعنا ملابسنا لنلبس الجديد.. تأملنا أجسادنا.. لم نجد ذلك الشعر المؤذي.. لم نجد على الرغم من المدة التي مشيناها، وقطعناها أثراً لرائحة عن اليمين ولا عن الشمال.. لا عرق.. لا بول، ولا غيرها..

يا ألله، إنها أجساد نقية ناصعة وناعمة وقوية وجديدة.. ومع ذلك انغمسنا في برك السباحة الكبيرة المصبوبة من الألماس.. فقط لمجرد المتعة.. خلالها كانت تقدم لنا مشروبات سافرت بنا نحو أجواء أخرى.. بقينا مدة من النعيم، ثم خرجنا لنتأنق.

يا إلهي.. إنها المرة الأولى التي يرى فيها كل منا وجهه.. علا الصراخ والتكبير والحمد والثناء والبكاء.. وارتدينا الملابس.. ما أجملها من ملابس!. يا لروعتها على أجسادنا الرائعة، والوجوه الفاتنة!. يا لتلك الألوان التي تتناغم مع قاماتنا الفارعة وبشرتنا البيضاء الناعمة،

وشعورنا الطويلة والأكثر نعومة! يا لهذه الوسامة التي ننكسر أمامها امتناناً، كلما نظرنا في المرآة!

قال صاحبي لمضيفنا: لو بقينا في هذه الأجواء الساحرة لما مللنا. فرد عليه: هل أفهم من كلامك أنك تريد البقاء هنا؟

دعني أملأ روحي وعيني من هذه الأجواء الفاتنة.. انظر إلى هذا المكان الذي نقف فيه.. انظر إلى تلك الأشجار والشجيرات والأزهار في الخارج.. انظر إلى ألوانها التي لم نَرَها من قبل.. لا في الأفلام ولا في الأحلام.. مَنْ مِن البشر ملكها أو رآها في الدنيا؟.. انظر إليها.. إنها تعزف الجمال على مد البصر.. انظر إلينا، ونحن وسطها إن وجوهنا وأجسامنا وملابسنا تزيد من روعة المكان وسحره.

لم يكن صاحبي يتحدث فقط.. كان يغمرني بطوفان من المشاعر لا أستطيع مقاومته.

سافرت بي تلك الكلمات، ونحن نتجول في مساحات ملونة.. وحدائق بلا نهايات.. حدائق تتنافس، وكأنما تستعد لخوض مسابقة في التنسيق والجمال والألوان.. كانت مقاعدها المنحوتة من تلك الأحجار والأشجار، والمبطنة بالحرير والجلد الجديد في منتهى الجمال.. كان الجلوس عليها أجمل منها، والمشي ألذ منهما.. سافرت بي تلك الكلمات والمشاهد إلى أيام خوالٍ، كنا فيها نغبط الثريّ إذا بنى قصره على مرتفع يطل على بحر أو بحيرة، أو نهر أو مساحات خضراء.

في أولى أمتار الجنة شعرت أن ما رأيته في الدنيا، أو حتى في مجلاتها بالنسبة إلى ما أراه الآن، كخيمة مهلهلة، مقارنة بأجمل وأفخم قصر في الدنيا.

صدق من قال: (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء) كم كنا سذجاً ونحن نتشبث بالأسماء.. نقتل ونظلم ونسطو ونكذب ونغش، ونغير جلودنا كل يوم من أجل ماذا.. من أجل أسماء.. وليتها تدوم.. كنا نطاردها بها، فإذا أمسكنا بأطرافها ونحن نلهث.. وبدأ حفل تعارفنا بها تركتنا، أو اختطفنا الموت منها على الرغم منا..

لن يأخذنا الموت بعد اليوم، ولن يأخذ أحد منا حقًّا أعطاناه الله بعد اليوم.. لن يكون لأحد فضل علينا غير خالقنا ورازقنا..

لن نرى في الجنة من يفخر علينا بجاهه وماله ومركزه.. فالمتكبرون والمتغطرسون تركناهم خلفنا.. كان منظرهم لا يسر، والأقدام الحافية تدوسهم.. حشرهم الجبار تدوسهم أقدام البر والفاجر..

لن نرى من ينغص علينا عيشنا، ويسخر من ربنا وديننا ونبينا، ويصفهم بالظلامية والتخلف.. تركناهم خلفنا.. كانت أصواتهم مأساوية وهم يقذفون في الهاوية.. يناشدوننا يصرخون كالفجيعة: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾. (الحديد: آية ١٣).

إنهم الآن في قعرها يقدمون لزبانيتها اعتذارهم عن نظرياتهم التنويرية، فيلهبون ظهورهم بالسياط.. كم كنا نود لو أنهم تخلصوا من تلك الأقفال التي حاصرت عقولهم.. كم كنا نود لو أنهم معنا الآن، لكنهم في طريق اختاروه بأنفسهم.. لم يرغمهم أحد على سلوكه.. بل كانوا يسخرون من طريقنا ومن حقنا في اختيار طريق نبينا ﷺ.

لن نرى الطواغيت الذين كمموا أفواهنا، وصادروا حرياتنا، ووصفوا شرعنا بالتخلف.. لن نرى أولئك المتسلطين الذين حاربوا ديننا باسم التقدم، فتقدم العالم كله إلا هم.. لن نرى أولئك الأشرار...

لكننا سنرى إخوة سبقونا بالإيمان تحرقنا لرؤيتهم، وأبكتنا سيرهم وإنجازاتهم.. سنقيم الولائم والحفلات لمحمد ﷺ وإخوته الأنبياء عليهم السلام.

لدى كل واحد منا متسع من الوقت لكي يلتقي كل نبي رضي الله عنهم ويراه، ويكلمه، ويسمع قصصه وأخباره.

لدينا متسع من الوقت لكي ننفرد بأبي بكر رضي الله عنه وإخوته الصديقين رضي الله عنهم.. ونقيم الأمسيات والسهرات لحمزة رضي الله عنه وإخوته الشهداء رضي الله عنهم.. ونحتفل بعمر رضي الله عنه وإخوته المهاجرين رضي الله عنهم، وسعد بن معاذ رضي الله عنه وإخوته الأنصار رضي الله عنهم، لدينا أشعار ومشاعر نقولها بين يدي بلال رضي الله عنه وإخوته المعذبين والمناضلين في سبيل الله رضي الله عنهم.

أليست مليارات السنوات بكافية؟ أليست مليارات المليارات من السنوات أطول من أعمارنا الستينية التي يضيع تسعة أعشارها في النوم والأمراض والصيانة والعمل والكد.

استفقت على كلمات صاحبي، وهو يقول لي: أفق.. قم بنا نسلك هذا الطريق الذي يكاد يتكلم من حسنه.

سرنا، فوجدناه طريقاً عريضاً من اللؤلؤ.. وكلما سرنا بدأ يتحول ذلك الطريق إلى كرات صغيرة من اللؤلؤ المعطرة.. وعلى جانبيه أحواض لؤلؤية وزهور فواحة.

وعلى جانبي الطريق مساحات خضراء وملونة ممتدة، وعلى نهاياتها البعيدة شلالات ومصبات أنهار تحيط بها أكواخ فاتنة ومبانٍ مصممة بأشكال أخاذة، يقصدها الأصدقاء والأحباب، بسياراتهم ومراكبهم وطائراتهم ذات التصاميم الجديدة والكثيرة، والألوان الزاهية.. رأينا من بعيد مشاهد البهجة والمرح والاحتفال، كانوا بعيداً عنا لا نرى سوى شباب وشابات.

فقال صاحبي: خذ بنا بعيداً عن هذه العائلات.

فقلت له: عن أي عائلات تتحدث؟

فقال: هنا انظر إلى تلك الحفلات الرائعة التي تقيمها تلك العائلات، لا أريد أن أنغص عليهم.

ضحكت كثيراً، وأنا أسمع تلك الكلمات.

دهش صاحبي، وهو يرى أولئك المحتفلين السعداء يلوحون لنا ويسلمون، وبعضهم يدعونا للانضمام لحفلهم.

فقال مرافقنا: دعني أقل لك شيئاً.. تلك ليست عائلة.. إنهم شباب بدؤوا يمارسون الترحال.. يتجولون في أرجاء الجنة، ولا بد أنهم توقفوا ليتناولوا شيئاً من المشروبات، ويتمتعوا بالجلوس في هذه الأماكن الجميلة.

أتقصد أنهم غير متزوجين.

ما مفهومك للزواج في الجنة؟

الزواج.. عقد وشهود وولي و...

ذاك يا صاحبي، في الدنيا.. اليوم الزواج مختلف، فالمرأة لا تحتاج في الجنة إلى ولي أو وصي أو شهود.. تنتقي ما شاءت، وتتزوج من شاءت.. لها عالمها الخاص.. ووليها (في الدنيا) في شغل عنها إلا إن دعته لمشاركتها احتفالاتها.

مازحت زوجتي في الدنيا، قائلاً: لو قلت لك.. لا تخرجي من قصري في الجنة حتى آذن لك؟ فقالت وهي تضحك: (معليش) ابحث عن غير هذه الكلمات.

ولما قلت لها: أنت زوجتي؟!

قالت بكل ثقة: أوتظنني كنت أصلي وأصوم من أجلك.. أوتظن أني كنت أبتعد عن الكبائر، وأتحاشى ما استطعت عن الصغائر من أجل أن أحظى بغرفة في قصرك؟! أجل أنت زوجي ولك قلبي وأكثر، ولكني أعيش في جنة ربي لا جنتك.. أعيش في جنة ربي بكامل حريتي، وهي حرية لم تعرفها امرأة من قبل.. حرية لا أضطر إلى التوسل أو إلى بيع جسدي كي أحصل عليها.. في الجنة يا زوجي العزيز، أختارك وتختارني، وأحبك وتحبني، لكن لا أحد من الخلق على الإطلاق يفرضك علي، أو يفرضني عليك.. أو يملي علي أو يملي عليك.. بإمكاني رفضك متى ما شئت، وتوديعك متى ما شئت، وتطليقك متى ما شئت.. بإمكاني استبدالك متى ما شئت.. دون أن يطلقوا علي ألقاباً قد تنقص من وهجي عند الرجال: كالثيب والمطلقة أو حتى الناشز..

في الجنة يا زوجي العزيز، لست في حاجة إلى نفقتك، فأنا أنافسك ثراءً.. ولست في حاجة إلى أن توصلني أو تعالجني، أو تأمرني وتنهاني، أو حتى

تخشى علي، أو تكون محرماً يردع عيون الذئاب البشرية عني، فنحن حيث لا خوف، ولا رجال كالذئاب والوحوش يلاحقننا، ولا رجال يلبسون لباس النصح، ويدعون الدفاع عن حقوقنا من أجل استغلالنا.. نحن هنا حيث لا أمراض ولا عيادات نساء وولادة، ولا متاعب صحية أو حمل أو ولادة أو نفاس.. أما إن كنت لا تطيق حريتي، فلديك الحور العين الكريمات الفاتنات.. يرقصن ويغنين ويطربن حياتك.. أما نحن فمثلكم ننال من رحمة الله مثلما تنالون، وننهل من كرمه مثلما تنهلون..

في الدنيا كنا نتكامل؛ لأن قانون الحياة كان يقتضي أن نتكامل.. نرتدي الحجاب امتثالاً لأمر الله؛ لأننا نملك من إثارة غرائزكم ما لا يطيقه أكثركم، فأكثر الرجال لا يسيطرون على تلك الغرائز.. كم قتلوا وكم اغتصبوا وكم انتهكوا، على الرغم من أنهم يعرفون أن ما يفعلونه جرائم..

كنا الجزء الأضعف في الدنيا مهما قيل عن حقوقنا.. كنا النصف الذي تم استغلاله في البلاد التي تدعي إعطاءنا حقوقنا..

رضينا بما قسم الله وأراده.. هذا كل ما في الأمر، أما في الجنة فأنا حرة في انتقاء أزيائي، فلا خوف علي من الوحوش.. الوحوش هناك في هاوية الجحيم، ولا خوف مني أن أفسد علاقة أسرية، فالكل يشعر بأنه يملك ما يفوق حاجته، ويتجاوز طموحه، ولم يبقَ سوى الأخوة والصداقة.. في الجنة لا طمع بما عند الآخر ولا جشع ولا سطو على ممتلكات الآخرين.

الكل يتمنى أن يعطي ويهب ويهدي..

الكل يشعر أنه أغنى البشر.. سأقصد أي مكان يروق لي.. وأشرب وآكل أي شيء تتناولونه معشر الرجال.. سأحاول التفوق عليكم في كل شيء،

فقد منحني الله أكثر مما أحلم به، وأعظم مما أتطلع إليه، ولم يبقَ سوى الانطلاق.. لقد امتنعت عن محرمات الدنيا؛ لأرضي ربي، وأنال رحمته.. وفي رحمته لن أفوت لحظة من النعيم على الرغم من أنه نعيم خالد لا يفنى.

كلمات تهز المشاعر والعقل.. وبمَ أجبتها؟

لا أملك سوى الفرح بما قالت، فقد كنت من أكثر الناس إيماناً بأن الدنيا دار اختبار.. ألواننا وأشكالنا وأجناسنا وأرزاقنا هي الأسئلة، أما الإجابة فهي في القدرة على التعامل معها، وتحويل الدنيا إلى جمال بتناغمها وتكاملها.. كنت أمازحها فقط.. وإلا فإني أدرك عمق رؤيتها للأمور وبعد أفقها.

وكيف سنتقبل استقلالهن عنا في الجنة؟

أنت بوصفك رجلاً تشعر بقوتك وسطوتك في الدنيا، وتشعر أن تلك القوة في جزء منها يجب أن يصرف لحماية المرأة التي تمثل الجانب الأضعف داخل عالم يتخلى فيه العدل غالباً عن كرسيه للأقوى، أما هنا في الجنة فلا أضعف ولا أقوى..

هنا عالم من المشاعر والعواطف الجياشة تسبح في عالم من العدالة المطلقة... الأب لا سلطة له اليوم على ابنته، ولا حاجة لابنته كي يوافق على زواجها، فهي مستقلة عن خلق الله في عالمها المدهش العظيم، وعلاقتها بهم في هذا النعيم علاقة أخوة وحب في الله..

الزوج لا قوامة له في الجنة.. الزوج والزوجة في الجنة لا يلتقيان كما في الدنيا على تقاسم المسؤوليات، وأعباء المعيشة وتربية الأولاد والعناية بهم والقوامة (المسؤولية) وتحمل أخطاء بعضهم مع بعض، الزوجان في

الدنيا يقدمان التنازلات من أجل أن تبحر السفينة بسلام. أما الزوجان في الجنة فلا تنغص لقاءاتهما حسابات النفقة والمعيشة، أو شروط عقد الزواج ومسؤوليات الأولاد والمنزل والوالدين، ولا تفلت أحد الطرفين من التزاماته، لم تعد المرأة تحمل هم زوج يتسلل إلى غرفتها قبيل الفجر.. لا تحمل هم تعلقه بأخرى أو أخريات، أو تقصيره في النفقة أو العطف والرعاية والاهتمام، أو انطفاء مشاعره نحوها واختفاء عباراته الدافئة مع مرور الليالي والأيام.

والزوج لن يحمل هم انصراف زوجته عنه نحو أبنائه، ولا انصرافها عن الاهتمام بمظهرها وأناقتها مع تقدم سنها، ولن يحمل هم تجعدات وجهها ويديها وجسمها بعد اليوم..

وما الزواج هنا إذاً؟

لقاء العشاق المتيمين في عالمها أو في عالمه، لن يتحكم بها بعد اليوم أو تتحكم به، يسافران معاً، ويبحران معاً، ويحتفلان معاً، ولكن بإرادتهما وشغفهما وحبهما، لا بإرادة واحد منهما فقط، أو تحكمه أو تسلطه.. لن ينظر الزوج بعد اليوم لزوجته على أنها تلك التي تنتظره عند دخوله بقائمة من الطلبات، أو تستقبله وهي تحمل طفله الذي حان موعد تطعيمه أو طبيب أسنانه، أو موعدها مع طبيبة النساء والولادة، أو تلك التي تصيح في وجهه طالبة الطلاق؛ لعدم اهتمامه بمسؤولياته تجاهها وتجاه أبنائها، ولن تنظر الزوجة في الجنة إلى الزوج على أنه ذلك الرجل الذي يأتي متسللاً آخر الليل، بعد سهرة مجهولة مع أصحابه أو ربما صاحباته، أو ذلك الرجل الذي يبحث عن زوجة أخرى بعد

أن تهدل جسدها، وانشغلت عنه بأبنائه وأبنائها، ولن يكون ذلك الزوج الذي يدخل آمراً، ويخرج ناهياً، أو ذلك الزوج الذي يملي عليها طريقة لبسها وخروجها، أو يفكر عنها ويتحدث عنها، أو يستغل مالها ودخلها، أو يهددها بالطلاق والفراق كلما بدر منها خطأ.. الزوجان في الجنة عاشقان متيمان.. عاشقان لا يفصلهما عما هما فيه من نعيم إلا نعيم آخر..

أولسن مقصورات في الخيام اللؤلؤية والألماسية؟

أنت تتحدث عن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾.(الرحمن: الآيات ٧٢-٧٤).

الجنة عالم من البهجة تمثل العلاقة الزوجية فيه جزءاً صغيراً، لكنه ثري ومفعم وغامر تتطامن أمامه مشاعر العشق والهيام الدنيوي، وكل ما قيل عنها وفيها.. الجنة عوالم من النعيم يتقلب فيها المؤمن.. يشغله كل نعيم عن غيره، فلا يشعر بحرمان أو خسارة، لكنه يشعر بالشغف من كل أعماقه.

لقد كان ذلك الشاب الرائع عبدالله بن عباس رضي الله عنه أرحب أفقاً منا عندما قال: (ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء).. لكن ماذا عن الأطفال، زينة الحياة وأجمل ما في الدنيا؟

الحمل والولادة لا تستغرقان سوى دقائق، ودون معاناة أو نفاس أو وحام أو نزيف دم أو آلام (إذا أراد المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي) أطفال كالنعيم، لا يتقيؤون ولا يمرضون ولا يحتاجون إلى الحفائظ، ولا تصيبهم الحمى أو الأمراض التي تصيب أطفال الدنيا..

أطفال يشعون براءة وجمالاً وعطراً، ويجعلون الجنة أكثر نعيماً، تصور طفلك بهذه الصفات، تصور طفلتك وعينيها البريئتين اللتين تقتلانك بسحرهما البريء.. وتصور تعلقك بها وامتلاكها لقلبك.. يا صاحبي، إن عند الله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على خيال إنسان مهما كان مبدعاً.

سرنا، وسرنا.. ينعش أقدامنا اللؤلؤ، ويحلق بنا عبير الزهور، وتأخذ بمشاعرنا أسراب الطيور الملونة فوقنا.. كنا نتوقف أحياناً؛ لمشاهدة شباب يمارسون ألعاباً رياضية كنا نمارسها، وألعاباً جديدة علينا..

هالتنا كثرة الملاعب والمتنزهات كلما سرنا، فهي لم تقتصر على ملاعب أرضية.. السماء تحولت إلى مسرح فسيح يمارس فيه الشباب والشابات ألعاباً هوائية بطائرات تصعد بهم، ومظلات تهبط بهم، ومناطيد تتهادى وتأخذهم حول مكان يبدو أنه يأخذ بعقولهم.. تابعنا مسيرنا، وتوقفنا ونحن نقول في أنفسنا: لولا هذه الأجساد المعجزة التي وهبنا الله، لما قويت قلوبنا وعقولنا على تحمل هذا النعيم والفرح.. إنها أجساد شابة وحماس لا حدود له، نسينا شيخوختنا في الدنيا وعجزنا، فليس في الجنة عجائز أو شيوخ.. ليس فيها سوى الشباب، وما يشتهي الشباب، ويثير الشباب.

لفت انتباهنا ونحن نسير أن هذا اللؤلؤ الملون الذي نسير عليه بدأ في الصغر كلما توغلنا، سرنا لنعرف النهاية، مع أن الجنة نعيم بلا نهايات.

بدأ اللؤلؤ يصغر ويصغر، ويتحول إلى حبيبات ملونة صغيرة، ليتحول إلى رمل لؤلؤي دقيق، ولكن دون غبار.. بدأ ذلك الرمل الساحر ينغمس

في بحر غاية في الصفاء والعذوبة، انغمسنا معه لنرى روعة قاعه وألوانه، انقطع اللؤلؤ، فبدأت الأحجار الكريمة تزين قاعه.. لم يكن بينها طين أو طمي أو حتى تراب.. كان قاع البحر مزخرفاً وغاية في النظافة والعذوبة وسحر الأحجار الكريمة.. كنا نرى الأعماق البعيدة وكأنها مضاءة من الداخل، وكأن الماء زجاجة صافية، لدرجة نرى وميض القاع خلاله.. أما أمواجه الوديعة فتضفي على أجواء الشاطىء سحراً يرغمك على معانقتها..

لم ننتظر.. رمينا أجسادنا دون أن نخلع ملابسنا، وانطلقنا نحو هذا الجمال الذي سميناه بحراً لنعانق مياهه كالفرح، غصت فإذ بي تحت الماء أفتح عيني دون ألم وأنساب كدلفين، كنت أفتح عيني وأغمضهما باحثاً عن تلك الحرقة المؤقتة التي يحدثها ماء البحر في الدنيا.. أين تلك الملوحة.. أين تلك الحرقة؟

لم أجدها.. اكتشفت عالماً آخر تحت هذا الماء الصافي النقي العذب.. شيء آخر عثرت عليه يعادل متعة السباحة والمرح: لست في حاجة إلى هواء أو أكسجين أو تعلم للسباحة.. لست في حاجة إلى قوانين الدنيا.. بل إلى مزيد من المرح والانسياب، كان الماء يلامس كل جسدي وكأنه يدلكه وينعشه، توغلنا داخله، فازداد قاعه نظارة وجمالاً ونظافة.. كان القاع لوحة ساحرة تبقيك طويلاً للتأمل.. كان منقوشاً بعناية فائقة.. كان كثير الألوان.. سمعت أصواتاً فوقي، فصعدت فإذا أنا وسط أمواج هائلة الارتفاع، وإذا بالشباب من الجنسين يمارسون ركوب تلك الأمواج.. أخذتني موجة وطارت بي، فإذا أنا أسبح في الهواء.. كان شعوراً لم أذقه

من قبل، وعندما انتهت مدة الطيران بدأت فقرة الغوص في بحر عذب وعميق ومثير.

عدت لعمق الماء، لكن أصوات الأمواج كانت تستفزني للإثارة من جديد.. أمضيت وقتاً طويلاً وساعات طويلة من المتعة نسيت معها صاحبي حتى رأيت من يمسك بيد صاحبه، ويتقلبان في الهواء والأمواج والمرح الذي لا حدود له.

عندها تذكرته.. فرفعت رأسي فوق الماء، وانسبت بين الأجساد الرائعة والوجوه الفاتنة والشعور المبتلة بحثاً عنه.. بحثت عنه طويلاً وسط الصراخ والسعادة التي يعج بها الجو والبحر والشاطئ، فرأيته.. رأيته يمارس جنونه اللا محدود مع المياه والمرح، فضحكت من هيئته وملابسه الأنيقة المبللة، لكن ضحكي زاد عندما رأيت أني أيضاً لم أخلع ملابسي..

صرخت به، فهتف بي، ودعاني..

سبحت نحوه، وقمنا بمنافسة غيرنا في المتعة والاحتفال، وبعد ساعات وساعات ركبنا فيها الأمواج، والمراكب البحرية السريعة، وحلقنا في المناطيد، وقفزنا منها، وتدلينا من حبال الطائرات، وتزلجنا على الماء خلف قوارب سريعة، ومارسنا ألعاباً جديدة لم تعرفها الدنيا، ولم يقطعها سوى هتاف أحد المسؤولين المكلفين بضمان راحة وضمان سعادة المرتادين للشاطئ، وهو يدعونا ويلوح لنا بملابس جميلة خاصة بالسباحة والعوم.. خرجنا ونحن نعتذر منه.. فقال: لا بأس ولا قوانين.. لكن هذه الملابس تمنحكما حرية أكبر، فقلت له: حرية أعظم مما نحن فيه؟!

قال: بإمكانكما متابعة مرحكما بملابسكما، لكنني أعرض خدماتي..

شكرناه، فقال صاحبي: لم لا نغير ملابسنا في إحد تلك الجزر العائمة على سطح البحر.. إنها جزر خشبية ساحرة.. كل مبنى فيها يكتسي لوناً مختلفاً عن الآخر دون أن تصبغ.. إنها أخشاب الجنة التي لا حدود لألوانها وروعتها؟

فقال المسؤول: إذاً، فدعوني أتولى إيصالها.. ستجدان من ينتظركما هناك.

شكرنا الله.. ثم شكرناه، ثم توجهنا سباحة ممتعة نحو جزيرة من الأكواخ الخشبية المتناثرة كالحلم.. وصلناها، فإذا هي عبارة عن جزر ساحرة وهائلة تستلقي على الماء.. تعوم عليه دون أعمدة، لكنها ثابتة كالجبال.. قصور وشاليهات وأجنحة خشبية بالغة الجمال.. لا حصر لألوانها وتصاميمها الرائعة، لا سيما وهي وسط هذا المحيط العذب الساحر.

سبحنا بنشاط ومتعة لا تعرف التعب ولا الملل حتى لامسنا تلك الأرصفة الناصعة البياض.. كان أحدهم يبتسم في استقبالنا، ولما قمنا على شرفة خشبية بيضاء فاتنة.. كان منظر البحر وما فوقه وما تحته من مهرجان أكثر فتنة.. قدم لنا مضيفنا عروضاً وخدمات، لكننا لم نفق بعد.. كنا مسحورين بما حولنا، شُدهنا بما نراه فجلسنا على مقاعد خشبية بيضاء مريحة نتأمل عالماً كنا بعضه قبل قليل.. مددنا أرجلنا على السور الخشبي القصير، فتقدم منا نادل آخر لا يقل لطفاً عمن سبقه، وقدم لنا قائمة بمثلجات ومشروبات انتقينا منها، وما أصعب الانتقاء، ارتشفنا وتذوقنا فنقلنا طعمها سماوات أخرى.. ظللنا في سكرتنا طويلاً.. طويلاً.. لم نفق منها إلا على وقع صوت لطيف يسألنا إن كنا نرغب في

تغيير ملابسنا التي نشفت وعادت ناعمة كما لبسناها أول مرة؟

نهضنا معه نكتشف المزيد في هذه الجزيرة الخشبية الحالمة.. تمشينا فوق بعض ممراتها الخشبية.. كانت جسوراً عريضة بيضاء وصفراء وحمراء وخضراء وبألوان نعرف أقلها، ونجهل أكثرها.. كانت فاتنة ومنحوتة وبتصاميم فوق ما نتخيل.. محاطة بباقات الورود والزهور التي انتقيت بعناية وذوق رفيعين.. كانت جسوراً متعرجة ومستقيمة ودائرية و... وعن يمينها ويسارها الماء العذب، ثم قصور ثم جسور ثم ممرات ثم شاليهات وأجنحة وأكواخ، وهكذا.. كل إنسان وما ينتقي وكل جماعة وما تشتهي، وبينها تتناثر المطاعم والمشارب والمقاهي والأسواق والمسارح والمراقص والشرفات والإطلالات..

كانت ممرات بين النعيم، فكل ما يمر بك يدهشك، وكل ما أمامك يغريك، وكل ماخلفك يناديك.

كانت الضحكات والابتسامات تشع من تلك الشرفات والجلسات البحرية الشاعرية والمشرقة.. كانت الأحاديث تشعرك بأنس الجنة ومرح أهلها وحبهم..

كان الغناء والاحتفال يعج بتلك القصور والشاليهات.. كانت الموسيقا الهادئة تنساب كالهمس، كما ننساب بين تلك الفتن التي لا تتحملها قلوب الدنيا ومشاعرها.. كان الحماس والمزاح والضحكات تزين الأجواء.. جلسات نسائية وجلسات رجالية وثالثة مختلطة.. الكل شباب والكل شغف، والكل لوحة من الأنس.

سرنا طويلاً وكل ما حولنا يغرينا بالاكتشاف حتى انتقينا شاليهاً شاعريًّا وباذخاً.. مقدمته بيضاء عريضة ومسيجة بالشجيرات الملونة والورود والزهور الفواحة..

دلفنا خلال بوابته التي تلتف حولها خيوط الأشجار وأغصانها الملونة، فإذا ساحة من العطور تختلط بعبير البحر.. حديقة غناء من الأواني اللؤلؤية والمرجانية المنسقة والمليئة بالورد والشجيرات، ومقاعد وطاولات وحوض كبير جدًّا للسباحة، وشرفة أخرى في جهة أخرى من الشاليه مواجهة للبحر أيضاً، حيث يعاني البصر والقلب كثيراً في الالتفات عنها.. كانت واجهاته الأربع من الزجاج.. تشاهد ما في الخارج، ولا يشاهدك من في الخارج..

دخلنا، فإذا قاعات فسيحة وكثيرة، وأثاث فاخر متناثر بذوق وإتقان وشاعرية، وأجنحة كبيرة وشاعرية... عندها سألنا مضيفنا، وهو ينظر إلى قمصاننا المفتوحة الأزرار، عما لديه من طعام وشراب وأنغام، أو ما نشاهده من أفلام أو نقرؤه من كتب؟ أشار إلى طاولة أنيقة وقال:

على هذه الطاولة كل ما تطلبانه من لباس أو شراب وطعام وأنغام ومراكب ويخوت وأشياء أخرى.

ماذا تقصد بالأخرى؟

أنت في الجنة.. لا حدود للمتع والرقي والنعيم، ولا أريد أن أحرمكما مفاجآتنا.

إن وجودنا هنا فوق ما نحلم به من نعيم.

شكراً لك على هذا اللطف.. أشعر بحاجة إلى الطعام والشراب...

ولكن بعد أن نكمل ما بدأناه في هذا المحيط.

مشى مضيفنا نحو تلك الطاولة، ومد يده إلى مجسم خشبي يحاكي مبنى الشاليه، ثم أخرج منه قوائم خشبية عدة، لكن سماكتها كسماكة الورق، أما محتواها فعبارة عن أيقونات، وبلمسة خفيفة تتحول تلك المساحة الخشبية إلى عرض متحرك أو ثابت لما تشتهيه من طعام وشراب، وملابس ومراكب أو أماكن..

إنها حقًّا طويلة ولذيذة ومثيرة، وأكاد أتذوق لذة الطعام من صورته.. هل تختار لنا ألذها؟

لكما ما أردتما.. بعد إذنكما.. أين تفضلان تناوله.. في المطعم، أم في مقدمة الجزيرة، أم على شرفة الشاليه؟

سنجرب الجميع..

ما رأيكم أن تبدؤوا بالشرفة.

رائع.. كم أنت لطيف .. شكراً جزيلاً.

الشكر لله.. ستجدان طعامكما جاهزاً حالما تعودان.

توجه خادمنا نحو الشرفة وبعد دقائق امتلأت الشرفة بطاقم يرسمون مائدتنا بفن أخاذ، أما نحن فتوجه كل منا إلى جناحه، فإذا هو عالم آخر عائم على الماء، فيه مشرب خاص، ومقاعد، وغرف أنيقة وغرف تحت سطح البحر وأثاث فخم، ومسبح ألماسي متصل بالبحر ومنفصل عنه في

الوقت نفسه، وشرفات علوية وعلى مستوى البحر وتحت سطح البحر، ولوحات وتحف بالغة الجمال والتناسق..

جلنا ساعات طويلة نقلب تحفه، ونتحسس أثاثه ومفارشه وأسرته وأغطيته ووسائده، ونتأمل دقة صنعه التي لا يمكن وصفها..

مكثنا أوقاتاً نقارن بين أحلام في الدنيا بالحصول على حجز في شاليه، أو غرفة في فندق يطل على بحر، أو حلم بالسفر إلى بلاد غربية أو شرقية بكلفة معقولة، والبحث المرير عن التخفيضات مع الجودة والثقة بتلك الوكالات التي يجيد الكثير منها الاحتيال.. حيث تسافر، فلا ترى عشر ما اتفقنا عليه ودفعنا للحصول عليه.. ناهيك عن تلك الأوقات التي نقضيها في الحصول على التأشيرة، وتلك النظرات داخل تلك السفارات، التي تمن علينا بصرف مالنا، وتبخل علينا بمتعة أسبوع أو أسبوعين..

أقبل خادمنا، وأنا أقول لصاحبي: يا ألله ما أتعس أحلامنا في الدنيا، مقارنة بما نملكه اليوم، فابتسم، ولما سأله رفيقي عن سر تلك الابتسامة، رد قائلاً: سيدي، هذا النعيم الذي تتغنون به ما هو إلا أماكن عامة لكل مؤمن نصيب فيها.. أماكن عامة يجتمع فيها أهل الجنة ويلتقون ويتعارفون، أما ما ينتظركما من عوالم خاصة بكل فرد منكم فشيء آخر.. شيء آخر لا يمكن وصفه.. أنتم في درجات الدنيا الأولى ومدنها العامة التي يلتقي فيها الجميع، أما القادم.. فلا تشغلوا أنفسكم به.. دعوه يحتضن أيامكم القادمة.. إنه يحتاج إلى مليارات السنوات من الدهشة والعشق.. سيديَّ هل تسمحان لي بسؤال؟

تفضل.

لا أرى معكما صديقات.

ولِمَ تسميها صديقة بدل زوجة؟

إنه لفظ يفضله البعض هنا.

ولِمَ؟

البعض لا يريد تذكر مشقة الحياة الدنيا، ومسؤوليات الأسرة.. يريد أن ينطلق من كل مسؤولية.. من كل قيد.. من كل منغص.. من كل حدود ومساءلات.. يريد أن يحتفي بعشق لا حدود له وبشغف لا تتسع له سوى الجنة، و...

مهلاً مهلاً تكاد تفرق بيننا بكلماتك التي تقتلنا بالشوق..

ولِمَ؟

تعاهدت وصديقي أن نمضي زمناً في رحلة عزوبية.

صاحبتكما السلامة.. ليتني لزمت الصمت.

لا عليك، فالشوق في النعيم نعيم آخر.

ملابس السباحة في الغرف الخاصة.. تعرفونها.. هل من خدمة أخرى..

شكراً.

نزلنا، ولبسنا ملابس السباحة، ثم صعدنا إلى شرفة جناحي العلوية ذات المقاعد الوثيرة، والإطلالة الشاعرية الآسرة، فقال صاحبي: والآن ما رأيك وقد ارتدينا ملابس السباحة بنوبة أخرى من الجنون؟

قفزنا كغطاسين محترفين في مسابقة للغطس، وغصنا عميقاً، حتى لامسنا الأعماق المضيئة كأسماك جميلة.. شاهدنا كثيراً من الشباب يتسابقون نحو الأعماق مثلنا، ويبتهجون مثلنا.. كان الزمن خلالها يضحك في وجوهنا، ويدفعنا إلى ذروة المرح.. كان الزمن يسبح معنا ويمرح.. لم نكن نخشى فوات شئ.. ولم نكن نعاني وقتاً مملاً أو فواصل بين المتع..

ركبنا إحدى الموجات، فقذفتنا كطيرين، فإذا بنا نسبح في الهواء أمام شرفتنا المؤطرة بالورد.. شاهدنا الخدم والسقاة وهم ينتهون من وضع اللمسات الأخيرة لمائدة تلوح لنا وتغرينا، ويلوحون لنا بأيديهم.. لوحنا لهم ونحن نعانق موجة أخرى تقذفنا في الاتجاه المعاكس.. وبعد ساعات طويلة شعرنا برغبة عارمة في الطعام بعد هذا المجهود الطويل.. فانسبنا من تحت الماء نحو أسفل الجزيرة الخشبية.. سرنا عبر أروقة وأجنحة الجزيرة الخشبية الواسعة المدهشة متزرين بفوط جميلة اتخذنا منها أزراً حول خصرينا النحيلين المشدودين، ورداءين فوق كتفينا العريضين.. كانت تقاسيم أجسامنا وعضلاتنا ووسامتنا نعمة تجعلنا نلهج بالشكر كلما مررنا بمرآة أو شيء يعكس ما أمامه..

انتقى كل منا ما يحلو له من لباس، ثم خرجنا للشرفة، ورأى بعضنا بعضاً فذهلت، أما صديقي فدمعت عيناه وتسمر في مكانه.. ثم تنهد بعمق وهو يرفع رأسه إلى سماء الجنة الجديدة..

توجهنا نحو طاولة كباقة من الزهور النادرة.. الزهور الفواحة.. المناديل الحريرية الملونة.. الملاعق والشوك والسكاكين والملاقط الذهبية

الصقيلة واللامعة.. الأطباق والصحون بأحجامها المختلفة والمصنوعة من الأحجار الكريمة.. الكؤوس الألماسية..

أما الطعام فألحان أخرى:

السلطات التي تحتوي على نباتات لا تعرف السماد الأرضي، ولا حتى التربة.. بألوان جديدة لم نعرفها من قبل.

الحساء الذي تدهشك مكوناته، ويسكرك طعمه.. وتحتفظ الأطباق بدرجة سخونته..

الأطباق المتنوعة التي تحتوي على أطايب لحوم الطيور الناعمة والأسماك واللحوم.. وطريقة إعدادها والرائحة والأبخرة الفواحة المنبعثة منها، التي تضفي على تلك المائدة ضباباً خفيفاً ومغرياً بالتهام كل شيء.

المشروبات بدءاً من الماء وانتهاء بالخمر، مروراً بأنواع كثيرة من العصائر والمشروبات الجديدة.

الفواكه التي قد تتشابه مع ما كنا نراه في الشكل لا في الطعم.. لا قشور ولا بذور داخلها، وعطرها الجذاب الذي لا يقاوم.

أصناف الحلوى المرسومة بأشكال فنية رائعة، وألوان مختلفة وجديدة.

ترتيب المائدة البالغ الرقي.. شكل الطاولة ومقاعدها المحفورة بإتقان.. وشرفة تطل على عالم مليء بالجمال والسحر والفتنة، وسماء ذات ألوان تريح النفس وتغري بالتأمل الطويل..

وعطور فواحة تتضوع في المكان كله.. وجيران غاية في اللطف والوسامة والجمال والحميمية يتمتعون بما نتمتع به.. لا أحد منا ممنوع مما

يشتهيه بسبب مرض أو علة، فلا ضغط ولا سكري، ولا كوليسترول ولا جلطات أو ذبحات أو سكتات، أو محرمات أو ممنوعات.. ولا عسر هضم أو قرحة...

أخذنا مقاعدنا المريحة على تلك الطاولة.. وشكرنا النادل على كرم خلقه وذوقه وحسن إعداده..

لم نكن ونحن ننظر إلى أنفسنا وما حولنا نحتاج إلى المزيد.. كان كل شيء كاملاً وفوق ما نحلم به.. مكان كهذا وجمال كهذا، وصحة كصحتنا وأبدان كأبداننا لا يستطيع أحد في الدنيا أن يملكها أو يحظى بها، ولو كان يحكم الأرض من أقصاها إلى أقصاها.. مكان كهذا لا يمكن أن يكون على الأرض.. وجمال كهذا لا يمكن أن نراه في الدنيا.. ووسامة كالتي نملكها لم يتمكن أحد من امتلاكها أو رؤيتها في الدنيا.

قلت لصديقي: كم يدفعون في الدنيا لقاء التمتع بأجساد وأمكنة وملذات كهذه؟

لا أظنهم يملكون ثمن صور لها.

ليت من كذب بها يحصل على بعض الصور.

أمضينا ساعات طويلة من اللذة.. قضينا أياماً من النعيم.. ذات يوم توجهنا نحو جسر عريض في نهايته دائرة كبيرة ومكشوفات مزينة بالمقاهي والمشارب.. كان المكان يعج بالزائرين والزائرات، وكان لكل جلسة بروز ممتد في البحر يضفي خصوصية، جلست أنا وصاحبي لتناول ما لديهم من نكهات القهوة الفاخرة، وبعد ساعات من التأمل والحديث

رأيت مجموعة من الأصدقاء تتجه نحو شرفة دائرية، تحلقوا كالفرح، وحلقوا في أحاديث سمر يتخلله انفجار ضاحك بين مدة وأخرى، تعجبنا من تلك الصحبة الجميلة، فاقترح صاحبي أن نتعرف عليهم، توجهنا إليهم فنهضوا جميعاً تعلوا تلك الوجوه الساحرة ابتسامات تزيدها جمالاً وسحراً.. رحبوا بنا وحلقنا في أجوائهم، وطلب أحدهم الشراب للجميع، فتلك الإطلالة وأولئك الندماء لا ينقصهم شيء، لكن للشراب عبقه ومفعوله.

قال أحد الظرفاء، ألم تعرفوا هذا الشاب الوسيم القسيم؟

فقال صاحبي: لقد عرفني باسمه، لكنني لا أعرف من كان في الدنيا.

إنه رئيس بلادنا العادل، وسر ألفتنا.

توجه صاحبي بسؤال سريع، فقال: هل كنت تحكم بلاداً كبيرة؟

كانت بلاداً كبيرة في مقاييس الدنيا.

صف لي الأمارة كما عشتها.

كان عادلاً معنا.

هل كنت من حاشيته؟

أجل.

إذاً، فشهادتك مجروحة.

قهقه الجميع على تعليق صاحبي، فقال أحدهم وهو يضحك: كلنا من حاشيته. فقلت: أعتقد أن صاحبي لن يغادر هذا المكان.

ضحك الأمير، وقال: إن من ترونهم كانوا خلاصة أحبابي والصادقين معي.. كانوا قرة عيني، كانوا شركائي في أي إنجاز.. لم يكونوا يخدرونني بالثناء والبحث عن جوائز وهمية لي بقدر ما كانوا يرهقونني بالملاحظات.. كانوا يذكرونني بهذه الجزر الساحرة.. كانوا يذكرونني بعمري الذي يتناقص، والشيب الذي يغرس سكاكينه في شيخوختي دون أن أستطيع الدفاع عن نفسي، ولو وقفت جيوشي كلها معي، أو تبرع شعبي بأعمارهم لي.. كان هؤلاء الرجال المخلصون يقولون لي: لا تقارن ملكك بأملاك من استرعاك الله عليهم.. قارن ملكك بملك الله، وقارن سطوتك بجبروت الله، حتى كنت أشعر وأنا الأمير الذي يهابني كل شعبي.. كنت أشعر بالخوف كلما نمت.. كنت أخشى ألا أفيق.. كان كل صبح جديد عمراً جديداً بالنسبة إلي.. كانت هذه الحاشية الجميلة تذكرني بأبواب الفقراء، ودموع اليتامى وآهات الأرامل.. كانوا يلحون علي إذا ما تبرمت من طلباتهم قائلين: هل ستموت من الجوع لو أعطيتهم؟ هل ستعرى لو كسوتهم؟ هل ستفلس لو أنفقت عليهم؟ كنت أغضب عندما يقول أحدهم لي: إنك لن تستطيع تناول أكثر من ثلاث وجبات، ولا تستطيع أن تلبس أكثر من لباس واحد، إنك تنام مثل شعبك، وتشرب مثلهم وتتنفس مثلهم وتذهب إلى دورات المياه مثلهم، وتتعب مثلهم، وتمرض مثلهم، وستموت يوماً مثلهم.. كنت أغضب عندما أسمع تلك الكلمات.. لا لأنني أكرهها، ولكن لأني أشعر ألا فرق بيني وبينهم..

بلى، كان هناك فارق كبير بينك وبينهم.. كل فرد منهم سيسأله الله عن نفسه وعمن يعول فقط؟ أما أنت فسيسألك الله عن كل فرد من شعبك.

إنه فارق لصالحهم.

بالتأكيد.. لكن دعني أسألك عن عدلك؟

في البداية خفت من استغلال الناس للعدل وتمردهم، ولكن حاشيتي كانت تذكرني دائماً، أن العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، لن ينهار لو وضعت بلادي عليه.. لقد حملني الناس بقلوبهم.. نقشوني في بيوتهم ومجالسهم وأشعارهم، والأهم من ذلك أنهم كانوا يدعون لي سراً وجهراً.

وكيف اقتنعت بالعدل؟

أحد أفراد حاشيتي قال لي يوماً: تصور أنك أسعدت كل بيت من هذه البيوت المتطلعة لك بعد الله.. كم من كربة ستزيل.. كم من حسنة ستكسب.. كم من دعوة سترفع لله من أجلك.. كم من حب لك سيجرف قلوب شعبك؟ سيخلدك التاريخ.. لقد أنفق غيرك المليارات ليلمعوا صورهم، ولما ماتوا أنفق الذين بعدهم مثلها لكي ينسوا تلك الصور.. هكذا هي الدنيا، وهذا هو طبع البشر، لكنك لو أنفقت تلك الأموال على الفقراء والمساكين لبنيت في قلوب الناس مساكن، وسكنت وحدك فيها، ولن يستطيع أحد أن ينتزعك من تلك القلوب ولا من التاريخ.. أبوبكر عمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم، لم يكن لديهم شهادات عليا، ولم يتخرجوا في جامعات تدرس فن الإدارة والسياسة.. لكنهم تعلموا شيئاً سهلاً للغاية، ولا يحتاج إلى شهادات ولا فلسفات أو تعقيد.. تعلموا على يد محمد ﷺ الخوف من الله.. وتعلموا العدل..

لقد فتح لي مستشاري المصحف، وقال لي: يا سيادة الرئيس، انظر هذا المصحف.. انظر إلى كلام الله لك.. اقرأه لن تجد فيه سوى آية واحدة

تأمرك بقطع يد السارق.. لكنه قبل أن يطالبك بقطع يد السارق.. يمطر قلبك وضميرك بآيات جميلة وملحة على العدل .. آيات تقول لك يا فخامة الرئيس:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.(النساء: آية ٥٨).

إنه العدل يا سيدي، و: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.(النحل: آية٩٠).

العدل أحد أهم رسائل القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ .(الإسراء: آية ٩).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ .(الشورى : آية ١٧).

إنه العدل يا فخامة الرئيس، العدل رسالة كل الأنبياء بعد التوحيد:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.(يونس: آية ٤٧).

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.(الحديد: آية ٢٥).

وهو رسالة نبينا التي ألقاها القرآن على عاتقه، فقام بها خير قيام عندما

خاطبه القرآن قائلاً: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.(الشورى: آية ١٥).

ويقول لنبيه: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.(الأنعام: آية ١٥٢).

العدل كان محور رسالة نبي لقوم فشا بينهم الظلم والغش والفساد المالي، حيث يحكي القرآن قول ذلك النبي: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.(هود: آية ٨٥).

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾.(الإسراء: الآيتان ٣٤-٣٥).

العدل رسالة النخبة يا سيدي، وأنت سيد النخب وأميرها: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.(الأعراف: آية ١٨١).

إنه يأمر المؤمنين وأنت أمير المؤمنين وقدوتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.(النساء: آية ١٣٥).

العدل واجب حتى مع الخارجين عن القانون ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ .(الحجرات: آية ٩).

العدل دليل على رقيك يا سيدي وتحضرك وسمو ذاتك: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.(النحل: آية ٧٦).

العدل واجب في الزواج ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ .(النساء: آية ٣).

وواجب وفي تدوين المستندات والوثائق ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ .(البقرة: آية ٢٨٢).

العدل واجب حتى مع من نبغضهم ويبغضوننا أو من نعاديهم ويعادوننا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ .(المائدة: آية ٨).

العدل واجب حتى مع من يكذبون ويسرقون ويلفقون لنا التهم ويشوهون ديننا ممن هم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ .(المائدة: آية ٤٢).

العدل واجب في تعاملاتنا مع غير المسلمين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ .(الممتحنة: آية ٨).

العدل شيء مقدس: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾.(الرحمن: الآيات ٧-٩).

لدرجة أن جعل الله لذنب الكفر وذنب قاتل النبي وذنب من يقتل شخصاً يأمر بالعدل عقاباً شنيعاً واحداً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .(آل عمران: آية ٢١).

القرآن يذكرك بدموع اليتامى يا سيدي: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ .(النساء: آية ١٢٧). أتعلم أن كافل اليتيم جار للنبي ﷺ في الفردوس، فهل سينافسك أحد في جواره، وأنت تكفل كل يتامى شعبك..

كم أنت محظوظ يا سيدي.

ثم اعكسها يا مولاي، واسأل نفسك: لو أدخلت الفاقة إلى كل بيت، فكم من دعوة في جوف الليل سترفع إلى الله ضدك، ولو أدخلت فساداً إلى كل بيت فكم من سيئة ستلقى في ميزانك.

سيدي وقرة عيني، عش ما شئت فإنك ميت.

أحبب من شئت فإنك مفارقه.

املك ما شئت فإنك راحل وتاركه.

افعل ما يحلو لك فإنك محاسب عليه.

سيدي، أنا لا أتحدث عن أسرارك ومعاصيك بين جدران بيتك، فتلك أمور سترها الله عليك، ويغفرها لك إن شاء الله.. أنا أتحدث عن أمور بينك وبين رعيتك الذين يفدونك بالروح والدم.. ألا يستحقون منك رحمة وحنان الأبوة.. سيدي، أنت كريم وهم يستحقون..

توقف الأمير وهو يراني وصاحبي وقد لمعت عيوننا ورحنا في تأمل طويل طويل.. بعدها قال صاحبي: أيها الرجل العادل: وماذا أعطاك ربك؟

ما أعجب سؤالك وأغربه.. ألا ترى ما نحن فيه!! لقد أمنت عندما فزع بعض الناس، وأظلني الله في ظله عندما قرف بعض الناس من العرق والحر الشديد.. وهان علي يوم القيامة، حتى كأنه ساعات من الفرجة والسياحة وانتظار إعلان أسماء الناجحين والمقبولين، أما أملاكي وأملاك أصحابي فلا نهايات للبذخ والترف والنعيم فيها، أما جسدي فأنت تراه وترى شبابي وعنفواني.. لقد كادت شيخوختي المتجعدة الهرمة تحرمني بأنانيتها من هذا النعيم الساحر.. لولا الله ثم هؤلاء الرجال العظماء لكنت في حفرة منتنة ألعن من حولي، ويلعنونني.. يسكب علي الماء المغلي والزيت المغلي، وطعامي مر مرير وأجوائي لهيب أو زمهرير.. الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.. الحمد لله الذي هداني لهذا، وما كنت لأهتدي لولا أن هداني..

ردد الجميع ذلك الثناء الأبيض، وزاد كل فرد منا ما يطوف بقلبه من عرفان..

وماذا فعل الله بأصحابك ومستشاريك؟

ها هم أمامك، بل زادوا علي بحصولهم على أجر مماثل للذي أحصل عليه.. ألم تعلم أنه من يدل إلى خير فله أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة.

كانوا كالملائكة...

أبداً كانت لنا هَنَات وزلات، لكننا كنا نسترها عن أعين الناس، ونرجو الله أن يغفرها وقد غفرها ولله الحمد، لكن همنا الأول هو من وضعهم الله أمانة في أعناقنا.. كان هذا أكثر ما يرعبنا ويقض مضاجعنا، والحمد لله أولاً وآخراً على النجاة، والحمد لله إلى الأبد على هذا النعيم.

كيف تقارنون ما تملكونه اليوم بما كنتم تملكونه في الدنيا؟

إنها كالمقارنة بين أن تحصل على قصر وأن تحصل على صورة لذلك القصر، أو تحظى بفاتنة بارعة الجمال، مقارنة بمن يحصل على صورة لها.

أنا أقارنها بمن يسمع عن هذه الجزيرة الساحرة وبين من يستلقي على ضفافها.

حقًّا إن المسؤوليات كنز لمن عرف كيف يديرها.

سمعنا من بعض الجيران أن هناك جزراً أخرى ليست بعيدة؟

يا إلهي، ما أروعها! جزر ساحرة من اللؤلؤ، وجزر من الياقوت، وجزر من المرجان، وجزر من الألماس، وجزر من أحجار كريمة لا حصر لها، ومن معادن ثمينة ومواد لا نعرفها.. وأخرى مشكلة متنوعة..

ما رأيكم في أن نأخذكم معنا في رحلة نحوها داخل هذا المحيط المدهش؟

لا مانع.. لكننا لم نستغرق هذه الجزر ولم نشفِ غليلنا منها.

لو بقيت قروناً لما مللت منها ولما روت غليلك.. ألا تذكر، كم كنا نعيش في قصور ربع قرن ونصف قرن ونحن نباهي غيرنا كلما غيرنا ألوان الجدران، أو أطقم الأثاث والستائر، أو حتى المصابيح؟ كم كنا نفاخر غيرنا باستيراد بلاطنا أو رخامنا أو أثاثنا، أو أدواتنا الكهربائية من تلك البلاد أو تلك، وسجادنا من هنا أو هناك؟ كم كنا نفاخر بعلامات الشركات الكبرى محفورة على ما استوردناه؟

انظر إلى تلك الجزر الأخرى، حيث يصب القصر كله صبًّا من لؤلؤة أو مرجانة أو ألماسة واحدة.. لقد أخذنا العجب في الدنيا من ثريٍّ حفر حماماً له من الرخام.. لم يفعل أحد مثله.. لكنه كان حماماً لو توقف تصريف الماء فيه لما أطاق أحد البقاء فيه، ولولا التهوية لما قدر على البقاء فيه، ولولا التكييف لاستعاض عنه بحمام صغير أو أرض فضاء؟

أجل...

امتد بنا الحديث حتى استضافونا في أحد اليخوت.. كان عالماً آخر فسيحاً ومتسعاً لكل أنواع المتعة.. المشارب والمسابح، والإطلالات والمقاهي والمرقص والمسرح، والغرف الكثيرة، والقاعات الفسيحة المفروشة بالسجاد والخشب الصقيل.. أبحرنا على ذلك اليخت نحو جزيرة لؤلؤية تنافس سابقتها شاعرية وفنًّا.. مكثنا فيها أشهراً نتنقل ونصادق ونضيف ونستضاف، ونمرح ونلهو ونلعب، ويجد بنا الحديث، ويرتخي حتى نستلقي من

الضحك.. بين تلك الجزر الحالمة وعلى تلك اليخوت.. لا أدري كم عاماً استغرقته رحلاتنا، فالزمن والخوف والقلق قد أطيح بها خارج أبواب الجنة..

مرت الأعوام بي وبصاحبي ونحن في سكرتنا التي لا نريد إفاقة منها.. وبينما كنا نتمشى على أحد الشواطئ اللؤلؤية الطويلة، قال لي صاحبي: أشعر بشيء يناديني بعد هذا الشاطئ.. شيء جميل ومدهش، ما رأيك لو بحثنا عنه..؟

وافقته وودعنا أصدقاءنا على أمل لقياهم مرة أخرى..

أخذنا نسير على شاطئ تأخذ حبيباته ألواناً لا حدود لها، وبمحاذاته طريق فسيح جدًّا للمركبات.. معبد بالجواهر والأحجار الكريمة، وعلى جانبيه طرق المشاة خلال النخيل الملونة والأشجار الباسقة، وجزر الزهور والورد العطرة.. مررنا برجال ونساء يسبحون ويتزلجون ويمرحون ويصرخون ويأكلون ويشربون، ويتقلبون في النعيم على تلك الرمال الملونة الناعمة النظيفة.. مررنا بفتيان وفتيات.. كانت سعادتهم تملأ المكان، أما صراخهم فكالموسيقا التي تلحن الأجواء.

رأينا مجموعة من الفاتنات يتسابقن على الشاطئ فقال صاحبي: هؤلاء من كن يصفهن الملاحدة بالمتخلفات والرجعيات والظلاميات.. سبحان من منحهن هذ الجمال والعبق والحرية والانطلاق والسعادة، فلتتمتع أولئك الملحدات اللواتي شتمن الدين وكفرن بالقرآن بقبح الوجوه ومزع اللحم في ذلك الجحيم.. فليتمتعن بتشوه الأجساد، وشعث الشعر وقذارة الثياب ونتن الرائحة التي لا يُطقن منها، و...

توقف أرجوك.. لا تشوه ما نحن فيه.. تأمل هؤلاء الزهرات.. ما أجملهن.. ما أعذبهن.. ليس بينهن مشوهة أو قبيحة.. ليس بينهن من تخجل من لون أو شكل، أو تشوه أو رائحة أو فقر أو حاجة، أو ذلة أو أي عيب.. إنهن الأنوثة في سحرها وعبقها وأبهى جمالها وأسمى معانيها.. إنهن الفتنة التي لو رأيناها في الدنيا لصرفتنا عن أموالنا وأهلنا ومشروعاتنا.. إنهن السحر الحلال الذي يعطف إليهن، ويصرف عن غيرهن دون شرك أو شعوذات.. إنهن الحرية التي لا حدود لها.. حيث لم يعد هناك من داعٍ لتلك المحرمات والضوابط.. لم يعد هناك من جريمة.. لم يعد للرجل تلك المشاعر الشريرة في اقتحام أسوار غيره واستباحة ما ليس له.. لم يعد هناك من غل وجشع يجعل من الرجل شيئاً شريراً يعيث في الأرض فساداً، ويرى أن كل شيء مرهون بإرادته.. لا مكان في الجنة لرجال منحطين يستغلون أجساد النساء، من أجل إتخام جيوبهم وأرصدتهم بالمال السريع والقذر، ولم يعد للمرأة ذلك الشعور بالدونية والضعف والخوف من المغتصب والمفترس.. لم يعد للمرأة ذلك الشعور بالحاجة إلى حماية الرجل وقوته وسلطته..

ما الذي تحتاج إليه المرأة من الرجل، وما الذي تخشاه وقد قيلت لها عند دخول الجنة كلمتان.. لم تجدهما في قوانين الرجل ودساتيره على الأرض: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾.(الحجر: آية ٤٦). سلام وأمن مطلقان لم يستطع الرجل توفيرهما لها على الرغم من هذره الممل عن حقوقها.. في أرقى الديموقراطيات في الدنيا كانت المرأة جسداً يتاجر به.. قطعة لحم تدر المليارات على صفحات الجرائد والمجلات والقنوات.. كانوا يضعون قنوات ليس فيها فكر أو عقل أو روح.. فقط قطعة لحم يطلقون عليها

امـرأة.. أحـد زعماء أكبر الدول الديموقراطية التـي تنادي بحقوق المرأة لـه أكـثر من مئـة عشيقة.. معظـم الأثرياء الذيـن ينادون بحقـوق المرأة كانت يخوتهم في الدنيا مواخير متنقلة تزدحم بقطع لحم اسمها المرأة.. طرقات السياحة وجدرانها كانت ترصف بقطع اللحم تلك.. لم تعد المرأة قطعـة لحـم بعـد أن قيل لهـا: ادخليها بسـلام آمنة.. لم يعـد للرجل من قدرة جسدية أو سلطوية أو قانونية ليستغلها.. ماتت العادات والتقاليد في الجنة.. ماتت القيود في الجنة.. ماتت السلطات في الجنة.. ماتت القوامة في الجنـة.. لـن يستطيع رجـل إرغام امرأة على شيء.. لهـا ما تشاء وعند الله المزيـد.. عندمـا كنـا في الدنيـا كان الرجـل يريد افتراس مـا أمامه.. ينتهـك.. يغتصب يمارس ألاعيبه ويرمي شباكه، والضحية امرأة، والمرأة غالبـاً مـا كانت تدفـع الفاتورة، لأنها الأضعف.. حتـى في تلك البلاد التي يتغنـى النـاس بحريتهـا.. تغتصـب فيها الفتيـات بالدقائـق لا بالساعات، على الرغم من أن كل أبواب الحرام والحلال مشرعة ومفتوحة.

ولم الاغتصاب والحلال والحرام متاحان؟!

إنه الطمع والحسد والجشع.

وهـل ماتـت العواطـف وانتحـرت الرغبـات في الجنـة حيث هـذه الأجساد الفاتنة، المفعمة بالأنوثة والرقة والجمال والسحر؟

لا، بـل تضاعفـت عشـرات المرات، فالرجـال والنساء هنا كلهـم شغف ورقة ورومانسيـة وحـب، لكـن دون اعتداء أو جشع.. لقد نـزع الله ما في قلوبهم مـن غـل وحسـد وطمع فيمـا عنـد الآخرين.. الـكل وسيم وجميـل وغني وكريم وسخي.

أما من حجاب؟

الحجاب في الجنة مجرد زي أمره يعود للمرأة لا للرجل.. فلها أن تلبس ما تشاء وتتزين بما تشاء.. هناك شيء أهم من الحجاب رفع عن المرأة.. الصلاة والصوم.. إنها أركان الدين.. المرأة في الجنة عبق لا مثيل له.. جنة ساحرة تطوف بين الجنات.. لا نكد في حياتها ولا ملل ولا مرض.. لا حيض ولا نزيف ولا وحام ولا ولادة ولا نفاس.. ولا ما يصاحب تلك الأمور من أعراض وانتفاخات وتورمات وقيء وترهل وتعب وقرف.. ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾.(الحجر: آية ٤٦). هكذا قيل لأهلها عند بواباتها.. بل إنني أزيدك من الشعر بيتاً: لو أرادت المرأة أن تتحول إلى رجل لتحقق لها ما أرادت.

آه... كم ستتحطم من قلوب عند ذاك.

ذاك في الدنيا، أما هنا فالقلوب يجتاحها الحب والغرام والشغف، ولكن ليس في قاموسها شيء اسمه حطام... لقد ذكرتني بحطام القلوب على شواطئ الأرض.

ضحك صديقي، ثم قال: دعنا نسترخِ على هذا الرمال اللؤلؤية الناعمة، فالحديث والشعر جميل أمام هذا البحر المنعش الذي يعج بالمشاعر والأنس والفرح، ثم التفت إلي وقال: ترى كيف يصف الشعر ما نحن فيه؟

الشعر يا صاحبي، لا يكتفي بتصوير الواقع ووصفه أو تلوينه وصبغه من الخارج.. إنه حيث يعيد خلق الواقع.. يهدمه ويبنيه من جديد.. الشعر عالم تجد فيه الأماكن التي تتسع عندما تضيق الأنفس وتصادر

الحريـات، والأجنحـة التـي تسافر بك عندمـا يصادرون جـواز سفرك، أو يمتنعون عن إعطائك تأشيرة دخول.. إنه كالحلم لا يعرف الجدران.

لكـن أي شعـر يستطيع أن يرتقي إلى هذه الروعة.. أعجز عن تصور شعر يملـك القـدرة علـى إعـادة تشكيـل في الجنـة.. في الدنيا كنا نحلـم بفتيات الجنـة.. كنـا نحلـم بتبـادل العواطـف والوله معهـن.. لكنني أجـد الشعر خجـولاً أمـام سحرهـن وفتنتهـن هنـا.. كان الشعـر قـادراً في الدنيـا على المبالغة.. اليوم حتى مبالغاته خجولة؟!

إن الذي منحنا هذا السحر والنعيم قادر على أن يمدنا بشعر آخر يرتقي إلى مستوى ما نعايشه وما نعانيه هنا..

ماذا ستقول لو نادتك إحداهن من شرفات الجنة؟

كلـي يقـين أن شعـر الدنيـا.. كل الدنيـا لـن يرتقـي إلى تلـك المشاعـر واللحظات، لذا أسأل نفسي وكأني أسألها:

لقربـك في الخلـد مـاذا أقـول — وماذا لدى الشعـر حتى يقول؟
لغاتـي تنهـار عنـد اللقـــاء — حروفي لا تسـتطيع الوصول
تمـوت الحــروف وتحيـا لـك — حروف وشعـر جديد الأصـول

أجل، يا صديقي، وماذا لدى الشعر اليوم حتى يقول.

الإنسـان هنـا يـرى أحلامـه ومـا وراءهـا.. هنـا يـرى الأمـاني، وينشغـل بتحقيقها.

كنا نحلم بفتيات الجنة.. كان حلماً يدفعنا التمسك به نحو المزيد والمزيد.. كان يأخذنا بعيداً عن عفن الرذيلة وأرصفة الإحباط ومفاوز اليأس.. نحو الله.. نحو أبوابه وعطاياه.. ترى كيف هي فتاتي، وكيف هو قصرها؟

لطالما بنيت لها بالدعاء القصور.. لطالما شققت لها الأنهار في مخيلتي.. لطالما سقيت ربوعها بالأمطار والأشعار، ولطالما طاف شعري حول خيامها وأغنامها وحِماها.

ألم تمر بك حالات يكاد معها ذلك الحلم يتحول إلى سراب؟

بلى.. وما أقساها من لحظات تلك التي أتصور أنني خارج هذا العالم الساحر.. في تلك الحفر المنتنة والوجوه المقززة.. بعيداً عنها.. ما أقساه من تصور، وما أتعسها من حياة.. أشعر بالغربة ويطير النوم من عيني ويستبد بي خوف لا أطيقه.

خفض صاحبي رأسه وزفر كلمات تقول: يا له من شعور بالغ القسوة والمرارة.. ألا تكون هنا.. أن تتأخر رحلتك، أو تتحول محطة وصولك.. حتى الشعر أكثر الشعر مبالغة لا يستطيع تصوير ذلك الشعور.

ذكرتني بمبالغات الشعراء وتزييفهم لوعي الإنسان.

لكن الشعر ليس تصويراً فوتوغرافيًّا للواقع.

تماماً لكن الانفصال الفج عن الواقع تزييف.. الواقع كالشمس والشعر انبثاق الأشعة منه.. إنه ليس صورة فوتوغرافية للشمس.. إنه جزء منها منبثق عنها، لكنه أبعد مسافات وتأثيراً وإضاءة وكشفاً.. هكذا أرى الشعر، وهو ينبعث من الواقع وينفصل عنه ويتجاوزه إلى المناطق البكر.. إنه

يضيء ويكتشف العالم في الوقت نفسه. هذه وظيفته كما تلوح لي، وعندما جاء الإسلام أضاء العالم المعتم بالقرآن.. وتحدى الشعر أن يقوم بالمهمة نفسها.. ببعضها.. بجزء من بعضها.. كان الشعر في تحدٍّ مع إنجازات القرآن.. ليس على مستوى البلاغة بل على المستوى الأولى: الإنجاز.

وهل تعتقد أن الشعر قد نجح؟

ليست مهمة الشعر أن ينجح، بل أن يحاول.

كأنك تقول: إنه فشل في التحدي مع القرآن.

أفضل استخدام كلمة (لقد فشل بالتأكيد) بدلاً من كلمة (كأنه).. فشل؛ لأن الفرق بينه وبين القرآن، كالفرق بين الخالق والمخلوق..

أنت حكمت عليه بالفشل على الرغم من إبداعاته.

أجل، ودون تردد.. أخفق الشعر مقارنة بالقرآن.. لا مقارنة بالنثر والرسم والبناء وسائر الإبداعات التي حققها الإنسان، فهو على هذا المستوى في مد وجزر.. أمقارنة بالقرآن؟ فأخبرني: هل تعرف شعراً جعل غير الناطقين به يعتنقون لغته كما فعل القرآن؟ هل تعرف شعراً بدل وغير لهجات العرب كما فعل القرآن؟ هل تعرف شعراً غيَّر الأديان والأخلاق والعادات والتقاليد كما فعل القرآن؟ هل تعرف شعراً حوى من البلاغة والإعجاز العلمي ما حققه القرآن في نصف سطر.. هل تعرف شعراً حول أمةً أميةً إلى أمة تثقف العالم وتعلمه.. هل فعل الشعر ذلك؟ كان الشعر إحدى سمات العرب قبل الإسلام، فماذا صنع بهم؟ لا شيء سوى التخلف والثارات. بينما حملهم القرآن من الكعبة إلى أعماق أوروبا وأطراف آسيا

وإفريقيا في خمسين عاماً فقط، ومع ذلك، فالشعر إنجاز بشري بالغ الروعة والجمال، وتتألق روعته كلما توغل في الكشف والركض في القارات المجهولة والمساحات البكر..

ما دمنا نتحدث عن الشعر، هل تتوقع أن نجد إبداعاً في الجنة؟ هل سنجد فنًّا ورسماً ونحتاً وموسيقا وشعراً..؟

إذا كان الله قد منح الإنسان القدرة على تلك الإنجازات والإبداعات العظيمة في تلك الدنيا المحدودة الجمال، فكيف سيكون كرمه في جناته حيث لا حدود.. سترى شعراً وفنًّا وموسيقا ونحتاً وهندسة واختراعات بشرية أبعد مما تحلم.. الأمر منوط بحبك لتحقيق ذلك..

ذات يوم قال نبينا ﷺ لأصحابه: (إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع.

فقال له: أو لست فيما شئت؟

قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع.

فأسرع وبذر فتبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال.

فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء).

تصور رجلاً بهذا الطموح وحب العمل.. وتصور ملايين منهم يحبون العلم والاختراع والاكتشاف.. تصور عالماً يريد أن يرى كيف خلق الله السماوات والأرض.. وآخر يريد أن يرى تسجيلاً عن انقراض الديناصور، وآخر يريد أن يرى تسجيلاً عن طوفان نوح وخسف الله بقوم لوط في

البحر الميت وغرق فرعون أو هجرة النبي ﷺ أو غزوة بدر.. تصور رجلاً يريد أن يبني ويخترع ويكتشف.. تصور، وتصور.. ودع للميارات السنوات الإجابة..

ملأ الحماس صاحبي، فقال: دعنا ننهض فأنا لا أطيق صبراً عن مشاهدة الجديد.

سرنا على تلك الرمال التي تنعش القدمين.. قطعنا مسافات مليئة بالتأمل والتأوه والدهشة، وبالالتفاتات هنا وهناك وبأشجار ونخيل باسقة على جانب الشاطئ.. تناولنا بعض ثمارها المتدلية فغبنا في طعم لولا وعد الله لقلت: إن هذا منتهى اللذات التي ذاقها ابن آدم.

تأوه صاحبي وسافر به الطعم إلى سماوات وكواكب.. متعة الطعم والمشاهد كانت لا تنقضي، ولا تكف عن إسكارنا، وبعد أن سرنا مسافة بين تلك الأشجار والنخيل والأجواء أحسسنا برشة عطر زكية تنبعث من جسدينا تعطر المكان وتغمره.. يا إلهي، إنها رائحة تلك الثمار التي تناولناها..

صدق حبيبي ﷺ عندما سئل في الدنيا عن الطعام، وأين يذهب بعد تناوله مادام لن يعرف شيئاً اسمه دورة المياه في الجنة؟ فقال: (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون. قالوا: فما بال الطعام؟ قال جشاء ورشح كرشح المسك).

أتذكر ما يحدث لنا بعد تناوله في الدنيا.. أتذكر سرعة الصدأ التي تصيبنا؟ أتذكر حاجتنا للصيانة كل ساعة؟

أجل.. لقد كنا سريعي العطب كريهي الرائحة لولا رحمة ربي بوفرة المياه وتلك المنظفات.. أتذكر تلك الرغاوي والمعطرات والملطفات، والمرطبات والمثبتات والفاردات والمجعدات، والدهانات المخفيات والمبرزات؟ أتذكر تلك المزيلات لروائحنا وشعرنا غير المرغوب فيه و...؟ كنا نحاول تخفيف معاناتنا عن طريق زيادة مساحات الحمامات وزخرفتها، والتفنن في أشكال المغاطس والأرفف والمرايا والبلاط والحيطان.. وها نحن اليوم بأجساد تشع نظافة وجمالاً.. أجساد لا يرشح منها سوى العطور التي تنعش الأجواء..

أخذنا نسير وسط سهول وحقول شاسعة ذات أعشاب أخاذة، لم تكن خضراء فقط، كان منها الأحمر والأصفر والأبيض، وما شئت من ألوان.. تتناثر فيها خيل تضفي عليها جمالاً وفتنة.. خيل مطواعة لا تنفر من الإنسان، ولا تستوحش منه.. كانت خيلاً ملونة بيضاء وسوداء وحمراء وصفراء وأرجوانية وزرقاء وخضراء.. كانت بكل الألوان التي رأيناها والتي لم نَرَها.. وكأنها نبتت من تلك الحقول.

قمنا بالصفير لها ومناداتها، فأقبلت ولها صهيل عذب يملأ الأجواء بذكريات مثيرة.. امتطيناها، فحملتنا إلى ذكريات بعيدة.. فقال صاحبي: كأني أعيش الفروسية وأمجاد الإسلام.

وهل هناك أجمل من هذا المكان لتذكرها.. إنه المكان الحلم:

كأني مع أبي بكر أناجي ... محمدَ سيدي عن كل ما بي

كأني مع علي فوق نجم ... مع الفاروق نقذف كالشهاب

أراني رمية من كف سعد
من المقداد من عزم الحُبَاب

أراني صرخة من سيف حمز
تشق النقع تفتك بالذئاب

أراني هائماً بالحب أروي
عروقي من دما ذاك الشباب

وهمس السيل يروي أرض بدر
ويمضي باسماً بين الشعاب

نعود إلى المدينة قد نقشنا
على الآفاق آفاق الكتاب

لتنعم هذه الدنيا بحلم
رأته بغيرنا تحت التراب

نزينها عروساً ثم نمضي
لنرفع ما هوى بين الخراب

على جنبات أحمد قد خطونا
تخط سيوفنا فوق السحاب

ونصر الله يصحبنا خيولاً
مجنحة ترف على الهضاب

لنسقي من تلظى من سحاب
تصوره الخيانة كالسراب

وأين عثمان الشهيد؟ الشهداء يقتلون في ساحات الوغى.. وعثمان يقتل دفاعاً عن المصحف..

ما غاب عني عثمان المظلوم.. ذو النورين الذي ضحى بدمه من أجل ألا تراق قطرة دم مسلم.. عثمان الحياء والكرم والفداء.. كم تمنيت لو قضيت ليلة رباط حول بيته قبل أن تصل إليه أيدي المجرمين.. أصرخ من أعماقي بالمغادرين إلى طيبة الحبيبة..

يا سائرين إلى الحجاز توقفوا
هل تقصدون مساكن الخلان

هل تقصدون مرابعاً في طيبة
قلبي يعاني مثلكم ويعاني

قلبي بذي النورين صار متيماً ... ليتي أبادل حبسه بمكاني
هو وحده والموت يخلع بابه ... هو وحده في بيته العطشان
هو وحده متحصناً بصيامه ... بقيامه وبنسخة القرآن
ناشدتكم أن تسعفوه بشربة ... هاكم بقايا قربتي وخواني
اسقوه كم لبى وأعطى واشتفى ... أيتامـــه من بره الفتان
هو يرفض الحراس يأبى أن يرى ... للسجن أقداماً وللسجان
هي طيبة من ذاق طيبة ينتهي ... عشقا وأزهارا على الأغصان
هي عشق ذي النورين حين تآمروا ... هي وجه من يسمو على الأحزان
جاء الأمير من الثغور مناشداً: ... مرني أطوق طيبة بثواني
مرني سأسحق من تمرد قامعاً ... وسأترك الأوباش للسجان
عثمان يطرق ساعة.. ويجيبه: ... هي يا ابن عمي طيبتي وجناني
لا لن تُرى الكاميرات فوق نخيلها ... لا للقمار ببسمة الإنسان
عد يا ابن عمي للثغور لتحمها ... عد فارساً لحماية الأوطان
أنا لن أشكل فرقة لحمايتي ... لن أقمع الأصوات في الوجدان
أنا يا ابن عمي واحد من أمة ... إن غبت جاء مجدد بثواني
فليذبحوني لن أهبّ لصدهم ... لا يستحق الأمر خفق جناني
أخشى عليهم من رجال محمد ... أخشى الحماس يهيج بالفتيان
دعهم يكيلون الشتائم صاعهم ... قد صمموا صاعاً من الأكفان

وسأشتري اليوم الدماء بمهجتي ودمي يراق بخنجر الشيطان
كل المطالب كلها لبيتها لكنهم عشقوا لظى الطغيان
لن يعرف الطاغوت أبوابي فلا تطلع سيادته على عنواني
لن ينتشوا بالذبح عبر شوارع طافت بها الأنصار كالريحان
وتفتحت نحو المهاجر باقة تنسيهم الآلام بالإحسان
كم يعشق الفقراء أبوابي ومن غير الفقير يعيش في عثمان

رضي الله عنه ما أكرمه.. ما أجمل إيثاره!

كان مبغضوه يتهمون بالتشبث بالسلطة..

وهل الذي يتشبث بالسلطة يمنع الجند والأصدقاء والأبناء وحتى العبيد من حمايته؟

كانوا يكتبون التاريخ بأهوائهم وميولهم، لا بعقولهم.

تقصد كانوا يزورون التاريخ بها.

عثمان كان مثالاً في جوده.. مثالاً في انتخابه.. في نشره لكتاب الله.. في سماحته.. في الإنصات لمعارضيه، وفي تنازلاته عن أخطائه، وفي تضحيته بنفسه من أجل أمته..

من هو الحاكم الذي يتنازل عن حقه في حراسته الشخصية، وهو يعلم بوجود مخطط لاغتياله.. إن أول شيء يصنعه الملوك بناء القصور والسجون، وعثمان رضي الله عنه رحل عن الدنيا كما رحل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم

لم يبنوا قصوراً أو سجوناً مع أن السجن ثقافة الفراعنة والروم واليونان والفرس وغيرهم؟

أخذنا الحماس فصحنا بالمهرين فانطلقا بنا كالريح دون أن نحتاج إلى سرج أو نخشى الوقوع.. كنا أكثر استقراراً وارتياحاً على ظهريهما منا على مقاعد سيارة من سيارات الدنيا الفارهة..

كان منظرنا على المهرين متناغماً مع الأجواء الريفية الخلابة التي نعبرها الآن.. فالخضرة والزهور التي تحف بكل شيء، وخرير الماء وانسيابه، وملابس المرتادين لتلك القرى الحالمة، وابتساماتهم والجمال الذي يشع من كل شبر نراه أو نصل إليه..

أوقفنا المهرين، ودون أن نربطهما لزما مكانيهما أمام كوخ كبير من الخشب العطر.. كان مشرباً تفوح منه رائحة القهوة وخمرة الجنة، ومشروباتها الجديدة العبقة.. وتتدفق من زواياه موسيقا عذبة تزيد أجواءه أحلاماً وعذوبة وهمساً.. كانت الإضاءة خافتة، والشموع على الطاولات الخشبية وعلى أرفف صغيرة في الزوايا تعزف للعين ألحانها الخاصة.. ومناظر العشاق والأصدقاء والمحبين والإخوة داخله، تجعل الأنس يناشدك أن تمضي في زمن مفتوح دون ملل.. لكنها الجنة.

زفر صاحبي قائلاً: آه لو رأى مالكو حانات الدنيا هذه الحانة الحالمة، وتذوقوا هذه المشروبات وانتشوا بها ورأوا هذه الإطلالة الأخاذة، لأمضوا حياتهم في المساجد من أجل أيام يقضونها هنا..

لكن الله لم يطلب من أحد أن يلازم المسجد، أو أن يتحول إلى راهب، ولم يطلب منه حتى ألا يعصي.. الإسلام لم ينزل لملاك أو لحجر..

نـزل للبشـر، والبشـر يطيعون ويعصـون ويتوبون، بـل إن نبينا ﷺ يقول: (والـذي نفسـي بيـده لـو لم تذنبوا لذهـب الله بكم ولجاء بقـوم يذنبون، فيستغفـرون الله فيغفر لهـم) الذنب يقرب العاقل من الله، ويبعد المتهور والمعاند والمتكبر من الرحيم.

أوليست الطاعة هي التي تقرب الإنسان من ربه؟

أجل، الطاعـة وليس التباهـي بها.. هنـاك طاعة قد تتسبـب في الهلاك، وهنـاك معصيـة قـد تتسبـب في دخـول رحمـة الله. عندمـا يفعـل العاقل عبـادة، فـأول ما يفعله هـو الشكر وتقـديم كل عبارات ومشاعـر الامتنان لربـه أن هـداه وفتح له أبوابها، ثم يسأل الله القبول والمداومة، أما المتهور والمتكبـر فـإذا صلـى أو تصـدق أو مارس عبادة مـا.. بدأ يتلفـت عله يرى مـن لم يقم بهـا حتى يشعر بوهم تفوقه عليهم.. بدأ يحصي ما ينقصهم ممـا حصـل عليـه، لا ليشكر الله علـى أن هداه، ولكـن ليشعرهم بتفوقه.. هذه الحسابات تمنحه المزيد من التهور وإطلاق الأحكام حتى على النيات أيضـاً، ونسـي ضعفه وقـوة الله.. نسي انتشال رحمة الله لـه.. نسي رحمة الله التـي وسعـت كل شيء.. لذا يحاول تفصيلها لتتسع لمن يريد، وتضيق عمن يضيق هو به.. ذات يوم قال الصحابي الجميل العذب أبو هريرة رضي الله عنه لرجـل من أهـل اليمامة: (يا يمامي.. لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لـك، أو لا يدخلـك الله الجنـة أبداً. فقـال اليمامي: يا أبـا هريرة، إن هذه لكلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب.

قـال: فـلا تقلهـا.. فـإني سمعـت النبـي ﷺ يقـول: كان في بنـى إسرائيـل رجـلان كان أحدهمـا مجتهداً في العبادة، وكان الآخـر مسرفاً على نفسه،

فكانا متآخيين، فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب، فيقول: يا هذا، أقصر. فيقول: خلني وربي أبعثت على رقيباً؟

إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك أقصر. قال: خلني وربي أبعثت علي رقيباً؟

فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة أبداً....

فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: أكنت بي عالماً..؟ أكنت على ما في يدي خازناً؟ اذهبوا به إلى النار.

قال: (فوالذي نفس أبي القاسم بيده لتكلم بالكلمة أوبقت دنياه وآخرته).

كم منا من كان يغفل عند الحكم على الآخرين تلك الأسرار التي بين الإنسان وبين ربه، والعلاقات الخفية التي تربط الآخرين بربهم، كصدقة السر، وذكره في الخلوات، والتوكل عليه، والثقة بنصره ووعده، وتقديم حبه على كل حب، واحتراق المشاعر عند رؤية المظالم التي حرمها الله على نفسه، وحرمها على عباده، والرحمة بالخلق وقضاء حاجاتهم، والجود وإغاثة الملهوف، وشكر الله كلما وقعت عيناه على من هو أضعف منه أو أقل شأناً.. كم كنا نغفل فضل حسن الخلق وعدم غش الناس. كم كنا نغفل نظافة القلب من الغل والحسد وأشياء كثيرة تطمسها لائحة التفوق على الآخرين التي نعلقها على جدران غرورنا.

ولكن أليس من النفاق والازدواجية.. أن تظهر عكس ما تخفي؟

هذا السلوك أبيض ولا حدود لمداه وجماله، أما النفاق فسلوك أسود

يخنق صاحبه ومجتمعه. دعني أُرِك بعض ذلك المدى الأبيض.. ذات يوم قال بعض أصحاب النبي ﷺ: بينما أنا مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ قال: انظر أرفع رجل في المسجد في عينيك.

فنظرت، فإذا رجل في حلة جالس يحدث قوماً. فقلت: هذا.

قال: انظر أوضع رجل في المسجد في عينيك (أي أقلهم شأنا).

فنظرت فإذا رويجل مسكين في ثوب له خلِق (أي رَثّ)، قلت: هذا.

قال النبي ﷺ: هذا خير عند الله يوم القيامة من قرار الأرض مثل هذا).

قصة أخرى صدعت قلب شاب عشق الجنة لدرجة كان يصوم كل يوم، وكان يقرأ نصف القرآن في النهار ونصفه في قيام الليل.. هذا الشاب كان يوماً مع نبيه في المسجد، فإذ به ﷺ يبشر رجلاً سيدخل من باب المسجد بالجنة. دخل الرجل، فصدم الشاب. فالرجل غير معروف بكثرة العبادة وقراءة القرآن مثله. وازداد تعجبه في اليوم الثاني والثالث. حيث كرر ﷺ تبشيره بالجنة. ذهل الفتى الذي تزوج بفتاة جميلة، فلم ينم معها لانشغاله بالقيام والصيام وقراءة القرآن.

لأول مرة يرى نبي الله يبشر أحداً بالجنة ثلاثة أيام متوالية.. فكر وفكر بحيلة يكتشف فيها أعمال الرجل التي أوصلته للجنة وهو على الأرض. فتوجه نحوه وطلب منه أن يبيت عنده أياماً. فرحب به الرجل المبشر بالجنة. ثم قام الفتى برصد حركة الرجل داخل بيته ليل نهار فلم يَرَ قياماً ولا صياماً. وبعد ثلاثة أيام استأذنه وشكره على ضيافته، وقبل مغادرته كاشفه بسبب طلبه المبيت عنده، وهو أن النبي ﷺ بشره بالجنة

ثلاثة أيام. وأنه لم يَرَ لديه أعمالاً تثير الانتباه. فلم يزد الرجل على أن قال: ما هو إلا ما رأيت.

عندها همّ الشاب بالمغادرة وقبل أن يتجاوز الباب استوقفه الرجل وقال له كلمات تضيء أعماقاً بالغة النصاعة والطهر، فقال: ما هو الا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه.

أفاق الفتى على عوالم نورانية شفافة كان غافلاً عنها، فقال: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق.

المقياس هنا ليس الشكل ولا الهيئة، وإن كانا ضمن المقاييس المطلوبة.. المقياس هنا ليس له علاقة بالسطح بل بالعمق.

وهل يخسر المسلم حسناته وهو داخل دائرة الإسلام؟

بل أحياناً يفلس تماماً.. تأمل جرائم مثل: الظلم والاستبداد والسطو على أموال الآخرين وأراضيهم وحرياتهم وأعراضهم، أو انتهاك حرماتهم وحسدهم. لقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه، فقال: (أتدرون ما المفلس؟

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته.. فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار).

الذي أعرفه أن الحسنات تضاعف، أما السيئات فلا.

إن من يدعو إلى خير أو إبداع مثمر فله أجره، وله أيضاً مثل أجر من عمله إلى يوم القيامة.. مثلاً لو كان لك صديق دعوته إلى الإسلام.. لو أهديت له كتاباً فقرأه ودخل في دين الله، فإن كل عبادة يمارسها لك مثل حسناتها، فإن أنجب أبناءً ورباهم على الإسلام فلك مثل حسناتهم، وكذلك أبناء الأبناء ومن بعدهم... إلى يوم القيامة.. لو علمت شخصاً القراءة والكتابة، أو مهنة كالطب مثلاً، فلك مثل أجره وأجر من تعلم على يديه وانتفع منه إلى يوم القيامة.

وما علاقة الطب بالحسنات والسيئات.

يقول ﷺ لنا عندما كنا هناك: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد المدينة- شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه.. ملأ الله -عز وجل- قلبه أمناً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى أثبتها له أثبت الله -عز وجل- قدمه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام)... هل ترى في هذه الأعمال صوماً أو صلاة أو قراءة للقرآن؟

لا، إنها أعمال إنسانية بالغة الجمال والروعة.

هل هناك أجمل من شفاء يحصل عليه مريض بسببك؟ هل هناك حاجة تعدل حاجة المريض إلى العلاج والشفاء؟

بالطبع لا.

هذا هو جمال الإسلام.

وما الذي يحصل عليه من يفعل هذه الأعمال، لكنه يرفض الدخول في الإسلام؟

لا تضيع عليه، إنه يحصل على الشكر والثناء في الدنيا، وعليه أن ينتظر من يتوجه إليه بها كي يكافئه.

وماذا عن الجنة، ألا يدخلها؟

هو لا يحتاج إلى الجنة.. لقد رفضها في الدنيا، ورفض الطريق الموصل إليها، وسخر من عشاقها، لقد بذل جهوده من أجل الدنيا وما فيها، والدنيا قد انتهت وانتهى عطاؤها.

وماذا تسمي ما فعله بعضهم من نشر للإلحاد في الدنيا؟

إنهم لم يكتفوا بارتكاب المعاصي، ولم يكتفوا بالمجاهرة، بل تمادوا وتحولوا إلى دعاة ينشرون كآباتهم وجهلهم وانحرافهم، تحولوا إلى وباء معد؛ لذا فهم اليوم يعانون سيئات أنفسهم وسيئات من ينخدع بهم، ولذا قال ﷺ: (من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا). وقد وصف القرآن من ينهج منهجهم

فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.(النحل: آية ٢٤-٢٥).

كان بإمكانهم أن يعصوا، ويستروا أنفسهم، فتخمد آثار المعصية قبل أن تمتد إلى الآخرين.

لا أجد فرقاً بين الحالات الثلاث.

إن كنت تعبد هواك فلن تجد فرقاً بين الإنسان والحجر.. هناك فرق بين من يعصي ويستر نفسه، وبين من يعصي ويجاهر، وبين من يعصي ويدعو إلى معصيته: الأول معترف بتقصيره وبشريته، ويخجل من ذنبه ويندم ويحاول الإقلاع، وهذا النوع ضرره على نفسه فقط؛ لذا يشمله الله برحمته لأن (الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا.. أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول: نعم، أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطى كتاب حسناته).

وأما الذي يجاهر دون حياء، ويرتكب معاصيه بكل وقاحة وقلة حياء، ودون مراعاة للآداب والذوق فكالمرض المعدي؛ لذا أنذر ﷺ أمته قائلا: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه).

أما الدعاة إلى الفساد والانحلال تحت دعاوى الحرية فمصيرهم كما قال ﷺ: (من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً).

وإذا كانوا يرون أن ما يدعون إليه حرية وتحرراً، ولم يكن هدفهم الإفساد؟

كأن تجد لذة في ارتكاب مخالفاتك، وتريد أن يشاركك الناس تلك اللذة؟

تماماً وليس سوى أنني كنت أرى الحياة قصيرة، وأخشى أن تفوت الجميع لذاتها..؟

ولم فوَّت على الآخرين أن يشاركوك زوجتك ومالك وبيتك ومنصبك، وفوت على أبنائك لذة مشاركتك الخمر والمخدرات؟!!! كنا يا صاحبي، في دنيا.. إن لم يسد فيها النظام والانضباط، تحولت إلى غابة، وتحولنا معها إلى بهائم.

وإن ادعى أحدهم أنه لم يكن يعلم أن هناك جنة وناراً؟

الذي لا يعلم حقًّا له شأن آخر ولن يدخل جنة أو ناراً إلا بعد أن تصله رسالة واضحة وبينة من عند الله، لكنني أتحدث عن قوم يعلمون لكنهم يسخرون.. كان يخشون أن يقتنعوا، فتفوتهم تلك الملذات.. يا صديقي - تحت أي شعار كانوا يدعون إليه - كل من استجاب لهم، وارتكب أمراً دعوهم إليه، فعليهم مثل وزرهم..

كانوا يلتهمون كتب السياسة والفكر والإلحاد والروايات ودواوين الشعر، لكنهم كانوا يغصون بكتيب صغير من كتب الإسلام، كانوا يحكمون

عليه قبل أن يقرؤوه، ويحاكمونه وهو غائب عن عقولهم وأعينهم.. كانوا يبخلون بالوقت عليه، ومن قرأ شيئاً فيقرؤه عله يجد تناقضات أو أخطاء يتمنى وجودها.

كم هم في حاجة إلى خمر تنسيهم ما هم فيه اليوم؟

فليهنؤوا بغسالة أهل النار المقرفة.. فالخمر لنا وحدنا اليوم.

طال حديثنا وتنوع ومكثنا ساعات طويلة وطويلة.. كنا لا نشعر بالوقت إلا عندما يمر بنا النادل المهذب ليعرض علينا خدماته، قال صاحبي: إنني لا أرى أثراً ليوم ولا لليلة، كأننا خارج الزمن؟ أين ذلك الزمن الذي نرى تقاسيم شيخوخته على أجسادنا وحركاتنا وضعفنا.. نرى خطوطه على أصداغنا ومفارقنا.

ما أجمل أن نكون خارج الزمن والألم والمعاناة.. خارج مقاييس الدنيا التي أنهكتنا بحسابات الأرباح والخسائر.. خارج الخوف من المجهول، والرعب من القادم، وهاجس فقدان النعيم... نحن خارج الملل، فالممارسات كلها لها بهجة الممارسة الأولى، واللقاءات كلها لها نشوة اللقاء الأول، واللذائذ الحسية كلها لها روعة ومفاجأة التذوق الأول، كل شيء نراه ونعيشه نحتفي به وكأننا نراه ونعيشه لأول مرة.. نحن خارج التعب والنوم قاتل الزمن وسارق الحياة.

لكنه كان يأتي في الوقت المناسب ليزيل عنا التعب والإجهاد.

لأن أجسادنا كانت سريعة العطب كان النوم يسرق من أعمارنا مقابل بعض الصيانة.. كم كانت فاتورة الصيانة باهظة.

حقًّا.. عند التأمل نكون قد عشنا نصف أعمارنا فقط.

بل أقل من ذلك.. هناك سنوات الطفولة الأولى التي نعيشها ولا نعرفها بل نعيشها من أجل غيرنا، ثم هناك مرحلة الشيخوخة والكبر وضعف القوة والحواس.. هذا إذا لم يصب الإنسان بمرض مزمن، أو عاهة أو آفة أو عجز أو خرف، أو العيش في بلاد فقيرة بين الأوبئة والفقر والمجاعة والتسول والموت البطيء، ناهيك عن قضاء بعضهم زهرة الشباب في السجون أو المعتقلات والمنافي أو الصراعات والحروب، إضافة إلى إفرازات الجسد وضرورة التخلص منها، وما نقضيه من أوقات في صيانة أجساد الدنيا بالأدوية والمضادات والعمليات الجراحية، وقائمة طويلة من المنظفات التي تستهلك أكثر من نصف دخل الإنسان.

لقد كنت تنظر إلى الدنيا بعين سوداء بالغة العتمة؟

لقد عشت حياتي بسعادة، ولكن بشوق إلى ما ها هنا، ولم يكن ينغص علي فيها سوى تفكيري في أوضاع أمتي بعيداً عن مواطن الريادة في كل المجالات.. كنت دائماً ما أهتف بالقادم الجميل لأمتي على الرغم من الحسرة التي كانت تلفنا، وأقول:

يا نديم الروح دعني

قد ترامى داخلي مثل المقابر

يا نديم الروح دعني

بين أحزاني وهاجر

بين أنقاض الوعود الخاويات

بين أنقاضي أغامر

ربما

ربما تأتي القوافل

برداً يطفي الهواجر

ربما تأتي القوافل

تحمل الأجلى

تحمل الأقنى

نحو أوطان رمتها

ليلة حمراء

بين أعقاب السجائر

وأين كانت محطة انتظارك؟

كانت..

أمام سكة الحديد والسهر

في بلدة عمياء

في بلدة تميد بالصداع والضجر

كان اللصوص يشربون

وكنت أنتظر

قدومك الجميل

قدومك الجميل يا عمر

يا له من قدوم جميل، لكن لم تحدثني عن الدنيا بهذا الحزن، أم أنك تريد تصويرها على أنها سجن المؤمن وجنة الكافر؟

كنت أرى الدنيا جميلة وثرية، لكنني كنت أراها أقصر مما أحلم، وأبخل مما آمل.. أما عن قول النبي ﷺ الذي ذكرته، فإني أسألك أنت عن هذا القول في هذه اللحظة بالذات: هل تعدّ الزمن الذي قضيته في الدنيا مقارنة بما تراه من نعيم وعوالم ساحرة سجناً؟

بل أسوأ من السجن.

هذا هو مفهوم الدنيا سجن المؤمن، وها أنت تراه وتعيشه.. الدنيا سجن المؤمن مهما كان مترفاً وسعيداً عندما يرى الجنة.

بالمناسبة لقد ذكرت النبي ﷺ، فأين منزله في الجنة؟

بل قل أين جناته في الجنة؟ إنه في جنات أعلى بكثير، إنه في الفردوس وهي أبهى وأجمل مما تشاهده بكثير، وإن كنت لا أستطيع تخيل أجمل مما

نحن فيه، وأسأل الله أن نكون في طريقنا إلى جواره.

من يرى ما نحن فيه، يعجز خياله عن تصور أن هناك أرقى وأجمل وأبهى مما نحن فيه.. أين المكذبون بالجنة مما أراه!

لقد كانوا يطمرون عقولهم بأطنان من العناد والأحكام العاطفية.

لقد أكثرت من ذكر العناد..

كان بإمكانهم استعمال عقولهم.

كان.؟

لم يكونوا يستخدمونها، وإن كانوا يستخدمونها فلِم لم يجيبوا عن هذا السؤال: أولم يكونوا معجبين بالغرب وتطورهم التقني والمادي الذي أسقطوا به ديانتهم وكشفوا زيفها؟

بلى.

لكن لِمَ لَمْ يستخدموا هم عقولهم عندما رأوا علماء الغرب التجريبيين: الأطباء وعلماء البحار والجيولوجيا يسلمون؟ لماذا انساقوا وراء رجال السياسة والفلسفة والشعر منهم فقط؟ لِمَ انساقوا خلف الإباحيين والفوضويين منهم فقط؟ مع أنهم كانوا يعرفون أن الذين أزاحوا الدين المحرف عن الغرب والشرق هم أصحاب العلوم المادية، الذين طوروا العالم باختراعاتهم وكشوفهم وحقائقهم، لا أصحاب الدراسات الأدبية والإنسانية المطاطة، والذين يطوعون تخصصاتهم لمن يدفع ويسخرونها للقوي، ويناقضون أنفسهم.. ألا تعلم أنه لولا ثقة الناس بنتائج العلم التجريبي لا الأدبي لما ركبوا الطائرات، وأجروا العمليات الجراحية.. في

الوقت الذي كان الفلاسفة يتجادلون هل الدجاجة أولاً أم البيضة ومنذ متى.. منذ آلاف السنوات.

قال لي أحدهم: أين كان أولئك العلماء الذين تقول: إنهم أسلموا بسبب كشوفهم العلمية، أنا لا أعرفهم على الرغم من كثرة قراءاتي؟

ذكرتني بأخوين سافرا من قريتهما إلى بلد واحد وافترقا هناك، ولما عادا سألهما والدهما عما رأياه؟ فقال الأول: إنها بلاد فاسدة يا أبي.. مليئة بالخمارات والساقطات والمخدرات و...

وقال الآخر: إنها بلاد مليئة بالمعارض والجامعات والمتاحف والحدائق الجميلة والسواحل النظيفة. فقال والدهما: كلٌّ منكم تحدث عن الأماكن التي قصدها.

كانوا يرددون أن هؤلاء المتدينين كانوا ضد عملية التطور والتقدم والنهضة و.... كما كان رجال الدين في أوروبا في القرون الوسطى؟

مهلاً.. مهلاً.. هل كان المتدينون ضد صناعة الطائرات والسيارات والكومبيوتر ورصف الطرقات وبناء أحدث المباني والجسور وتخطيط المدن على أحدث وأرقى الطرق، كما كان رجال الكنيسة؟

لا.

هل كانوا ضد الرقي بالشأن التعليمي والاقتصادي والزراعي والتقني والصحي، كما كان رجال الكنيسة؟

لا.

هل كانوا ضد النظافة والعفاف والنزاهة والعدالة ومحاربة الفساد والوفاء بالعقود والمواثيق، واحترام حقوق الإنسان والجار والوطن والحيوان والبيئة، كما كان رجال الكنيسة؟

لا.

ما التقدم إذا لم يكن هذا هو التقدم؟!

إنها الكراهية.. أعترف لك بذلك.. لقد كنت يوماً من الأيام أكره رؤية المتدينين، وأتمنى لو نفيتهم، وأحضرت بدلاً منهم الكثير من الحسناوات الشقراوات.. كنت أغلق عنهم أبواب الأرض كأعدائي، بينما كانوا يطرقون بابي ليكونوا أحبتي، نفيتهم من عالمي فوجدتهم في منفاهم يبحثون لي عن مفتاح من مفاتيح هذه الجنة.. كانوا يتوسلون لأصحو، وكأنهم سيكسبون من وراء هدايتي ثروة من ثروات الدنيا، بينما كنت أقسو عليهم ليمارسوا الغياب معي.. آه لو رأيتهم..

تركت صاحبي يتدفق مع كلماته ومشاعره، عندما أخذته تلك المشاعر إلى عالم من الصمت الممتن لله على ما نحن فيه.

بعدها تحولنا نحو شرفة ساحرة.. إطلالة على أفق مسرف الجمال.. في هذه الجهة جبال خضراء وصفراء وحمراء وزرقاء وبيضاء.. مرصعة بمنازل وقصور وخيام اللؤلؤ على سفوحها المتغيرة الألوان.. كانت كالجواهر الكريمة على صدر حورية فاتنة.

أما هذه الجهة فمنبسطة كالسجاد المنقوش بعناية.. تتناثر عليها الميادين والملاعب والأندية الرياضية والمسابح التي لا حصر لها، والتي يتهافت إليها المتبارون والمتفرجون من الجنسين؛ لممارسة هواياتهم.

وتمتد أمامنا وتحتنا مباشرة بحيرة فاتنة عريضة، أما ماؤها فصاف لدرجة رؤية قاعها اللؤلؤي الأبيض العميق والنظيف جداً.. كانت المراكب واليخوت الكبيرة البالغة الفخامة التي تتهادى عبرها كثيرة وملونة ومبهجة للمشاهد.. أخذنا منظر اليخوت فقررنا ركوب أحدها.

انحدرنا نحو أرصفة اليخوت.. أرصفة مرصعة بالحجارة الكريمة الملونة.. كان بين كل يخت ويخت مسافة تمنح العين مسافة من المتعة، وبين كل يخت ورصيفه جسر مصنوع من المادة التي صنع منها اليخت نفسه.

سألنا المسؤولين عن نادي اليخوت، فرحبوا بنا واستقبلونا بلطف الجنة وروعة أخلاق أهلها.. ثم خيرونا بين رؤية صور اليخوت وأفلام عنها ومواصفاتها، أو التجوال لانتقاء ما نشاء منها.

كانت نماذجها تمر أمامنا.... يمر النموذج أمامنا وسط مؤثرات صوتية تخلب الألباب والمشاعر.. يمر النموذج على بحيرة صغيرة معدة للعرض، ثم يتوقف لنرى كل تفاصيله الخارجية الساحرة، ثم يبدأ شكله الخارجي بالانفصال شيئاً فشيئاً كاشفاً عن تفاصيل الداخل المذهلة، القاعات والغرف والمسارح وصالات العرض والمسابح والملاعب والنوادي والمراقص والمكتبات والمناظير والطاولات والمقاعد والأسرة والخزائن والأثاث والشرفات والتحف والأدوات والأواني، وأشياء من مفاجآت الجنة وجديدها.

قررنا الاقتراع، فوقعت القرعة على يخت ألماسي أزرق بحجم قصر، كان فيه كل ما رأينا، لكن ما نراه واقعاً كان أكثر إدهاشاً وروعة.. كان باذخ الرفاهية، لدرجة يمكن معها برمجته آليًّا ليتخذ مساره خلال خريطة

تتيح له الإبحار في كل نهر وبحيرة ومحيط.. برمجة تتيح له الرسو بأي مرفأ أو ميناء وأمام أي قصر من قصورنا، أو أي جزيرة من جزرنا، أو أي منتجع من منتجعاتنا..

سطحه كان تحفة من الرفاهية.. مقدمته بسياجها الألماسية الزرقاء ومقاعدها الملونة التي تتحرك آليًّا، وتلتف آليًّا، بل تنزل بك إن شئت إلى أدوار اليخت التي تشبه اكتشاف الكنوز، أما المشارب فعلى الجانبين، وما حولهما من المقاعد والطاولات ذات المستويات المختلفة، وتلك الروعة التي صفت فيها المشروبات والكؤوس، وطاقم اليخت الذين تبهج النفوس أخلاقهم وابتساماتهم وإتقانهم لعملهم، وبجانب كل مشرب غرفة ألماسية فاخرة مؤثثة وشفافة، لدرجة لا تظن أن شيئاً يفصل الداخل عن الخارج..

هاتان الغرفتان تنزلان وتصعدان من الجانبين إلى أي دور من أدواره شئت، ومن خلالهما تشاهد وأنت مسترخٍ أعماق النهر أو البحر أو البحيرة الصافية. وفي وسط سطح اليخت مسبح من الألماس، وميدان لألعاب كثيرة جديدة ومثيرة للحماس، أما خلفيته فإطلالة هائلة رائعة ذات مقاعد مريحة للجلوس والمشاهدة والاستلقاء والاسترخاء وحتى التدليك، وطاولات أنيقة، وأرضية من الخشب المزخرف بإتقان بالغ.

الدور الذي يقع أسفل من السطح يحتوي على صالة جميلة وواسعة لتناول الطعام البحري الفاخر، وصالة لمشاهدة الأفلام وأخبار الجنة وآخر الأحداث فيها، أو حتى مشاهدة أفلام عن الدنيا إن أردت، وصالة للاحتفالات.. وصالات.. وصالات.

أمـا الـدور السفلـي ففيه أجنحـة كبيرة لهمـا نوافذ كبـيرة وشفافة جدًّا يشاهد من في الداخل ما في الخارج بكل نقاء، ولا يشاهد من في الخارج من في الداخـل، وفي كل جنـاح خزائن ذهبية وفضية فيها أفخر أنواع الملابس، وأدراج تحتـوي علـى أحذية أنيقة تتناسب مـع كل لباس من تلك الملابس، وطـاولات عريضـة صفـت عليهـا أفخـر العطـور وأعذبهـا لحنـاً.. وأسرة وثـيرة ومقاعد فخمة.. ومساحات فسيحـة للجلوس والقراءة والحديث، وصالة زجاجية كبيرة في المقدمة تتيح مشاهدة مدهشة لعالم المياه المليء بالجمـال والأنـوار.. كان على السطح وفي كل القاعات وفي كل جناح أجهزة للاتصـال ذات شاشـات بالغة النقاء والدقة، وما عليك سوى ذكر اسم من تريد، فيجيبك صوتاً وصورة وعنواناً.

الشـيء الممتـع في اليخـت أنـه يتحـول إلى غواصـة إن أردت تجـوب أعماق البحـيرات والأنهـار والبحـار.... وتفاصيـل أخـرى وأخـرى وأخرى.. لم نكتشفها بعد..

انطلق اليخت بنا ونحن وقوف على سطحه بفرح الأطفال..

كنـا لا نريـد أن يفوتنـا مشهد أو لحظـة من المتعة، نلـوح لبعضهم ونشير إلى تلـك الفتنـة أو تلـك الروعـة، واليخـت ينسـاب بنـا كالحلـم، ويأخذنا حيث نهوى.

قلـت لصاحبـي: كانت يخـوت الدنيا الجميلـة والغالية مليئـة بالمحركات والزيوت، ومعرضة للخراب والغرق والعطل والاحتراق في أي وقت.. ومع ذلك كانت حلماً لأمثالنا.. وغالباً ما يموت المرء دون ركوبها.. كانت حكراً على نخبة يعدون على أصابع اليد.

فـرد قائـلاً: كان استئجـار أرخصهـا ساعات قليلة يكلف المـرء مرتب شهر كامـل، آه لـو رأى مبدعوهـا يختنـا هذا.. هـا نحن لا نخشـى الأمواج ولا العواصـف والريـاح، ولا الغرق والحريق ولا نفاد المـال أو نفاد الوقود، ولا طول المسافة أو دوار البحر أو حتى الملل.

توجـه صاحبـي نحو المشـرب يتـراقص طربـاً وغنـاء، كان كل شيء حولنا مشرقـاً يتـلألأ بالحياة والفـرح، أما أنا فسافـرت بي السعـادة وأنا أمسك بالمقود في مقدمة السطح.. أخذتني تلك السعادة إلى ذكريات وحنين ملك علـي شغاف قلبـي فجأة.. أمي التي أنستي مرارة اليتم، وأبي الذي غادرنا وأنا أغفو قربه في مهدي، وإخوتي وأخواتي.. وأولادي وأولادهم..

كان جهـاز الاتصال بقربي.. فأردت أن تحمل المفاجأة أقصى ما لديها وأنا أراهم جميعاً، طلبت والدتي فأجابتني، وهي تبكي فرحاً وشكراً لله.

بادلتهـا البـكاء.. والفرح، وبعد حديث طويل وجميـل تضمن اللهج بشكر الرحمـن علـى هذا السخاء والرخاء والنعيم، رجوتها أن تجمعهم جميعاً؛ كي أحتفل بهم.

لبـت طلبـي وقالت: إنهـا ستتصل بـي، وستجمعهـم في أحـد قصورها، ثم ودعتها بالدعاء والدموع.

شاهـد صاحبي دموعي فأقبل مستغرباً، وهو يحمل كأسين من الشراب.. وضعهمـا علـى الطاولة ثـم توجه نحوي ومد يده علـى كتفي وطلب مني والاستغـراب يلـون وجهـه أن أجلـس، وأستمتـع بهـذه الرحلـة، فمثل هذا اليخـت وهـذه المناظر التي تمر بنا والأجواء التـي نبحر بها لا مكان فيها

ولا زمان للبكاء. فقلت له: إنها أمي... هي التي كنت أحدثها الآن. لمعت عيناه وقال وهو يغالب دمعه: حقًّا.. يا له من أمر مبهج وأين هي الآن؟

في مكان ساحر ولله الحمد.

ابتسم وأخذه ما أخذني. ثم ذهب إلى أحد الأجنحة وكلم والديه.

أخذتني الإثارة إلى أصدقائي وأحبابي وجيراني وتلك الليالي العامرة بالأنس والحب في الله.. كانت أجواء الرحلة ترغمني على تذكرهم... كانت أكبر من أن يتسع لها فرحي وحدي، وأعظم من أن أصفها.. إنها من الثراء والجمال، بحيث تتمنى أن يشاركك أهل الجنة كلهم لحظاتها وسعادتها..

واصلنا إبحارنا، فانسبنا عبر أحد الأنهر العريضة، كان نقيًّا كالزجاج، تتردد عليه المراكب واليخوت والمراكب الفردية السريعة، كنا نمر تحت جسور مختلفة التصاميم، مبنية من المرمر والعاج واليواقيت والزمرد والألماس وأخشاب الجنة، ومواد أخرى لا نعرف ما هي.. كانت تلك الجسور تحتوي على إطلالات ذات مقاعد حالمة يجلس أو يقف عليها الأصدقاء والأحباب والعشاق المنحدرون من فنادق وقصور، وأكواخ حالمة على حافتي النهر.. يأتون للفرجة ولتبادل الأحاديث وأحياناً للتعارف، أو يجلسون على مقاعدها المصنوعة مما بنيت تلك الجسور.. كنا نسلم على من نراهم، فيبادلوننا بالسلام والابتسام، كان سلامهم يشعرنا بمزيد من البهجة وكأننا نريد احتضانهم جميعاً.. يا لها من أخلاق! أخلاق أهل الجنة.

تجاوزنا ذلك النهر الطويل، فإذا نحن في مكان فسيح جدًّا.. بحيرة مربعة تماماً ومساحتها بحجم مدن، كانت أكثر عمقاً من السابقة، وعلى الرغم من عمقها إلا أن نوراً مريحاً للعين ينبعث من أعماقها فيزيدها سحراً، ومما زاد هذا السحر شلال ينهمر من مكان مرتفع جدًّا فوق إحدى زواياها، وكأنه يصب من السماء، أما ما يزيد المشهد ابتهاجاً وصخباً فشلال بشري يتقاطر قفزاً وصراخاً مع مصب الشلال نحو أعماق البحيرة، وكأن القافزين قطرات شاردة من ذلك النهر المنحدر.

هناك من يقفز وحده، وهناك من يقفز وصاحبه أو صاحبته، وهناك مجموعة تقفز مشكلة دوائر ومثلثات جميلة.. فالارتفاع شاهق، والصخب شاهق أيضاً.. أوقفنا يختنا طويلًا للفرجة والاستمتاع بما يحدث، نسترخي على تلك المقاعد المريحة باتجاه هذا الجنون اللذيذ.. جلبنا شرابنا وجلسنا، لكن ما يحدث أمامنا أنسانا الجلوس والشراب.. وأبقانا وقوفاً وكأننا بينهم.. كان المشهد احتفالاً مثيراً ورائعاً.. الآلاف ودون تزاحم أو تدافع كانوا يحتشدون.. والآلاف كانوا يتطايرون في الهواء كقطرات الشلال.. كان قاع البحيرة يشبه كأساً صافية مملوءة بماء غازي، تتصاعد منه البلورات الهوائية..

بقينا وقوفاً كالتماثيل من الدهشة..

اقترب أحد الشباب منا وهو يمتطي مركباً بحريًّا صغيراً وسريعاً، وبرفقة صاحبته الفاتنة وهما يستعدان للجنون، فأوقفناه وسألناه وهو يبتسم: كيف السبيل إلى قمة الشلال؟ فأشار إلى ممر زجاجي لولبي يتدفق خلاله الماء إلى أعلى، وما عليك سوى الاستمتاع بالصعود، ثم اختيار

طريقة القفز عندما تصل للقمة. وهناك مصعد بجانب الشلال يمكنك من مشاهدة القافزين ومسايرتهم، وهناك عربات ومركبات ومصاعد وطائرات وإن شئت حبالاً.. وغيرها وغيرها من الوسائل المريحة والممتعة التي تقود إلى قمة الشلال.

شكرناه فانطلق وصاحبته كالسهم..

أما نحن ففضلنا تجربة كل وسائل الصعود اختصاراً للوقت..

ارتدينا ملابس السباحة، وصعدنا لتجربة كل الطرق، كان الصعود متعة ومشاهد لا توصف روعتها، أما القفز فكان أجواءً أخرى ونعيماً آخر..

تبدأ باختيار قوة وارتفاع الموجة القادمة من بعيد، التي تصعد بك إلى ارتفاع تحلق معه، فترى ما تحتك من جمال وقصور وأنهار ومساحات ملونة بديعة، وتبلغ الإثارة أوجها وأنت متجه بين تلك الأجساد والصراخ نحو أعماق البحيرة، حيث تشق الماء بين تلك الأجساد التي تسابقك، وتنافسك على المتعة والمرح، وملامسة تلك الأعماق المضيئة، وكأنك لا تريد الصعود من تحت الماء.

كان الشلال أرفع مما كنا نراه، وكان الماء ينحدر بصورة بالغة الروعة والجمال، فقال صاحبي: ما رأيك في القفز من المصب؟

كانت الإجابة بنعم.

في الجنة لا نعرف كلمة: لا... إلا في لا إله إلا الله.

ولما وصلنا للمصب وجدنا جنة أخرى، وأنهاراً أخرى وشلالات أخرى، وعوالم أخرى..

قررنـا الذهاب إلى مسافة بعيدة حتى يكون للقفز والطيران إثارة أكثر.. ذهبنا حيث أردنا، وقررنا التسابق.

بدأنـا السبـاق مـن مصب آخر أعلى، ولما وصلناه.. طرنـا في الهواء الذي امتـلأ بصيحاتنـا، فنسينـا سباقنـا واستسلمنـا لمتعـة الإبحـار الطويل في الهواء، ثم الغوص في الأعماق الصافية...

أعدنـا الكـرة مـرة ومرة ومـرات دون ملـل، وقضينا ساعـات طويلة وربما أياماً دون أن نشعر.. كانت تجارب مثيرة يكاد ينسي ما بعدها ما قبلها..

خلالها، وبعدها، ترددت وصاحبي إلى إحدى الشرفات العريضة التي تزين الجداريـن الأبيضـين اللذيـن يحفـان منحـدر الشـلال، كانـت شرفـات لها أشـكال أخـاذة، وهي عبـارة عن مقاه ومطاعـم ومشـارب، استلقينا على تلك المقاعـد.. وسافرنـا في استرخاء ممتـعٍ وطويل.. فقال لي: يـا ألله، كل مكان نمر به أظنه نهاية النعيم وغايته، فإذا بالذي بعده أكثر إشراقاً.

رمقتـه بنظـرة مبتسمـاً وأنـا أعجز عن الالتفـات نحوه، فالألـوان والمناطيد والإبحار في السماء والماء من فوقنا وتحتنا لا يسمح لك بالانشغال عنها، ثم قلت له: ألم تقرأ يوماً ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾.(ق: آية ٣٥).

نحن الآن في بوابات ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾... لم نتوغل بعد، فكيف إذا حلقنا في المزيد.. فاترك لمخيلتك متعة الإبحار فيما تريد وتتمنى الآن، ودع المزيد لمبدعه الذي لا حدود لإبداعه...

في أثنـاء ذلـك تهادى نادل لطيـف ووسيم، وبيده قوائـم الطعام والشراب المميـز والخاص بهـذه البحـيرة، قـدم لنـا أطباقـاً لهـا شـكل البحـيرة،

وزجاجـات يصـب منها المشروب كذلك الشـلال، وتفاصيل صغيرة، تجعل النظر إلى الأطباق والكؤوس متعة بحد ذاتها، أما منظر الطعام والشراب فمتعـة أعظـم، وقمة ذلـك كله لـذة الأكل والشراب، أضـف إلى ذلك متعة النظر إلى تلك المياه والخضرة والألوان، وتلك الوجوه السعيدة والجميلة والبشوشة، وتلك الأجساد الفاتنة التي تتحلى، ويتحلى بها غيرك.. كانت أياماً تُدفع ثروات الدنيا وأعمارها ثمناً للظفر بها أياماً.

نعمنـا بساعـات في تنـاول وجباتنـا، ثـم استرخينـا أمـام تلـك المشاهد، ثم انحدرنـا وتمشينـا طويـلاً وتعرفنا على أنـاس غاية في اللطـف والذوق.. استضفناهـم واستضافونا واستمعنا لحكاياتهم، والطرق التي سلكت بهم رحمة الله إلى ضفاف هذه البحيرة..

التقى صاحبي صديقاً قديماً، فتعانقا وهما يصرخان، ولم يكفا عن العناق حتى فرقتهما، كي أسلم على ضيفنا، ثم استأذنا بعض الوقت وانصرفا..

أمـا أنا فقابلت شخصاً بالغ السماحة والدماثة والكرم، تعرفت عليه، فإذا هـو شخـص لا يكـف عن شكـر الله كلمـا سكتنا عـن الحديـث.. سألته عن رحمـة الله وكرمـه معه؟ فزاد من شكره وقال لي: كنت رجلاً مسرفاً على نفسـي، لكننـي كنـت رحوماً عطوفاً بوالـدي، وكثير الصدقـة على أقاربي وغيرهـم، وكنـت رجل أعمـال تربطني مـع التجار صفقـات وعقود دقيقة ونظيفـة، كنـت أتجنـب الربـا واستغلال الفقـراء، لدرجة أننـي كلما رأيت رجلاً معسراً قد انكسرت به مراكبه وعثر به زمانه، وأثقلته ديوني عليه، قلـت لمحاسبـي: تجاوزوا عنه؛ لعـل الله يتجاوز عنا يـوم القيامة، ارحموه

لعل الله يرحمنا، سامحوه؛ لعل الله يسامحنا.... و.. وسائر الكلمات التي أستمطر بها عفو ربي.

أنت هو؟

لا.. ربما.. لا أدري.. لكنني لا أستحق هذا النعيم لولا رحمة ربي. انظر إلى يختي هناك..

التفت، فرأيت ياقوتة عملاقة على شكل يخت، ورأيت فاتنة تلوح لنا من بعيد.

انظر إلى هذا اليخت.. ركبت في الدنيا أرقى اليخوت.. ملكت بعضاً منها واستأجرت بعضاً.. كلها كانت على الرغم من البذخ والرفاهية أضحوكة أمام ياقوتتي الحمراء. عرفت نساء كثيرات، كلهن لا يدانين زهرتي على تلك الياقوتة.. عطورهن الغالية والشهيرة لا تداني عشر عطر نفس من أنفاسها القاتلة.. أي دنيا كنا نتباغض ونتقاتل من أجلها! ما أكرم ربي وأرحمه بي!

لكن ما فعلته كان شيئاً سامياً.. لم يفعله الكثير من الملتزمين.. من منا يتنازل عن ديونه للناس، من منا يتخلى عن كده وعرقه للآخرين؟ من منا يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة؟ أيها الرجل، هناك من سرق والده، وهناك من سرق أخاه، وهناك من سرق مواطنيه ومشروعات وطنه، وهناك من سرق جاره، وهناك أثرياء يسهرون الليالي والأيام يفتلون حبال الحيل والخبث، لقنص أموال الأرامل والأيتام والمساكين، وكأنهم سيموتون من الجوع إن لم يفعلوا ذلك.. أيها الرجل الجميل الكريم، ذكرتني بالأنصار..

ذكرتني بالمدينة

ذكرتني بسحابة

بطيبة حين جاء الصحابة

بالأوس وابن معاذ

بخزرج وابن عبادة

وابن الربيع بين النخيل

بالحب حين جاء الصحابة

ذكرتني أم سليم

وابنها والهدايا

تحف فاطمة ومحمد

ذكرتني بالطفولة

والدف عبر دروب

دروب عمرو بن عوف:

يا حبذا من محمد

وصاحب لمحمد

وجيرة لمحمد

البدر سال إلينا

من غار نور

من مكة جاء أحمد

البدر صار المدينة

وطيبة في السماء.

ما فعلته يا أخي، عجز عنه الملايين، إن الأبواب نحو الله ليست محصورة في قيام الليل وصوم النهار، ألا تعلم أن هناك سلوكاً قاسياً يوصد تلك الأبواب، ذات يوم سئل نبينا عليه السلام فقيل له: (يا رسول الله، إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل وتصدق وتؤذي جيرانها بلسانها؟

فقال ﷺ: لا خير فيها، هي من أهل النار. قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة وتصدق بأثوار من أقط، ولا تؤذي أحداً. فقال رسول الله ﷺ: (هي من أهل الجنة).

لكن لا تنسَ رحمة الله.

أجل، فلن يدخلها أحد إلا برحمة الله.

حتى الأنبياء؟

لقد كان نبينا ﷺ محاطاً ذات يوم بأصحابه، فقال لهم: (لن يدخل أحداً عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا.. ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب).

أي يتوب ويرد المظالم. وما فعلته أيها الجميل، كان رحمة.. كان دروباً جميلة إلى رحمة الله.. ألم تطرق أذنيك كلمات الحبيب ﷺ وهو يقول: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).(لا يرحم الله من لا يرحم الناس).(من لا يرحم لا يرحم).

حقًّا إن للقلب مساحات شاسعة تضيع فيها مساحات الجسد، وأرصدة المال، وسلاسل الأنساب والأحساب، وأطياف الألوان والأعراق.

(إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

امتد بنا الحديث عن الرحمة، فلم نفق إلا على صوت صاحبي وهو يتهادى وسط يخته كملك، توقف على مرفأ مصنوع من الماء، وكأنه قطعة متجمدة منه، لكنه يتموج، فإذا داست عليه الأقدام تحول إلى جسر بحجم القدم التي تطؤه، كان السير عليه متعة ورياضة ودهشة تملؤك بالتسبيح.. اجتزنا جسر الماء، وسلم صاحبي على صاحبي، وأخذناه إلى ياقوتته وزهرته، انسبت أنا وصاحبي على يختنا وانساب بيننا صمت حالم وطويل.. رفرفت فيه أرواحنا.. رفرفت كالتسبيح في هذه الروعة التي أذهلتنا، حتى أفقنا على مشهد أشبه بتناثر الجواهر، فقلت لصاحبي: هل تريد أن نكتشف هذه التحف المتناثرة على سفح هذا المرتفع؟

بكل سرور مع أنني لا أريد أن أتوقف عن الإبحار.

أوقفنا مركبنا الفاره، وغيرنا ملابسنا الرياضية، وانتقينا من علب الحلي الأنيقة ما شئنا من حلي تتناسب والملابس الأنيقة التي نرتديها.. صعدنا خلال درج منحوت من جبل من الرخام الأرجواني المتموج، حتى

أوعيـة الزهـور والورد التـي على جانبيه، كانت منحوتـة من هذا الجبل.. صعدنـا مشيـاً لا يعرف التعـب، لكنه يعرف التوقف كثـيراً والتأمل أكثر، فكل ما نراه آسر.

تأسرنـا تلـك البيـوت وروعـة تصاميمهـا وألوانهـا، وموادهـا ونوافذهـا وأبوابهـا وحدائقها.. تأسرنا تلك الـدروب التي تتعرج بينها، وتغنينا تلك الجبـال التي تحتضنها.. تلك الجبال الخلابة والشاعرية، فبين كل جبل وجبل شلال عريض ينحدر، ثم ينساب نحو نهرنا.. كانت جبالاً على غير مـا عهدنـا في الدنيـا.. كانت أبهـى مما نأمـل.. كانت الدهشـة تأخذنا من جبـال الفـيروز إلى مرتفعـات الألماس، إلى تلال من العقيـق، إلى هضاب مـن الزمرد، إلى شواهق مـن اللؤلؤ، إلى جبال من الذهب، إلى جبال من الفضـة، إلى هضـاب تتمازج فيهـا الألوان والجواهر والمعـادن، في لوحة لا تملك سوى التسبيح لمن أبدعها..

لـك مـكان في كل جبـل وهضبـة وتلـة ومرتفـع، ويرحـب بـك في كل ممـر وطريـق، فليس حولـك سـوى أحبابـك وإخوتك الذيـن ينافسونـك حبًّا وجمـالاً وإيثـاراً. فأنت في عالم من الأنس والصخب والاحتفال، وإن شئت التأمل والانفراد بمن تهوى وتشاء.

أقمنا في بيوت فارهة عدة من تلك البيوت المخلوقة من تلك الجبال.. كان لكل بيت أسلوب مميز، وأثاث مميز، وإطلالات مميزة وطرقات مميزة..

كانـت جنـات مختلفة وجديـدة، وما بينها مـن شلالات ومصبـات ومنابع وبحيرات تكاد تنسيك ما قبلها، وتحرضك على ما بعدها..

شاهدنا كوخاً شاعريًّا صغيراً ومنعزلاً على سفح جبل.. كان منحوتاً من جوهرة ذات لون عودي معتم، وتنحدر على سقفه خيوط الأشجار المتدلية الملونة، وتعانقها الأشجار المتسلقة، وتزين نوافذه المزخرفة الزهور والورود والشجيرات الملونة، الكوخ أو المطعم بكامله يستحم تحت مصب مائي هادئ، وبالكاد نسمع خرير الماء العذب الذي يعزف حوله، حيث تتجمع تلك المياه في بركة عذبة وكبيرة، يستلقي عليها المطعم قبل أن يكمل الماء انحداره، ومن الجبل نفسه نُحت جسرٌ نحو بابه فوق تلك البركة المحيطة به..

لما وصلنا رحب بنا القائم عليه بذوق أهل الجنة ورحابة صدورهم، وإذ به مشرب ومطعم حميمي وآسر، أخذنا بأسلوب رفيع نحو إحدى الطاولات القليلة، التي تطل كلها على النهر، وعلى البحيرة التي أصبحت بعيدة عنا، لكن بإمكاننا رؤيتها، والاستمتاع بمنظرها ومناظر المرتفعات والمصبات والبحيرات الأخرى الخلابة..

جلسنا، فقدم لنا الساقي قائمة لا تستطيع سوى انتقائها كلها.

طلبنا مشورته، فأشار بالقائمة كلها وهو يهزها بيده اليمنى. فطلبنا أن ينتقي ما يشاء. فقال: على الرحب والسعة.

ولما همَّ بالانصراف استوقفته، وقلت له: أخي الكريم.. لدي سؤال غريب بعض الشيء.

فقال: سل ما بدا لك.

هل بالإمكان إيجاد مكان ليلي..؟

فقال: الأماكن الليلية كثيرة جدًّا وحسب طلبك، هناك المضاء بالأنوار، والمضاء بالشموع، والمضاء بالأقمار والنجوم، والمضاء بأشياء أخرى كثيرة جدًّا.

وهل تعرف أين هي؟

سأزودك بعنوانين أكثر من شعر رأسك.

ولِمَ تريد الأجواء الليلية؟

ذكرتني عتمة هذا المكان بالليل.. أتذكر أنه كان في دنيانا ليل ينافس النهار أحياناً.

أجل، ولكن عندما يكون هنا أضواء أو شموع.

أتمنى لكم المزيد من المتعة في هذا النعيم المقيم. هل من خدمة أخرى..؟

أجل، سؤال فيه الكثير من الفضول: لِمَ هذا العدد القليل من المقاعد؟

مطعمي هذا كملايين مثله، مطعم لمن يريد حميمية وخصوصية أكثر خارج قصوره.

ولِمَ فالبهجة تملأ الجميع، والصدور أفسح من الأمكنة والابتسامة تحتضنك أينما اتجهت.

إنها أجواء الجنة، ليس هناك ملل ولا هروب، لكنه البحث عن المزيد والمثير، إنها أجواء ملايينية تريدك أن تكون ضمن كواكبها وأقمارها وعبيرها.

شكراً.. ما ألطفك وأعذب أخلاقك.

الشكر لله وحده الذي أشرعها لنا جميعاً.

أجل، الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكرمه.

انصرف النادل اللطيف، فالتفت صاحبي، وقال: كم من الشاعرية يكتنز بها هدوء هذا المكان وعزلته.. هل ذكرك بليالي الدنيا؟

كانت المشاعر في مساءات الدنيا أكثر صفاءً، فقلت في نفسي: إن كان ليل الدنيا شاعريًّا، فإن شاعرية ليالي الجنة لا يمكن وصفها.

كان الليل يجيد إغراء مشاعري.. كنت أحب ليالي الصحاري تحت ضوء القمر.. كنت أعشق وميض الشعر، ولهب الحطب خارج خيمة مشرعة الرواق.. حيث يحلو الشعر والسمر؟

الشعر.... إنه أجمل من يطرق أبواب الليل.. ماذا كان يقول الليل لك يا صاحبي:

عندما يشرق طيف الليل مع طيفك نحوي
لست أدري أي يأس ينشر الليل وأطوي

توارت نجمة عني كحلم تجر ثيابها فيتيه عقلي
أتعلم نجمتي أني وحيد يجوب الحزن أشعاري وليلي

أيحمل كفها بالليل شعري	وتقرأ بعضه فتئن مثلي
محال فالنجوم بلا قلوب	أحب بريقها وتحب قتلي

أحقًا غاب ذاك البدر عنا	ليتركنا مع الليل الكئيب
فوا أسفاً أردد حين أقفى	وأردف خلفه كل القلوب

إذا جن المساء تركت قلبي	يناجي خالقي أن تصحبيني
أرى في جنة الخلد احتفال	تذاكره على درب الأمين

ما رأيك بمساجلة شعرية عن الليل؟

ما رأيك بهذا الطعام؟ إنه قصيدة شعر.

ازدانت الطاولة بأصناف المأكولات، حساء يلتف بخاره بمذاقه، وخيوط السلطات الملونة كلوحة رسام بارع، ولحوم طيور وأسماك مشوية ومطبوخة ومقلية، ومشروب يصيبك بالغياب الجميل ساعات، بدأنا نشرب الحساء والهمهمات تنطلق بعد كل رشفة، وكلما غيرنا الأطباق زادت الهمهمات والمتعة.

لم نبقِ على الأطباق شيئاً، فلا عظام ولا أشواك ولا حبوب ولا جلود ولا تخمة.. كل شيء هضيم.. كل شيء نعيم.. كل شيء ممتع ولذيذ.. شكرنا الله، ثم شكرنا صاحبنا، ومكثنا طويلاً نتحدث ونتأمل ما حولنا، فقد كانت تلك الجبال غراماً يردي القلوب..

بقينا وقتاً طويلاً تعرفنا فيه على رواد المطعم القليلين، وسمعنا حكاياتهم وقصصهم ومعاناتهم في دنياهم.. كان المكان لا يمل، والحديث لا يمل، والرفقة لا تمل..

مرت الساعات تلو الساعات، ثم غادرنا مطعمنا الحميمي، وودعنا الساقي بعد أن أصر أن يقدم لنا علباً لها شكل المطعم.. تحتوي إحداها على عطور، وثانية على شراب ساخن، وثالثة على بعض الحلوى الشهية التي يتميز بها هذا المطعم..

أصر أن نأخذها معنا، وأصر على إيصالها للمركب بنفسه، على الرغم من أن في المركب أفخر الطعام والشراب.

ودعناه بالعناق ووعدناه بالعودة. أريناه مركبنا، فسبقنا إليه.. ثم رحنا في نزهة نهرية طويلة حول هذا المكان الثري.. وبعد مدة توجه صديقي إلى مقدمة اليخت.. وأحضر معه علبتين كبيرتين، ثم أحضر كوبين من الشراب الساخن الذي أعد في ذلك المطعم الجبلي الحالم.. فتحنا العلبة الأولى، ففاحت رائحة الحلوى الشهية التي لا تقاوم، وإذا فيها أصناف تتنافس في الرائحة واللذة ويصعب وصفها.. كانت فواحة وكأنها خرجت من أفرانها ومخابزها الجبلية تواًّ، أما أكواب الشراب الساخن، فمذاقها لا يضاهى ولا نعرف مكوناته ولا اسم أعشاب الجنة التي صنع منها،

بدأنا بارتشافها، فأسكرتنا لذته لدقائق مع أول قطرات تبلل شفاهنا..

كان صاحبي يمسك بكوبه بكلتا يديه ويتأوه وهو مغمض العينين، وكأنه يشعر بلذته تتجول خلف عينيه، كأن بخاره يتجول في رأسه، ويستمتع بمطاردته هناك، ثم قال بعدها: هات ما عندك..

ما رأيك في الصعود إلى قمة ذلك الجبل الفيروزي؟

صعدنا حتى تجلى لنا ما حولنا، فقال صاحبي: لو كان هذا المكان في الدنيا لأفنى أهل الأرض بعضهم بعضاً في القتال عليه..

إنهم يقتتلون على مضيق وجزيرة شاحبة فارغة، وجبل وواد ومرتفع هي في قمة القبح مقارنة بما أرى.. الإنسان في الدنيا كان في امتحان بين السطو والإنجاز.. هناك بشر كرسوا حياتهم لصنع الحياة والحب والرخاء والإيثار، وهناك آخرون لا يرون في الدنيا إلا أنفسهم، هم ثم الطوفان؛ لذا فهم يسطون ويسلبون وينهبون ويدمرون؛ خشية أن يقل مستوى معيشتهم.

ولكنك تتذكر وأنا أتذكر أن الغرب كانوا كفاراً في معظمهم، وهم الذين تسلموا راية التحضر بعد سقوط المسلمين، وهم الذين كانوا في الزمان الذي عشت وإياك فيه.. كانوا يصنعون الحياة وينجزون ويبدعون، بينما كان المسلمون والعرب بالخصوص في ذيل القائمة.

أتذكر ذلك وكان يؤلمني، وهو أمر يحسب لهم، لكنهم غير مؤهلين لقيادة البشر، فهم أنانيون يريدون كل شيء لهم فقط، فبعد أن أصبحوا على قمة العالم انحدروا ليدمروا غيرهم، لقد كانت إحدى بلادهم

الاستعمارية تستعمر نصف الأرض ومساحتها لا تتجاوز مساحة بلاد من أصغر البلاد العربية....

بمعنى؟

بمعنى أن تلك البلاد لم تستعمر تلك البلدان لتثقف أهلها، وتغدق عليهم من حضارتها وسر قوتها، كانت عبارة عن أنبوب شفط مروعة لخيرات تلك البلدان، حتى تصب في بلادها، وبالذات في جيوب رجال الأعمال فيها.. كانت ترى عرقها هو النقاء والمحور الذي يفترض أن يطوف العالم كله حوله.

لكنها بنت المدارس والمصانع؟

بنت البعض، لكنها أقامت الكثير من المجازر، بل رحلت عن بعض تلك البلاد وهي في حالة مزرية.

ربما كانت تذبح من يقاوم مشروعها الحضاري؟

لم يكن لديها مشروع حضاري لغيرها.

وتلك المدارس والمصانع؟

وكيف تقنع المغفلين بضرورة استعمارها إن لم تقم ببعض الزينة والتبرج الذي تخفي به وجهها القبيح.. كانت تلك المصانع والمدارس طلاء لا أكثر.

وكيف بربك تثبت للعالم أن مشروعها ثقافي؟

أن تحمل روح الحضارة لا قشورها، أن تبشر الناس بالحب لا بالقوة، وبالعدل لا بالبطش.

كانت تفعل ذلك.. تقيم برلمانات، وتعلم تلك الشعوب الديموقراطية.

إنها أشياء جميلة لو تركت تلك الدمى تتحرك وحدها، ولو تخلت عن تلك الخيوط التي تدير بها تلك العمليات.

كنت تحكم عليهم بأحكام مسبقة.

إطلاقاً، كنت أعشق إنجازاتهم، لكنهم كانوا ينعمون بمشروعهم الحضاري وحدهم، دعني أضرب لك أمثلة.. هم ثرثروا عن العدالة والمساواة واحترام الآخر، لكن دعني أخبرك عما يفعلونه بعد أن استعمروا بلاد الصين والهند وحتى العرب.. كانت لهم أندية لا يدخلها غيرهم.. كانوا يتعاملون مع أصدقائهم من تلك البلاد كخدم، ومع بقية الشعوب كأعداء.. كانوا ينظرون لأنفسهم على أنهم سادة، والبقية عبيد.. كانت الثروات لهم والموارد لهم، والأماكن الراقية لهم، وللشعوب الوعود والهراء.. كانوا يأخذون أبناء تلك الشعوب ليحاربوا بهم أبناء بلاد أخرى.. هل تتصور أن أشهر تلك البلاد الاستعمارية فقدت في معركة واحدة عشرين ألف جندي هندي، وعندما أرسل القائد لملكه رسالة يبشره بالنصر قال له: انتصرنا والخسائر لا تذكر.. عشرون ألف إنسان فقدوا أرواحهم من أجل تلك الدولة الغربية خسائر لا تذكر.. عشرون ألف إنسان لأنهم لا يتمتعون بلون بشرتهم، وليسوا من بلادهم خسائر لا تذكر.

لكنهم صنعوا ما جعل حياتنا مريحة كالسيارات والطائرات والمكيفات، وأجهزة الاتصال، وما لا يحصى من الإنجازات.

هذه الإنجازات البيضاء المشرقة هي ما زاد في سعارهم وتوحشهم.

كيف وشعوب الأرض تستمتع بها جميعاً؟

هناك رجال ونساء جعلوا قبلتهم هي هذه المنجزات الرائعة، حتى أصيبوا بالعته، فصاروا يرون أن كل ما يفعله أهلها خير محض، حتى لو قتلوا وسفكوا الدماء وعاثوا في الأرض فساداً... هذه يا صاحبي منجزات مادية تتوافر للإنسان متى ما توافرت لديه الإرادة في إنجازها، إنها تراكمات خبرة بشرية لم تنشأ بين عشية وضحاها لذا ترى أن هناك دولاً إسلامية خطت في عقد من الزمان خطوات عملاقة في هذا المجال.

إذاً عن أي شيء تتحدث، أو ليس هذا مشروعاً حضاريًّا؟

بلى، لكنه في الجانب المحايد منه، فالسيارة والطائرة وأجهزة الاتصالات محايدة.. أنا أتحدث عن الجانب الأهم.. عن أن الإنسان الذي اخترعها وأبدعها ارتكب أفظع الجرائم، لا لينشرها بين البشر، ولا ليجعلها متوافرة للجميع، بل ليحقق طبقيته وأرباحه وغروره من خلالها.

وما الضير في أن يشتريها البشر ويستمتعوا بها؟

لا ضير في ذلك، لكن أن يقتل ويستعمر ويسلب وينهب الآخرين كي يحول العالم إلى سوق لتلك المخترعات، أو مواد خام لها، أو مستودعات لبضائعهم...

وهل تريد منهم أن يوزعوها بالمجان؟

كنت أريدهم أن يقدموها بإنسانية وإخاء وبالثمن الذي يريدون.

وهذا ما فعلوه.

وهل تسمي الاستعمار والاحتلال، وتخريب الديار الآمنة وقتل الملايين من بلاد العالم الذي يسمونه الثالث.. هل تسمي ذلك إنسانية وإخاء وودًّا؟ قل لي بربك ما فائدة الآلة إذا كان الثمن هو حياتك؟

لكنهم هم من وضع ميثاقاً لأمم العالم، ومجلساً للأمن، وهيئة للأمم المتحدة، وهم من وضعوا ميثاقاً لحقوق الإنسان.

هذا هو لب المسألة.. هيئة للأمم المتحدة لا سلطة لها إلا على الضعيف.. صنعوا مجلساً للأمن يخيفون به الضعفاء، وميثاقاً لحقوق الإنسان الخاسر الوحيد فيه هو الإنسان... أتذكر تلك الدولة التي كانت تحمل اسم نبي الله عليه السلام؟

(إسرائيل)، أجل، تلك الدولة التي عاثت في أرض الأنبياء قتلاً وتهجيراً وفساداً.

إنها من صناعة وتصميم الديموقراطية العالمية.. هم الذين وعدوا بإيجادها، وهم الذين أمدوها بالمهاجرين، وهم الذين دربوا وسلحوا أولئك المهاجرين، وبعد أن وقفت على قدميها اعترفوا بها مباشرة، بل قامت الديموقراطية العالمية بحمايتها والتستر على جرائمها، وكلما أجرمت وارتكبت مجازر، وأجمع العالم على إدانتها وقف صوت أو صوتان من كبار الديموقراطيين بمنع تلك الإدانة بحق (الفيتو) الذي يمثل قمة العنصرية والاستخفاف بالآدمية، وبعد أن أحبت إسرائيل امتلاك سلاح نووي هبت فرنسا أم الديموقراطية والحرية لبناء مفاعلها، حتى

امتلكت مئات القنابل النووية، وغضت ومعها هيئة الأمم ومجلس الأمن الطرف عنها، لقد قامت الديموقراطية بتفتيش الملابس الداخلية لزعيم عربي؛ بحثاً عن سلاح نووي، بينما ترفض هذه الديموقراطية اعترافات الإسرائيليين أنفسهم بامتلاكهم لتلك الأسلحة، وعندما تخوض إسرائيل حرباً ضد العرب تجد تلك الدول الديموقراطية تتحول إلى جسر جوي من الأسلحة لإمداد إسرائيل!

يبدو أنك لم تكن تتابع ما يحدث في داخل تلك الدول الديموقراطية من نشاط حول حقوق الإنسان في الحياة والعلم والحرية، بل حتى حقوق الحيوان؟

أنت قلتها.. داخل تلك الدول.. داخلها فقط.

ماذا تقصد؟

أقصد أن تلك الدول الديموقراطية ليست مؤهلة لقيادة العالم بشكل متحضر، لكنها متحضرة داخل أسوارها فقط.

يعني؟

يعني أن تلك الدول المتحضرة أشبه بعصابة ملتزمة بنظام صارم وحديدي.. يعرف كل فرد فيه مهمته ودوره، وهناك جهاز منفصل يحاكم فيه المخطئ، وجهاز للإدارة، وجهاز لمناقشة ونقد سير أعمال العصابة.

أنت حقًّا تحمل أحكاماً مسبقة على تلك الدول.

فسر لي كيف تتحدث تلك الدول الديموقراطية الغربية عن حقوق الإنسان والمجاعات في دول العالم، وتخزين اللحوم داخل مستودعاتها تبلغ

تكلفته عشرة أضعاف تكلفة إيصاله إلى الجائعين والمشردين، كيف تفسر هـذا السعـار في التسابـق علـى التسلح بالأسلحـة الفتاكة وإنفـاق المليارات عليهـا بـدلاً من مساعدة الـدول الفقير؟ فسر لي كيـف يمدون الطوائف والعرقيـات في تلـك الـدول الفقـيرة بالسـلاح والمرتزقة بدلاً مـن الطعام والدواء؟ فسر لي كيف تتحول تلك الدولة الديموقراطية المتحضرة إلى وحش كاسـر إذا حاربت دولة أخرى، تبيد وتعيث وتهلك، وجيوشها تعذب وتسلب وتنهب وتغتصب دون حسيب أو رقيب؟

وهل تريدها أن تحارب بمسدسات مائية مليئة بالعطور حتى ترضى عنها؟

لـو كانـت متحضـرة لالتزمـت بتحضرهـا خـارج ديارهـا كما تلتـزم به في الداخـل.. لـو كانت متحضـرة حقًّا لما قاومتها الشعـوب حتى تطردها من ديارها شر طردة.

ومتى كانت الشعوب ترحب بمحتل؟

كانت.. كانت عندما كان المحتلون هم المسلمين.

وماذا تسمي مقاومة الجيوش غير المسلمة لهم؟

وماذا تسمي انهيار تلك الجيوش بسرعة بعد تعرفهم على نظافة وتحضر وإنسانية وسمو رسالة المسلمين، وماذا تسمي إسلام تلك البلاد بالسرعة نفسها، بل فسر لي أمراً معجزاً لم يحدث لأمة غير أمتنا المسلمة؟

وما هو؟

لم تكتـفِ تلك الدول المفتوحة بالاستسـلام للمسلمين والاقتناع بدينهم، لقـد عشقتهـم عشقاً لا حـدود له، وعشقت قرآنهم وعشقـت لغته، فتخلت

عن لغتها الأصلية واعتنقت لغة القرآن العربية.. هل كان أهل الشام عرباً.. هل كان أهل مصر والسودان عرباً.. هل كان أهل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والصومال عرباً..؟!!

لا، لكنهم تحولوا إلى عرب بعد دخول الجيوش الإسلامية بلادهم.

أبداً، بل أصبحوا عرباً؛ لأن تلك الجيوش لم تأتِ لتنهب، ولم ينفرد الفاتحون بمميزات طبقية عن أهل البلاد كما فعل الأوروبيون في إفريقيا وآسيا، ولم يحولوا ثرواتها إلى ديارهم، ولم يقوموا بتحويل تلك البلاد المفتوحة إلى مزرعة الخدم فيها هم أهلها، لقد كانت تلك الجيوش الإسلامية تحمل حضارة ورسالة بين دفتي المصحف، فحالما تهدأ الأمور تجد أهل تلك البلاد المفتوحة يتحولون إلى إخوة للفاتحين، وقادة لتلك الجيوش، بل يتحول أبناؤها إلى علماء ومفسرين وفقهاء ومحدثين وأدباء وما شئت من تخصصات.. وإذا بتلك البلاد تعج بالمكتبات والمختبرات ودور العلم.. هل تتصور أن يصل المسلمون إلى وسط الصين وجنوب باريس بعد نصف قرن من وفاة النبي ﷺ.. هل تتصور أن يقوم بذلك جيش غير متحضر؟

كانوا يقولون: إن دفع الجزية شيء غير حضاري.

عجيب أمرهم، والأعجب أن ذلك الكلام يردده بعض المسلمين السذج.. أجل، كان هناك جزية تفرض، وهي ضريبة مقابل خدمة الحماية لهم؛ لذا أعاد القادة المسلمون الجزية لأهلها لما عجزوا عن الدفاع عنهم، لكن غير المسلمين رفضوا أخذها، وفضلوا المشاركة مع المسلمين في الدفاع عن

البلاد.. أجل هناك جزية، وإن هناك زكاة يدفعها المسلمون وحدهم.

لكن الزكاة على الأغنياء والجزية على الأغنياء والفقراء؟

من قال هذا! الجزية على القادر، وسأزيدك شيئاً مدهشاً.

وما هو.. فالدهشة تملأني، كأن هذه المعلومات للتو بالنسبة إلي.

ألا تعلم أن المسلمين يدفعون زكاة أموالهم للفقراء من غير المسلمين؟

أتعني أن الفقير من غير المسلمين داخل الدولة الإسلامية يأخذ ولا يدفع؟

وهناك شيء آخر سيثير دهشتك أكثر.

استرسل أرجوك.

المسلمون يدفعون للأغنياء أيضاً.

يا رجل، من أين تأتي بهذه المعلومات أنا لم أسمع بها؟

لكنك بالتأكيد قرأت كلام صاحب هذه الجنة في القرآن، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ .(التوبة: آية٦٠).

من هم المؤلفة قلوبهم؟

حقًّا إنه لأمر مدهش، حقًّا إن التحضر بالقرآن هو التحضر.

هذا لا ينفي أن أخطاء تقع هنا أو هناك، فالمسلمون يظلون من البشر، لكن القرآن الذي أخرجهم من ديارهم وبيوتهم سرعان ما يعالج تلك

الأخطاء. أتعلم أن أجر معاملة الأسرى من الأعداء غير المسلمين باللطف واللين وطيب الطعام، يعادل أجر فعل ذلك مع الأيتام والمساكين، انظر إلى حجم الهدايا والنعيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾. (الإنسان: آية ٥-٢٢).

هل سمعت بأمة تطعم أسراها بطعام أفضل من طعامها الذي تأكله؟ هل سمعت بشيء مثل هذا؟ غيرهم يغتصبون الأسرى يا رجل.. تصور أمة تأخذ هذا التحضر بالقرآن في سلوكياتها، وتجمع معه أجمل ما عند الآخرين من تقنية ونهضة مادية وأنظمة مدنية.

ستصبح بجمال هذه المشاهد الخلابة التي تموج تحتنا وحولنا وفوقنا.

أخذنا مشهد المياه والجبال والبيوت والأنهار، والبحيرات والأشجار والشجيرات، والطرقات، فرحنا في سياحة ساحرة فوق قمة جبل شاهقة، إنها ليست كقمم جبال الدنيا الضيقة والخشنة، حيث الجليد القاتل والبرودة المميتة وضيق التنفس..

إنها قمم أخرى فسيحة كالأرض.. منبسطة ومنقوشة ومزخرفة ومعجزة ومسكرة.. جمال وإثارة ورياضة ونشاط يغري أجسادنا ومشاعرنا بالمزيد وبلا حدود.. إنه الثراء والقصور والمساحات الملونة المختلفة، والبحيرات التي تلمع على تلك القمم، ومنها تبدأ مصبات بعض الأنهار..

إنها السحب الجديدة والأمطار الجديدة والسماوات الجديدة والأراضي الجديدة.

سكنا قصوراً تعج بكل جديد.. على قمم ألماسية هائلة.. أرجوانية وزرقاء وخضراء و.. و.. وحولنا من وسائل الراحة وأساليب النعيم ما لم يَرَه بشر من قبل..

كنا ذات يوم على شرفة قصرنا وتحتنا تنبسط آلاف الأميال من الجمال والسحر والفتنة.. كنا ننعم بخدمة لا تدانيها خدمة الملوك..

التفت صاحبي، فقال: لو رأى زعماء الدنيا ما نحن فيه لعاشوا حياة راقية من الزهد والعدل.

فقال صديقي: ذكرتني بقصة قرأتها حول حوار جرى بين واعظ حكيم، وملك نشر العلم والثقافة والإسلام في مساحات تحدى السحابات أن تتجاوزها:

دخل الواعظ (ابن السماك) على هارون الرشيد، وقد طلب الرشيد ماء، فأحضر له ماء بارد، فقال الرشيد لابن السماك: (عظنى. فقال: يا أمير المؤمنين، بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعتها؟

فقال: بنصف ملكي.

فقال: اشرب هنيئاً. فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجها من بدنك، بكم كنت تشترى ذلك؟

قال هارون الرشيد: بنصف ملكي الآخر.

فقال ابن السماك: إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء، وقيمة نصفه الآخر بولة، لخليق ألا يتنافس فيه).

يا له من واعظ حكيم، ويا لها من دنيا تزداد تفاهة كلما ازدادت جمالاً، وتزداد جمالاً كلما ازدادت قبحاً.. لقد قرأت عن أثرياء أقدموا على الانتحار وهم في أوج سعادتهم، فهل قرؤوا ابن السماك!

بل لأنهم ملوا الدنيا، وليس لديهم أهداف أكثر من العيش فيها، كانوا يبحثون عن شيء لا يعرفونه فيها.. هذا الموت المخيف ما وراءه؟ انتحروا بحثاً عما وراءه، بعد أن لم يجدوا في كتابهم المقدس شيئاً مقنعاً صحيحاً يرشدهم.. بعد أن لم يعثروا مع مفكريهم عن فلسفة تقدم لهم حقيقة مقنعة... أتذكر عندما كانوا يقولون: لا أحد يملك الحقيقة؟

بعضهم فتح عقله وقلبه لما في القرآن والسنة، بعد أن كشف له العلماء التجريبيون أن في القرآن والسنة معلومات علمية لا يستطيع بشر على

الإطلاق أن يصل إليها في عصر نبينا محمد ﷺ، وكانت تلك المعلومات تأتي في أعطاف الحديث عن البعث والنشور والنار والجنة.. أي عن الإجابات التي انتحر المنتحرون بحثاً عنها.

أي إن صحة تلك المعلومات كانت تشهد لحقيقة البعث والنشور، وتشهد بصحة القرآن والسنة وما فيهما من أخبار بالغيب، وصحة ما نحن فيه من نعيم.

أجل، لأن تلك الأخبار لا يمكن الوصول إليها عن طريق العلم، بل عن طريق الخبر الصادق (القرآن).

وماذا عن نظريات العلم؟

أنا أتحدث عن حقائق العلم، أما النظريات فلا يمكن الجزم بصحتها.

صدقت.. لا توجد حقيقة علمية تخالف القرآن والسنة.

دعني أضرب لك مثالاً رائعاً بسورة (المؤمنون) دعني أقرأ عليك كلام الله، ثم تأمل كيف يأتي القرآن بمعلومات في أثناء كلامه العظيم، ليؤكد صدق دعوته وأخباره، وصدق وعده بالجنة ووعيده بالنار.. سورة (المؤمنون) التي أسلم بعد قراءتها أحد أعظم علماء الأجنة في دنيانا، وأذهلت الصيادلة والأطباء، وأخرجت أرقى مختبرات العالم ومعامله شهادات بصدقها، وصدق مبلغها ﷺ، وصدق من أمر بكتابتها (أبو بكر رضي الله عنه) وصدق من كتبها وحفظها (الصحابة فمن بعدهم رضي الله عنهم) وصدق من عممها على العالم (عثمان رضي الله عنه)...

يقول تعالى فيها: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴾.(المؤمنون: الآيات ١٢-٢٠).

إنها آيات تسافر بك من لحظة خلقك إلى نعيم هذه الجنة.

يزيد في إبهارها ما كشفه العلم التجريبي من مراحل تخلق الإنسان.. كيف عرف محمد العلقة والمضغة، وبقية الأطوار؟!! هذه المعلومات الدقيقة جعلت أكابر علماء للأجنة يعلنون إيمانهم بأن هذا القرآن هو كلام الله، وكلام الله فقط؛ لأن تلك المعلومات الدقيقة لا يمكن أن يحصل عليها إنسان يركب الجمل، ويعيش بين جبال مكة المكرمة وحرات المدينة المنورة، ولا سيما وهو أمي؟! ويعيش في عصر متخلف تقنيًّا كان العلم فيه أكثر تخلفاً؟!! أما التمر فمعجزاته وبراءات الاختراع حول فوائده التي ذكرها النبي ﷺ، فشيء معجز حقًّا، وما أخرجته المعامل والمختبرات حول الزيتون وزيته.. كل ذلك لا يمكن أن يمر على من فتح عقله وقلبه مرور الكرام.

عدت تردد: (فتح قلبه)؟

لأني أعتقد أن القلب هو مفتاح العقل، فالذي ينسى عواطفه عند تلقي المعلومة، يتيح لها أن تمر بسلام إلى عقله، وإلا ظل أسيراً للهوى والعناد كحال فرعون وأبي لهب وأبي جهل.. سيظل أسيراً للمألوف والسائد في قومه.. سيظل جاهلاً لا يتعلم سوى ما يحب، ولا يعتنق سوى ما يهوى.. بل إن العلماء التجريبيين اكتشفوا أن للقلب شبكة من الخلايا العصبية لا تقل في وظائفها عن خلايا الدماغ.. ناهيك عن التغيرات المحيرة التي أصيب بها من أجريت لهم عمليات زرع قلب. بعضهم تحول إلى نسخة من صاحب القلب الأصلي!!

كم أتوق إلى اللقاء بهؤلاء العلماء الذين أسلموا على يد العلم التجريبي، فقد مات معظمهم مجهولاً.. جحدناهم وتنكرنا لهم، ولو كانوا عند غيرنا لفاخروا بهم.

إنني أشعر بهم في الجنة يطرحون المزيد من الأسئلة.. أشعر بهم يسافرون إلى أماكن عرض حقيقية.. تريهم نشأة الكون وتشكله وبداياته وصيرورته وتحولاته، ثم نهاياته.. يشاهدون بداية خلق الإنسان من تراب، وإعجاز الباري -عز وجل- في إعادته وبعثه ونشوره. كأني بهم يمارسون تخصصاتهم كما مارس ذلك المزارع زراعته في الجنة.

أعتقد أن لدينا متسعاً من الوقت كي نشاركهم ذلك.

أبحرنا في التأملات والمعلومات والتاريخ والذكريات والمرح أياماً.. أسابيع؟ لا ندري فقد أسكرنا النعيم، وأذهلتنا الجنة..

استمر بنا النعيم حتى أخذنا أحد الأنهر الفيروزية... فاجأتنا ضاحية لمدينة كالحلم.. ضاحية هائلة تستلقي على حافة بحر تتناثر فوقه المراكب كالجواهر.

شدنا منظر الضاحية، فبينها وبين رصيف الشاطئ مسافة فسيحة.. مسافة مفروشة ببساط ممتد إلى حيث يغيب عن أنظارنا، كان بساطاً من الزهور البيضاء فالصفراء فالبرتقالية فالحمراء، أما الأخاذ خلف تلك المساحات الملونة فضاحية من ملايين القصور التي تشع فخامة وجمالاً، تشع فتنة وبذخاً.. ملايين القصور تفصل بينها حدائق ملونة أو ميادين فسيحة، أو ممرات عريضة لأنهار وديعة، أو طرقات أعرض مرصوفة بالأحجار الملونة.

أوقفنا مركبنا ولبس كل منا حلة جديدة ورحنا نتمشى فوق ذلك العشب الأخضر، الذي يزداد خضرة وحياة كلما لامسته أحذيتنا الأنيقة.. طلبنا مركبة فخمة تطوف بنا بين هذه القصور الساحرة.. إنها رحلة بين ملايين القصور ولنا فيها قصور، والفرجة على تلك الضاحية قد يستغرق أشهراً.

انسابت بنا سيارتنا كسحابة بين القصور.. كانت أسوارها منخفضة لا تزيد على منتصف الجسم.. القصر الذي صادفنا كان زهري اللون.. سوره الشفاف والمستقيم تكسوه الورود الحمراء والوردية، وتحف ببوابته أغصان ملونة تتسلق وتلتف مشكلة قوساً. وعبر بوابته يمتد طريق مرصوف برصيف من الحجارة الناصعة البياض ولكن دون لمعان. وعلى

جانبي الطريق تنتصب الأشجار الباسقة والمنسقة ذات الألوان المتدرجة نحو الأفتح، وحول المبنى تتناثر برك السباحة والمقاعد والخيام الحريرية الملونة كلها بألوان القصر، وكأنها قطعة منه.

هذا ما أسعفنا به وقت المرور، ولا ندري أي فتنة داخل ذلك القصر، أما السعادة فتبدو من أصوات وضحكات من يسكنونه.

تجاوزنا إلى قصر آخر سوره ومبناه قد سكبا من الذهب، وقد أطرت نوافذه وأبوابه بخشب الجنة المصقول، كان قمة في الجمال والفخامة.

قصر جميل ثالث توقفنا عنده.. كان مبنيًّا بما يشبه الطين، لكنه طين فواح.. لونه ونوافذه وساحاته التي فرش جزء منها برمال لؤلؤية عذبة، وخيام حريرية تزين ساحاته. والدخان يتصاعد من الخيمة، ورائحة القهوة بنكهاتها تعطر المكان، وذلك المسبح المحفور داخل حجر هائل من المرمر وحوله بعض نخلات مكتنزة بالرطب الملون بألوان كثيرة غير الأحمر والأصفر.. كان واحة جديدة ومثيرة..

قال صاحبي: يذكرني هذا القصر بصاحب الزرع.

أأدركت الآن أن الجنة ليست قتلاً للإبداع ولا اكتفاءً بالطعام والشراب وملذات الجسد، بل منها ينطلق الإنسان في رحلته الثانية التي لا تتوقف عن الإبداع والاكتشاف والاختراع دون حدود، وأن الإنسان مخلوق كريم متى ما كرم نفسه وعرف دوره تجاه الله والكون والحياة.

أشعر من قول الله تعالى لذلك الإنسان الذي يريد الزراعة: (دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء). بمدى التكريم له.

ليس فوق هذا تكريم.. إنه يحقق له رغباته النفسية.. إن زرع ذلك المزارع ليس جوعاً ولا نقصاً، ولا خوفاً من حرب، أو من سبع سمان يأكلهن سبع عجاف.. إنه هاجس مدفوع بالإبداع وحب الاكتشاف.. إن الله لم يقمعه ولم ينهره، بل تركه لشغف وصفه الله بأنه لا يشبع.. الجنة يا صديقي، أكثر من متع حسية، إنها جنة الخلد ومليارات السنوات.. لك أن تتخيل ما الذي سيبدعه هذا المخلوق الذي لا يشبعه شيء في تلك السنوات، ومع ذلك فسيجد الجنة فوق ما يتصور، وأبعد بكثير من كل آفاقه التي ينشدها.

الإنسان سيظل في الجنة باحثاً مكتشفاً خالداً في جنة عرضها السماوات والأرض، فهنيئاً لمن حظي بتلك الفرصة.

مررنا بقصر محفور من ياقوتة خضراء، وقصر من ألماسة وقصر من لؤلؤة..

تجاوزناها إلى غيرها.. إلى غيرها.. إلى غيرها، وكانت سيارتنا تقودنا خلال إغراء تلك القصور والطرقات، والميادين والحدائق والممرات المائية التي تتنافس في قتلنا وفتنتنا بجمال نشعر به، لكننا لا نستطيع وصفه.. كنا لا نشعر بالملل ولا بالزمن، لكننا نشعر بالفن والإتقان والذهول.. لم تكن أجسادنا وأبصارنا هي التي تتجول فقط.. أرواحنا كانت ترفرف مأخوذة بما حولنا.

ظللنا نسير ونشير ونتحدث ونتوقف ونشير، حتى حانت مني التفاتة كاد قلبي معها يطير..

توقفت فجأة، فلم أستطع مواصلة القيادة أو الحراك.. كان صاحبي مشغولا بما يراه وما حوله، أما أنا فغيبني صمت لم أستطع معه حتى الكلام.. كان صاحبي يلفت انتباهي إلى روعة قصر وفخامته، وجمال الخيل الملونة التي تزين ساحته الكبيرة، ولما لم يسمع مني إجابة التفت، فإذا به يرى صاحبه تمثالاً من الدهشة، عندها قال لي: ما بك.. ما بك؟

انتبهت إلى هتافه فقلت: لا شيء.

لا شيء... وهذه الدهشة التي تملأ وجهك؟

أبداً لا تهتم.

لا بد أنك رأيت شيئاً؟

ما رأيك بهذا القصر يا لروعته، إنه من المرجان مع أنني لم أَرَ المرجان في حياتي.

ابتسم صاحبي وأدرك أني وقعت على شيء لا أريد أن يراه، فقال وهو يستعد للانسحاب من المشهد الفتنة: ابقَ هنا ريثما أعود.

أجبته بذهول: حتماً سأبقى، ولكن خذ المركبة فلست في حاجة إليها.

تنفست صعداء الجنة، فقد كان صاحبي لماحاً..

كان يريدني أن أقرأ المشهد على انفراد..

قرأته على انفراد..

قرأته حتى كاد يقتلني..

أما هو، فانطلق وكأنه يريد الاختفاء بأسرع وقت، لأعود ببطء وشوق وشغف إلى ذلك القصر...

قصـر أبيض في غاية النعومـة والبهاء، كأنمـا صيغ من اللؤلـؤ والمرجان أو هـو كذلـك، وتلك الأسطح التي تبدو أنهـا قرميدية.. ليست قرميدية، هي مصبوبة من الياقوت، تعلو أسطحه وتزيد من بهائها.. ياقوت بألوان زهـور الحدائـق التي تتموج في ساحاتـه، وتلك الشرفـات البيضاء، المزينة بمقاعـد وطاولات لؤلؤية أنيقة، ونوافذه الكبيرة وستائره البيضاء خلف تلك النوافذ كالحلم..

سـوره المنخفض شبكـة ألماسية مزخرفـة.. تحفة مذهلة، ومـا بين السور والمبـاني مساحـات فسيحـة.. فسيحـة ساحـرة وخلابة، ففي أحـد جهاته حدائـق غنـاء منسقـة الأزهار والـورد والشجـيرات والأشجـار والممرات.. تنبعث منها وتتناغم العطور.. مساحات هائلة تهيم بها الأرواح..

الطيور في ذلك القصر كالزهور رائحة وألواناً..

كان لـكل زهـرة جمالهـا ولونهـا وعطرهـا المميـز، وفي جانـب آخـر أماكن فسيحـة جـدًّا ومرتبة بعناية وإتقان للاحتفـال والمرح وكل ما يعن لعاشق المـرح، وفي جانـب ثالث تشع تحف من المراكب السـاحـرة الطائرة والمبحرة والسيارة.

أما من داخل القصر، فتنساب موسيقا هادئة وحالمة.. كل ذلك كان جديداً ومميزاً ومغوياً...

المدهش في القصر أنه بكامله بمساحاته الهائلة.. بحدائقه وفتنته مشيد علـى لـوح مـن الألماس النقـي يجـري مـن تحتـه نهر عـذب عريض بالغ الصفاء، بحيث تستطيع رؤية قاعه اللؤلؤي المزخرف الفاتن.

أما الأجمل والأكثر إغراءً وإغواءً فكان سحراً يتهادى..

فتنـة تقطف بيدها الناعمة باقة من الزهور.. تشمها، وتتحدث بوقار مع من حولها..

أميرة تتهادى كسحابة بين وصيفاتها وحدائقها وعبيرها..

فتنة شقراء تفتك بقلب من يراها، وقد فعلت..

فتنة لو رآها رجال الأرض لاقتتلوا على رضاها...

صرت أدور على الرصيف الألماسي العريض، الذي يحيط بقصرها.. أدور كالمجنون دون أن أشعر..

لا أدري ما أصابني، ولا أدري ما أقول..

نسيت خطواتي ووقاري وصاحبي.. بقيت ساعات وأنا ألتف هائماً حولها، حتى وقعت عيناها علي مراراً، فأصابني الارتباك والذهول..

صـرت أتـردد في مـكاني مأخـوذاً.. أقـوم وأجلس علـى مقاعدهـا الجميلة الملونة والمتناثرة حول القصر..

أدور علـى حافـة النهـر دون شعور، يحملنـي شوق يجرفنـي.. يقتلع قلبي يذهلني.. وفجأة إحدى الوصيفات تبتسم في وجهي وترحب بي.

ارتبكـت كثـيراً وتلعثمـت أكـثر.. سألتنـي تريـد التخفيف عنـي: إن كانت تستطيع خدمتي؟

وبعد ارتباك ومعاناة استطعت جمع بضع كلمات قد تفي بالغرض..

أخبرتها أني مجرد عابر سبيل وقعت عيناه على ما لا يستطيع تحمله.

سألتني مرة أخرى: وهل أستطيع أن أخدمك بشيء...؟

شكراً، لكن لدي سؤال... أسئلة.

سل ما بدا لك، ولكن دعنا نقدم لك ما يليق بضيف كريم.

أشكرك على كرمك ولطفك، ولكن أريد أن أسألك.. أريد أن أسأل.. هل سيدتك الفاتنة.. آنسة؟

أجل، و....

يا ألله...

وهي تسأل عن سر طوافك حول قصرها.. هل من خدمة تتشرف بتقديمها لك..؟

قولي لها: إني:

أطوف وقلبي وبعض الهموم | على قصرك دون أن تشعري
أطوف وفي جعبتي بيت شعر | قديم يشيب على الأسطر

دعيني أكتبها لك في ورقة.

نزعت ورقة من ورق الجنة العطر.. (لم يكن لدي وقت لتأملها) وكتبت البيتين.

أخذت الوصيفة الورقة، وانصرفت نحو فاتنتي وعيناي تراقبانها، وعندما أصبحت بجانبها مدت يدها نحوها بأدب وسلمتها الورقة. كاد تصرفها يقتلني..

تأملتها بعينيها الساحرتين. قرأتها والتفتت إلي، ثم ضمت أصابعها الناعمة عليها..

كنت أنتظر أن ترميها على الأرض، فلا بد أن خطابها أكثر من أهدابها، لكنها لم تفعل.. لقد فتحتها ثانية وقرأتها طويلاً والاستغراب يملؤها، ثم واصلت تجوالها بين وصيفاتها وزهور حدائقها دون أن تأبه بي.. كانت لا تغيب عن ناظري ولهفتي..

جلستْ على مقعدها الألماسي قرب بركة سباحة كبيرة جدًا ومتعرجة بشكل فني فاتن.. في جدرانها فتحات تسمح للنهر العذب بالدخول والخروج، ومحاطة برصيف من العقيق له ألوان العقيق الذي يكسو أسطح قصرها...

جلست ونثرت ما بيدها من الزهور ومعها الورقة على طاولة ألماسية، فتغيرت ألوانها..

انصرف من حولها من الوصيفات وبقيت واحدة، وتناثر شعرها الذهبي حول وجهها وكأنه يريد أن يقرأ معها، فرفعت جزءاً منه بكفها وهي تلتفت بهدوء نحو السور، أما أنا فكنت خلفه، وبين شجيراته الملونة أعشق كل حركة تقوم بها، وأهيم بها.

التفتت نحوي مرة أخرى، فتسمرتُ في مكان تجري من تحته الأنهار..

حركت شفتيها، فتوجهت الوصيفة نحوي، فازداد خفقان قلبي..

تهت في عالم من الدهشة والترقب والمشاعر..

اقتربت الوصيفة مني.. من انخطافي، ثم قالت:

سيدي.. سيدتي تسألك من تكون، وما تريد...؟!

قولي لها:

هل تأذنين لقلب قد يخر على   أعتاب بابك أن يشكو من التعب

لا تجعليه كعبدٍ كل رحلته   حمل الحقائب خلف السادة النجب

ذهبت الوصيفة.. بينما كنت أنظر وأنتظر، أما هي فأصغت إلى كلماتي فبدا عليها شيء من الارتباك.

تمنيت ألا يعود صاحبي، ويبدو أنه كان يملك من الأحاسيس مثلما أملك، فغاب كما أشاء، وفي أثناء ذلك جاءني الجواب شعراً غريباً أخافني، لكنني لم أيأس.. شعرت بأنه يحوي نوافذ الأمل:

أأنت الذي قلت لي ذات يوم   وداعاً وكفي على أدمعي

أأنت الجحود الذي باعني   وصب اللهيب على مهجعي

رجوتك يا جاحداً والمساء   يئن جريحاً على أذرعي

رجوت فلم تستجب لي الحياة ولم تستجب لي كما تدعي

ومات المساء كموت الصباح وشمسي تشيب على المطلع

أطابت جراحك يا عاشقي فجئت لتحرق في أضلعي

أأنت القائل لي ذات يوم:

أأرسلتِ خادمكِ كي يقول أطابت جراحك يا عاشقي

أيرضيكِ إن قلت: إني نسيت لك ما أردت فلا تقلقي

لكِ النوم يهفو طري الوشاح فخوضي وأحلامك واغرقي

تناسي بأني وحيد هنا أسامر والبحر كالمطرق

رمال شواطئ من غادروا بطيفك والبدر والزورق

تناسي بأني خلقت وما حلا لك سيدتي فانتقي

أيؤلمكِ الهجر؟ قولي له: بأنيَ وهم ولن نلتقي

تلاشيت حيث تلاشى السراب بعيداً بعيداً فلا تقلقي

فإن عدت يوماً ثقيل الخطا جبال الهموم على عاتقي

وإن جئت يوماً وكلي رجاء فلا تستجيبي ولا تشفقي

وإن قلت من حسرتي إنني صدقتك دوماً ولم تصدقي

وإنك نـــار على أضـلعي وإني أســـير فلا تعـــتقي

وإن قلت خيم حولي الظلام وإنك شـمسي فلا تشرقي

وبيعي الذي بيننا للرمـــاد كما بعـتك ذات يوم شقي

ونادي الأعاصير صيحي بها مرافئـــنا من هنا أغـرقي

لكي لا يـــرى قلبه مرفأً ويبقى شـــقيًّا بنا ما بقي

قلت في نفسي: من هذا المجنون الذي يتخلى عن هذا السحر..؟ من الذي يجرؤ على مخاطبة جلالتها بكلمات كتلك..؟ ما أقساه...

ترى هل في قلبها كرسي شاغر؟

هل لها قلب جديد لم يكدر صفوه ذلك الشقي.. هل لها قلب جديد مفعم بأنوار الجنة ورحابته؟

لا أدري، لكنني أشعر بأنها لا تريد إعادة قلبي، ولا أريدها أن تعيده.. لذا رحت أرجوها أن تسمح لي برعايته داخل مملكتها..

رحت أرجوها أن تتعرف إلى لهفة أسرتني عند بوابتها..

رحت أخطبها، وراح الشعر يجرب مفاتيحه في أبواب قلبها....

كتبت لها: مهلاً.. بل أنا من يقول:

أنـا مـن أضـعـت علـى بابك فـؤادي وعقلي وذاك الرفيقْ

أنـا مـن حشـدت علـى بابك حقول الرجاء وزهر الطريق

كأن المراكب والطائرات

كأن الشوارع والمركبات

كأن السماء كأن البحار

تقول لقلبي: هناك.. هناك

هناك التي كنت فيها تهيم

وتســـأل ربك حيث تقيم

هناك التي علمتك الغرام

هناك التي هام فيها الهيام

تركت المواخير والسـاقطات

لأن اليخوت تجوب البحار

لتحملني نحو عنوانك

لأكتشف الحب الذي طالما

أضاء مساء الصحارى

بصوت الحداة

بعطر الخزامى

وأوقد في الشعراء الشموع

وفجر من قمقم الشعر أشياءهم

أحاسيسهم

أكاذيبهم

أساطيرهم

ولكنني بعدما التف حولي إعصارك

وبعد أن اجتث قلبي طوفانك

علمت بأنهمو لم يروا

من الحب إلا اسمه

وبعض الرتوش على رسمه

ماذا أقول لقلب صار يسألني

عن واله سكنت حمى الهيوم به

قـولي لـه.. إنك تلك الفتاة التي كانت تلـوح لي من شرفات الجنة.. قولي له.. إنك ذلك العزاء الذي أشغلني عن كل ما حولي من مغريات..

كنت ذلك الموعد الذي لا تكف ساعته المعلقة على جدار قلبي من تذكيري بالاستعداد له..

كنت أجمل أحلامي..

كنت روحاً تحتلني..

كلما فتحت غرفة من غرف قلبي..

وجدتك فيها..

كنت تسكنينها دون مقابل..

تصوري دون مقابل..

رغم ندرة القلوب..

وغلاء القلوب..

أتدرين لماذا؟

لأنك أميرتي..

وأميرتي:

كانت في الدنيا روحاً

فتشت لها عن جسد لا يبلى

فتشت لها عن زمن لا يفنى

فتشت لها عن بلد

ففشلت

أميرتي

أدركت بأنك في قلبي شيء أرقى

حلم أنقى

وأجل كثيراً

من أن تختصري في دنيا

أميرتي

قد كنت تجوبين خيالي

وتهبين لإيقاظ الفجر وآمالي

وتعدين الشاي

والحبر وأقلامي

وقصاصات الأوراق لأشعاري

أميرتي

قد كنت تغنين مساءً

في أقصى قاعات فؤادي

أميرتي

في قلبي كنت أقيم الحفلات

على شرفك أنت

كانت مكلفة كانت

باذخة جدًّا

مرهقة

أفلستُ كثيراً كي أربحك

أبعدت كثيراً

كي لا أحرم منك

أميرتي

أنت.. أقمار يسكنها الشعر

وتشعلها الأبيات

تطربني

تسحرني تلك الأبيات

أميرتي

أنت جزر آهلة بالنغمات

وأراضٍ أخرى

وسماوات غير السماوات

أميرتي

أنت

مااااا أعذب كلمةَ (أنت)

أنت وأنت وأنت

ما دمت في قلبي

فلا أخشى القيود

مادمت في قلبي فلا أخشى الحدود

كون محطاتي

محطاتي خلود

مادمت في قلبي

فالماء عندي والغمام

والشمس في كفي وأسراب الحمام..

عادت الوصيفة إلى فتنة لو تبدت.. لو رآها عشاق الدنيا، لذهلوا عما هاموا فيه، ومن هاموا به، ولبذل الملوك عروشهم، والأثرياء كنوزهم ثمناً لكرسي في قلبها، فيا لسعادتي وأنا أحظى اليوم بمراسلتها.. ويا لفضل الله الذي حملني إلى هذه البوابة..

أي طوفان يجتاح مشاعري، وأنا أرى هذه الفاتنة تتصفح أوراقي وتجوب حروفي..!

إلهي، أسألك بكل أسمائك أن تهبني قلبها ورضاها وحبها..

أسألك باسمك الأعظم ألا تحرمني منها..

من أنا يا ربِّ.. ما الذي فعلته لأحظى بهذا المشهد؟!

من أنا لولا سعة رحمتك ورحابة عفوك..

ما أجملها.. ما أرقها.. ما أعذبها.. ما أبهاها وأبهى النظر إليها..

ما أهون السنين وألذ الانتظار على بوابتها، إن كان الثمن هو قلبها.

عادت الوصيفة وأنا مشغول بأحلامي وهيامي.. عادت، وهي تحمل أبياتاً من كيد.. تقدم عرضاً يقول:

ومـاذا إن أنـا قوضـــت أحلامـاً تـراودك

ومـاذا إن أنـا مزقـــت مـن غضبـي دفاترك

أنرجـع مثلما كنـا وتقنـع حـين أبعـدك

رضيت بالتوقيع على عقدها ومعاهدتها ولكن بشرط.. قلت فيه:

سأرجع إن سمحتِ لي

وأُبعد مثلما كنا

بشرط واحد:

أن أكاتبك

وأكتب عن جلالتك

وأكتب إن أذنتِ لي

عن الأشواق

عن قلب ملكتيه

نقشتي كل فتنتك

وسحرك بين جدرانه

فرشتي كل قاعاته

وعطرك في ممراته

أتيتيني بأقلامٍ وكرسي وطاولةٍ

وأوراقٍ

وأمراً قلتِ: رغماً عنك تكتبني

وتمنحني كل أشعارك

وشرط آخر أيضاً:

سأخبر كل من ألقى بجناتي

بأنك قد سلبتيني

سرقتيني

نهبت جل مدخرات أشعاري

كقاتلة ..

كإرهابية مجنونة كنت..

لقد قمت على رأسي

كسياف

فأمليتِ على قلبي

على قلمي

وشرط ثالث أيضاَ:

سأقنع إن سمحتِ لي

لأحضر كل حفل أنت زينته

وأبقى في شوارعك

لأغسل كل أحزاني

وأيامي وآلامي بأنوارك

وشرط كدت أنساه:

سأقنع إن تركتيني

دليلاً عبر جناتك

أقودك عبر أسفارك

أجدف عبر أنهارك

وأقذف بالمرساة

وأقفز.. أطلب إذنك

لأمسك كفك الفتان.. عندما نرسو

وشرط لن يضيرك:

إن تركتيني

أصمم قصرك التالي

وأرسم بعض لوحاته

وأقنع منك يا حلمي

بأجرٍ لن يكلفك.

فأجري يا فتاتي بخس

وأجري إن سألتيني؟:

أرى في قلبك الخالي مساحات

سأقنع إن سمحتِ لي بسقياها

دعيني أرسل الأمطار

في صحاريها

دعيني أغرس الأشعار والأزهار

في أحلى روابيها

دعيني كي أنسقها

وأعطيك قطاف الورد والأشعار باقات

خذيني اليوم أرجوك.. فبوصلتي..

أضاع الحب بوصلتي..

أجدف مبحراً فيك

أسافر خارج الأزمان

كبحار بلا عنوان

وإبحار بلا شطآن

على كلٍّ.... أنا أرجوك

أناشدك.. أفاوضك

وليتي اليوم أقنعك

لأكتبك.. لأرسمك

بكل حروف الوجد والشغف

وليتي حين أرسمك

أريك ما أرى فيك

أطالت القراءة، وأطلتُ السفر في عالم هي شمسه.. هي عطره..

لم يكن هناك ما يقلقني ما دامت بين عيني، ولم يكن يأخذني من الغيبوبة بها سوى كلماتها..

لم يتداعَ قلبي حتى الآن إلا أمامها، ولا أدري ما حيلتي أمام هذا النعيم المحاط بالنعيم.. تمنيت لو تطول وتماطل ليطول وقوفي..

كان صمتها يستدعي المزيد من الشغف والكتابة..

ما أحلى الوله في الجنة!

ما أحلى المشاعر في الجنة!

أطالت قراءتها، وهمست بكلمات حملتها وصيفتها بخفة النسيم قائلة: ستسمع الجواب فيما بعد.

ولما طلبت من وصيفتها أن تقول: إني أريد سماع الجواب الآن..؟ ابتسمت قائلة: إن كنت مشغولاً هذه الأيام، فتستطيع العودة بعد مئة عام، فليس في الجنة ما يُخشى فواته.

أما هي فنهضت بهدوء وكيد عذب، وتهادت كسحابة نحو مركبتها البيضاء الفارهة المكشوفة.. وكأنها تفتح أبواباً على عشرات الأسئلة.. على غابة جميلة من البُشريات التي زادتني إصراراً وشغفاً.

ثم غادرت تقود سيارة فخمة تكاد تضيء من بياضها.. كل ما فيها أبيض.. مقاعدها الوثيرة وفرشها وكل ما فيها.. حتى عجلاتها ومقودها.. حتى إطارات زجاجها الألماسي.. سيارة لم أَرَها إلا مع أميرتي..

مـرت مـن أمـامـي دون أن تـلـتـفـت، ودون أن تـلـتـفـت خـطـفـت قلبي وأردفته معها..

أمـا وصيفتهـا فبقيت لتزيدني شوقاً وتقـول: لم أَرَ سيدتي إلا مبتسمة.. ما الذي أتى بك.. ماذا فعلت بها لتذرف تلك الدمعة الغالية...

تحمَّل بعض الأعاصير.. الويل لك إن كنت القائل:

ونادي الأعاصير صيحي بها: موانئنا من هنا أغـــرقي

لكي لا يـــــرى قلبه مرفأً ويبقى شقــيًّا بنا ما بقي

لم أجبهـا.. ضاعـت منـي الإجابـات، وألجمنـي السكوت والانتظـار، لكن الطـواف بسورهـا.. علـى ذلك الرصيـف الألماسي العريض الذي يومض حول قصرها، وما حوله وما تحته من مياه عذبة يزداد صفاؤها بجريانها، ومناظر خلابة كان نعيماً لا يقاوم..

صـرت أطـوف حول قصرهـا، وكأني أطـوف حولها.. رحت أُرتـب الكلمات فترتبنـي الأبيات، رحت أتمرن على إلقائها، وأتخيلها تطوف معي، وأدعو الله أن تفعل، فهو الذي بشر عطشنا في الدنيا بكلمات ألذ من المطر: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ .(ق: آية ٣٥).

كنت أرفع رأسي، وأردد، وأدعو، وأناشد...

بقيـت طويـلاً دون أن أشعر بوقت أو ملـل.. بقيت في حيها وجوار قصرها، ويـا له مـن جوار! أحلـم بنصيب في قلـب صاحبتـه.. كان الأمل والجمال

من حولي يحلقان بي، كتلك الطيور التي تزين المكان والسماء بألوانها ورائحتها، أو تلك القصور الملايينية التي لا تنتهي ولا ينتهي عجبي من روعة وفرادة تصاميمها، وجمال مواقعها والميادين الفسيحة المحيطة بها، والشوارع العريضة المرصوفة بالجواهر الملونة بألوان لا حصر لها، وباقات الزهور وفتن لا أستطيع وصفها، ولا وصف متعة النظر إليها.. يا لها من مساحات وتصاميم.. كأنها خلقت من المشاعر..

يا إلهي، ما زالت أولى مساحات الجنة تسحرنا، وتذهلنا بلا حدود، فما الذي تخبئه مليارات السنوات القادمة؟ أدركت لم أهل الجنة لا ينامون.

أدركت لم أهل الجنة لا يتعبون ولا يملون.. إنها أجساد ومشاعر تليق بهذا النعيم!

وبينما كنت أرتب حفل استقبالها، إذ بها تشرق من جديد.. مركبتها تقبل كالفرح، وشعرها الذهبي الراقص كأشعة الشمس يبشرني بالمزيد..

عادت وبصحبتها بعض صديقاتها الفاتنات، وبصحبتها قلبي الذي لا أدري أين كانت تتجول به..

اتجهت نحو طريقها أريد الاقتراب ورؤيتها عن كثب.. أريد التعرض لقلبها، لكنها مرت بجانبي ولم تعرني اهتماماً، أو حتى تنعم بالتفاتة.. أشاحت بوجهها، لتخفي ابتسامة أفلتت من ذلك الثغر الساحر، لكنني رأيت قدراً زاد أنوار الجنة من حولي، وزاد من أملي..

خفت أن يسبقني أحدٌ إلى قلبها، فعشاق مثل هذه الفتنة بعدد أنفاسها العطرة.. بعدد ألحاظها القاتلة، فقررت اقتحام أهوالها والفوز بها مهما كانت التضحيات..

آه ما أجمل الجنة والتضحيات من أجلها!

ناشدت وصيفتها: أرجوك.. قولي لها: إني أريد أن تسمع مني مباشرة، ولها أن تحكم بنفسها، وسأرضى بحكمها.

ذهبت ثم عادت مبتسمة..

لقد سمحت لي بالدخول، فاجتاحني الفرح.. نظرت إلى هندامي فوجدته جديداً، كلحظة إخراجه من خزانته.. ما أروع ملابس الجنة وثيابها!

تأملت جسدي، فإذا هو يشع نضارة ونظافة وعطوراً..

ما أبهى أجساد الجنة وأنظفها وأعطرها! لو مرت هذه الساعات الطويلة المفعمة بالانفعالات، والخوف الممتزج بالفرح والخفقان، والدوران المجنون.. لو مرت بجسد دنيوي لتحول إلى جثة لا تطاق.

بدأت بترتيب مظهري، لكنني لم أستطع تنظيم خفقان قلبي وحماسي، فقلت للوصيفة: هل هيئتي مقبولة؟

أمالت كفها ورأسها، وهي تبتسم، وتقول: لا أظن أنها ستقاوم هذه الوسامة والأناقة وهذا الجمال على الرغم من جرأتك وتهورك.

طلبت منها أن تدعو لي بالتوفيق..

دلفت وكلي وله.. كلي خجل ينظر إلى الأرض.. كنت أخشى عواقب النظر إليها من قرب، فحملت خطواتي الخجولة نحوها، وعندما بدأت برفع نظري إليها، بدأت هي بالنهوض من كرسيها النوراني.. نهضت كشمس تترك هالتها في كل مكان تحل فيه..

نظرت إليها فإذا حياة جديدة تغمرني..

يا إلهي، ما أبهاها وأجملها.. ما أعظمها في نفسي..

يا إلهي، أمن نور الجنة خلقتها، أم من سحابها ونداها، أم من زهرها وشذاها؟

أي قلب يحتمل ما أراه بعيني؟

أسكرتني.. أخذتني.. سافرت بي.. طوفتني مسافات أكثر مما أحلم وأحتمل..

لم أعد أشعر بخجل أو تردد.. وجدتني أهيم في عالم من الشغف والوله لو دلفه أهل الدنيا لأردى قلوبهم، وأذهل عقولهم عن كل ما لهم وما حولهم..

وجدتني رهين فتن تتنافس في احتلال قلبي..

عيناها القاتلتان.. أم وجنتاها، أم ثغرها، أم شعرها، أم قوامها.. أم نعومتها.. أم ثيابها.. أم تلك العطور التي تتضوع حولها.. وتشع من ثيابها وجسدها وشعرها وأنفاسها.. أم صوتها الذي يسكر سامعه.. أم بقية كنوزها وأسرارها التي بدأت تعيد احتلال روحي من جديد..

كانت جنة أخرى ونعيماً آخر..

كانت فردوساً قبل الفردوس..

كانت خمراً يشربني حتى أغيب..

أنستني ما حولي..

أنستني الكلمات..

أنستني كل حروف الدنيا..

إلا الآهات..

أنستني كل تقاليد العشق

ومراسيم استقباله..

أنستني كل جراح الماضي..

كل الماضي..

أنستني أبهى الساعات..

ومحت من ذاكرتي..

أحلى الأيام وأتعسها..

أنستني كم يأخذني ولهي..

عبر الواحات..

عبر بحور الشعر

ورمال الشعر

وأودية الشعر

وهضاب الشعر المرتفعات

أنستني أني خضت بحوراً أخرى..

بحثاً عنها..

بحثاً عن حب يسرف في الطعنات..

يغرسها بين ضلوعي..

أنستني كل تجاعيد الدنيا..

وشباب الدنيا..

أنستني ما طعم السنوات..

أميرتي،

يصرفني سحرك.. يعطفني..

يجعلني أهذي..

ينسيني الكلمات..

أميرتي،

من أنت.....؟

أنت أكثر من حلمي..

من أملي..

من خططي المجنونة..

أميرتي،

أنت أكثر استبداداً

أنت أكثر طغياناً..

وأنا.. أكثر ترحاباً بالمعتقلات..

اقتربت مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب عاشق.. طال صمتي وطالت سكرتي..

تنهدتْ تنهيدة، فشعرت بريح مسكرة تقتلع أعماقي..

وبعد أن هدأتُ قليلاً قلتُ لها اعذريني:

فقربك والخلد ماذا أقول   وماذا لدى الشعر حتى يقول

أأنت من يقول هذا؟

قلته في الدنيا وأعيده اليوم.

ولمن كنت ترسله؟

لمن تكرم بحملي إلى حديقتك الغناء، والمثول بين عينيك الفاتنتين.. لمن أنعم علي بالحديث معك.

سبحانه ما أكرمه.. ليتني كنت أعلم.. ليتني كنت أرد عليك.. ليتني عشت في زمنك وقرب خيامك!

لأن لم أَرَك وأنعم بقربك إلا أن حلمي بك كان أجمل الأشياء.. الأشياء الفاتنة التي تشرق عند المغيب:

عند المساء وعندما تأوي الطيور روحي لروحك مثل أسراب تثور

روحي لروحك مثل أسراب تثور الشعر يهمس بي وعيناك الشعور

ليتني كنت أشعر بها في تلك الدار.

ما أكثر ما تتحدثين عن الدنيا.. اطمئني.. لم أكن أبحث عنك في الدنيا.

وهل أنا إلا من فتيات الدنيا؟

ما لي ولهن.. كنت أكتب لهذه اللحظات.. كنت أعيشك هنا لا هناك.. كنت أهيم بهذا السحر القاتل أمامي.. كنتِ بعض إيماني بالغيب الذي يملأ روحي.. بالجنة وبوعد الله وكرمه.. كنتِ دعاء وأمنية أرجو أن يتحقق باقيها..

وهل تحقق أولها؟

أنا أعاني الفناء في أنوار أولها.. رؤيتك أولها، وأنا أنتظر باقيها، وأنا أثق بقلبك الأبيض.

وما الذي يجعلك واثقاً؟

ثقتي برحمة ربي...

أشعر بأنك آفاق أرف لها...

أشعر بأنك أعماق ألوذ بها.. وأغرس فيها رجاءاتي..

فيك أرى جزراً لا أنت لا أحد يرسو بساحلها غيري ويعرفها

فيك أرى مدناً شيدتها بيدي مازلت أملك ما فيها وأحكمها

قد تبحرين وأغلال الشقا معك أو تحشدين جنوداً لا حدود لها

أو تجزلين لمن يهديك بعض دمي أو تغلقين حدود الأرض أجمعها

لن تعثري أبداً كوني على ثقة أعماقك لجج كالموت أحرسها

ابتسمت ابتسامة قربت مسافات كنت أحسب عناء اجتيازها، ثم قالت: لم تكمل بيتك السابق.

أي الأبيات؟ سحرك أبيات تشرب أبياتي؟

قالت وهي تقتلني بابتسامتها الخجولة: البيت الذي تذكر فيه قربي.

هي أبيات تنعتق من الجسد ولغاته.. كلمات تودع المرأة (الجسد) نحو الأميرة (الروح) الخالدة.. قاتلت حتى حررتك من جسدك.. حررتك فهامت روحي بروحك في فضاءات الأمن الذي لا يعرف الخوف، والزمن الذي لا يعرف التوقف..

أحلم معك بالوله الذي لا يشبع من المزيد.. ألغيت حسابات الجسد وفتنته ولغته.. تحررت من قيوده، فرفت روحي معك هنا..

رحلت وأنت دروب الرحيل ... وأنت المحطات لي والدليل
أتوق إليك كحلم جميل ... لعينيك للشعر عند الأصيل
فأنت متى ما علوت السحاب ... وأنت إذا ملت شوقاً أميل
وعند اكتشافي لكون أراك ... رسمت لقلبي مكان المقيل
مرافئنا حين ننفي الحدود ... وحين نشق سماء العويل
وحين تجاوز أحلامنا ... ذرى الشمس والنجم والمستحيل
تزين إذا ما ابتسمت الحياة ... وينزاح عني عناء ثقيل
لروحك أنسام عطر تفوح ... تهب فأشقى بقلبٍ عليل
تسافر تسرح بي كالدليل ... وتبحر بي في هدوء عليل
إلى الحلم نحو السما والخلود ... أراك نديمي بظل ظليل
سأشرب من راحتيك النعيم ... ومن شعرِك العذب أروي الغليل
لغاتيَ تنهار عند اللقاء ... حروفيَ لا تستطيع الوصول
فقربك والخلد ماذا أقول ... وماذا لدى الشعر حتى يقول
تموت الحروف وتحيا لك ... حروف وشعر جديد الأصول

أنت روح عشت عالمها.. عشقت الرحيل على سحابها، والسفر في آفاقها التي لا تكف عن الهتاف لي...

تحـول غيابك إلى حضور.. تحول صمتـك إلى حروف لا يقرؤها غيري.. امحت الفواصل والمسافات بحضرة الحب.. حبك نافذتي التي أطل منها، فأشعر بأنوار الجنة وألوانها تغير عالمي وتبهج دنياي..

كان الشغـف بـك بوابـة تصلنـي بـالله، فأهيم بالمرور بهـا.. بوابـة أضأتِها بالتعلق برحمة الله...

كنـت أحتسـي العفـاف وأحتسبـه، فأفـوز بـك في الأحـلام والـرؤى، حيـث أكلمـك وأسير معـك.. أتخيلك في نهايات الطرقات وعلـى أبهى الشرفات وفي أجمل المركبات..

كنـت لا تجيبـين.. كنـت فقـط.... تشيريـن إلى أبـواب النعيـم، فأركض نحوها..

وها هو النعيم

وها أننذا

وها أنت يا شمساً تضيء عالمي..

ويا نغماً

تغلغل في دمي

ويا أحلى مساءاتي

ويا بدر السماء وأنجمي

وها أنذا...

في قصرك الذي يزين الخيال

تُسكرني سموك

كخمرة النعيم

تطوف بي جلالتك

ككوكب من العطور

وها أنذا

أهيم في جلالتك

ورغم أنني لم أشرب الخمور

أحس أنني مخمور

بوجهك

بشعرك

بصوتك

بنفحة العطور

وها أنا في جنتك

قد جئت أعتذر

أجر نحوك

ردائي المغسول بالخجل

نفضت عن حقائبي الغبار والسفر

وشوقي العظيم.. لست تعرفينه

جاء يعتذر.

أقف على أعتابك.. متأهباً للتكفير عن جرأتي وتهوري.. سامحيني، فلقد رأيت ما لا صبر لي عليه..

سامحيني، فاللوم على قلب يلوذ بالفرار مني داخل قصرك..

لا تغلقي بابك دوني.. أرجوك.. لا تغلقيه عني، فإنني...

قاطعتني بتنهيدة أخرى.. وضمت أهدابها على دمعة تُبلل وجهاً لا ينفع سحر السحرة في الصرف عنه، فتوقفتُ رأفة بحالي.

رفعتْ رأسها فأمطرت السماء في قلبي.. ونظرت إليَّ فغاب سواها من الخلق.. وتحدثت، فتحول ما حولها إلى باقات ورد..

وتماسكت وأنا أنتظر النطق بالحكم.

قالت وصوتها الساحر يعبث بقلبي: هل تقسم بمن جمعنا في هذا النعيم، إن قلبك هو الذي يتحدث وليس جمالي؟

لو كنا في الدنيا لأقسمت..

وما الذي يمنعك الآن؟

لا شيء سوى أن جمالك اليوم ينافس حلمي بك.. جمالك روح أخرى، وروحك جمال أبهى.. أنت كمال أبدعه الله.

أو تريدينني أن أقسم زوراً.. أو تريدينني أن أظلم في الجنة؟

افتر ثغرها عن بسمة أعادت الحياة والأمل ليحتفلا من جديد، ثم قالت: ويحك.. بوحك وكلماتك ترغمني على أن أعطيك مفاتيح قلبي.

صرخت وقفزت من الفرح.. أصبت بالجنون.. ملأت قصرها بالصراخ، ودون شعور قذفت بها من خصرها النحيل في الهواء.. فارتفعت كفراشة على الرغم من طولها الفارع، ثم استعدتها، فسمعت ضحكات رفيقاتها خلف تلك النوافذ..

خجلتُ واعتذرت عن تهوري مرة أخرى، وعن فقدي لشعوري، أما هي فتوهجت وجنتاها خجلاً وحمرة وفتنة وهي تلتفت إلى رفيقاتها متوعدة..

تذكرتُ نعم الله التي تغمرني.. ما أجحد الإنسان عندما يجد بغيته..

هويت ساجداً لله وشاكراً.. سجدت لله طويلاً... ثم نهضت لا أدري ما أقول.. تزاحمت الكلمات لتهنئتي فلم أعد أعرف كيف أصافحها، أما هي، فقالت وهي تضحك من لغتي المجنونة:

مهلاً .. مهلاً أيها الجنون العذب.. أليس هناك من ينتظرك؟

ومن سواك؟

ابتسمت وأمالت سبابتها نحو البوابة، فإذا صاحبي..

ضربت رأسي براحة يدي.... وقلت: سيقتلني لا شك... يا لهذه الجنة كم تلهي.. كم ينسي بعض نعيمها بعضاً.. ليتك تتجاهلينه وتسمحين لي بالبقاء، فهي المرة الأولى التي أراك فيها..

وصاحبك؟

ستتكفل الجنة به.. أنت تنتقمين مني بهذا التصرف...

لم تَرَ شيئاً من انتقامي ونقمتي.. نحن في الجنة ولن يفوتك شيء، ولا داعي لأن تعود.. ستجدني في أي مكان شئت، فالجنة كلها.. الجنة أجمل أماكن المواعدة، وأنسب أوقات المواعيد.. انطلق، فلقد شغلتني عن رفيقاتي كما شغلتك في الدنيا.

كما تشائين... لكن لا تنسي أن تعتذري بالنيابة عني.

ودعتها.. وأنا أسير إلى الخلف ببطء وسعادة وشوق، فهي أجلُّ من أن ألتفت عنها وهي أمامي.. كنت أمني النفس؛ علها تعيد النظر في قرارها، وفجأة سحرني صوتها: لا تنسَ إحضار بعض القصائد.

سمعتها جيداً، لكن مجرد ندائها كان مبرراً لأن أرجع، لأواصل الهيام بتلك الفتنة..

كنت أريد أن يرتوي سمعي وبصري منها، فأزداد عطشاً وشوقاً وهي أمامي، فكيف ستصبح حالي إن تركتها الآن؟!

رجعت وكلي رجاء أن تسمح لي بالبقاء، فقلت لها: هاه.. ماذا تقول أميرتي؟

أعادت ما قالت وهي تغالب ضحكة تكاد تفلت منها.

فقلت لها: هي كثيرة منها ما تحبين، ومنها ما قد يغضبك، وهذا ما لا أريده.

أحب سماعها بأي أسلوب وبأي لغة شئت.

أنت لغتي.. ولغتي هي أنت:

لغات الشمس

لغات القادم المجهول تكتبني

وتأخذني

خلال الغابة العذراء

أخوض خلال الأحرف المسحورة الأفق

ممراتي وأروقتي

وأجوائي وأجنحتي

بأوردتي

فتاتي ســاحل وهواء

وعيناها رحلتي وغدي

ومن أهوى

من التاريخ تبعث بي

من التوحيد والأزل

ومن وحي شجي ساحر وندي

لأبقى دائم الترحال

خلال الشارع المفتوح في الأبد

ستجدني ألوح لك بمنديلي على ذلك الشارع قريباً.

تركتهـا، وأنـا أقتلـع خطـاي مـن قصرهـا.. لم أكـن أشعـر بالمرارة، ولا بالحـزن، ولا بالحرمان.. إنها أحاسيس جديدة لا تعرفها قواميس الدنيا ومشاعرهـا، وبعـد خروجـي من بوابتها لم تكف عـن النظر، ولم أكف عن التعلـق بهـا، ولم أشعـر إلا وصاحبي يحملني ويطرحـني على عاتقه وهو يبتسـم، ليقذف بي على مقعـد السيارة، ولما ركبنا واقتربنا من الانعطاف في الطريـق كانـت متسمرة في مكانهـا، حتى غابت عن ناظـري، لتعود إلى التجوال داخلي من جديد..

سرنا في طريق لم أتأمله، فقد كنت مغمض العينين ملقياً برأسي إلى الخلف.. أعيد وأعيد تلك اللحظات التي لم أتوقع عشر نعيمها.. يا ألله ما أجملها وأرقها.. يا ألله ما أطهرها وأنقاها وأعذبها.. كانت لحظات ملكني الشغف بها والأمل بتكرارها.. كنت أكلم نفسي.. أبشرها.. أصرخ بها، فقال صاحبي: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.(الأحزاب: آية ٢٢).

تلا رفيقي تلك الآية – الحقيقة، ثم تركني هائماً في سعادتي.. غارقاً في سكرتي، ولما طال غيابي قال وهو يستدعيني ويضع كفه على كتفي: لا عليك.. لو كنا في الدنيا لقلت ستراها حتى تمل منها. أما هنا، فأقول لك: ستراها حتى تزداد شغفاً بها كلما كلمتها وكلمتك، إنها لحظات الفراق المحفزة على المزيد، ألم تقل لي إن المحبين كلما عادوا إلى محبوباتهم في الجنة شعروا أن جمالهم وحبهم قد ازداد، فيقولون: (والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً. فيقولون: والله وأنتم لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً) ترى هل للجمال سماء في الجنة؟

وجدتها أجمل مما كنت أحلم، وأسمى مما كنت أدعو وأرنو.

كيف وصفتها وأنت لم تَرَها؟

أنا لم أكن أصفها.. وصفها يعني أنني أتعامل مع الجسد، وأشياء الجسد.. كنت أعيشها وأومن بها.. إنها وعد الله الذي كنت أنتظره بشغف.. كانت روحاً تغمرني، فأشعر بها كما أشعر بالحرارة والبرودة.. كما أشعر بالحمى.. كانت سموماً يلفحني أحياناً، ونسيماً ينعشني أخرى، ومهما كان لافحاً أو منعشاً أشعر بحاجة إلى تنفسه.. إنها أجواء تتحول إلى

قصائـد، وقصائد تتحـول إلى أجواء.. كان الحلم بها أشياء كثيرة حميمة ومريرة.. كانت روحاً تجوب هذا النعيم، فأحاول اللحاق بها...

وبكلمة واحدة منها أصبحت لك وأصبحت لها.. ما أروع الجنة.. ما أيسر تحقق الأحلام فيها!

يـا ألله، كـم أنـا محظوظ.. كم أنـا سعيد بالوصول إلى قلبهـا.. أعجز عن وصف مشاعري يا صاحبي..

أنـت ترغمنـي علـى التحـدث عـن شيء أحمـد الله علـى نسيانـه.. في تلك الدنيـا الموجعـة كانت لي أميرة، لكن أميرتي كانت حقيقة وليست دعاءً أو حلمـاً كصاحبتـك، كانت من الجليـد.. باردة كالموت، وكأن الموت خمارها.. كأن الموت أساورها وفساتينها المفضلة.. كنت أتمنى تعذيبها، فأقول:

ليتـــني أعـــرف دربـــاً ... مـــن دهـــاليـــز الحـــياة
يـوصـل الجـمـر لقـلـب ... شـــاحـب مـثـل الـرفـات
بـــــارد دون شـــــعـور ... مـومـــيـاء كـالمـــــــوات

أحيانـاً تتبدى لي صخـرة تتلاشى عليها مشاعر من يحبها، فأرى شعري يتلاشى على تلك الصخرة، وهو يبحث عن مشاعرها التي لا وجود لها.. كأن شعري ومشاعرها لا يلتقيان إلا ليفني بعضهما:

كاصطدام الموج بالصخر العنيد ... وانطفاء الشمس عن عزف الحياة

أحياناً كانت تخيم علي كمأساة، فأخاطبها:

جذور الليل أنت قد حملتيها غرزتيها كأسياف على فجري
هموم كل أحرفها كتبتيها على الأصداف والأمواج والصخر
وتهت ليت شعري أين قد تهت قتلت وارتحلت دون أن أدري
عناويناً أراك لوحة محيت شوارع تمحي فيها خطى عمري

قاموس للقسوة كانت...!

هي أحياناً لغة لا قاموس لها ولا أحرف.. لغة من الألغاز أعيشها دون أن أفهمها، وأصرخ بها دون أن تسمعني:

كأنك لا تعرفين الشعور كأنك صخر رماد رفات
كأنك نوع من الجامدات كأنك أقصى نقاط السبات

ألهذه الدرجة؟!

وأكثر.. كانت زنزانة عذاب لذيذة.. كنت أعتقد أن لها قلباً من الصخر.. طاردته، وأخيراً اكتشفت أن ذلك القلب ليس موجوداً.

وأين أنت عن الدعاء؟

أنا لست مثلك.. كنت أريدها هناك في الدنيا لا غير.

ألم أقل لك: إن الدنيا أعجز من أن تمنحك كل ما تريده.

أجل.. يبدو ذلك، ويبدو أنها استراحت من ظلي الثقيل عليها.. كنت

أتمنى التخلص من التفكير بها.. شاغلت نفسي عنها حتى كدت أنساها.

ماذا لو رأيتها؟

لا أريد أن أفكر في ذلك.. كانت قاسية كالحجر.. كأنها ليست من البشر..

كانت أقسى من أميرتك بمراحل.

عفوك.. فأميرتي:

أميرتي

تُسكِنني بعض الغيمات..

غالبا..

تحملني كملاك..

غالباً..

تنداح في شوارعي..

تنساب عبر خافقي..

لتشعل الحياة..

عفوك، فأمـيرتي:

مـــلاك تجوب شغاف الفـؤاد ... وتغســـــل أحـــزانه بالمطـــرْ

وتشـــرع أبوابه للصــــــــباح ... ببعض الحديث وبعض السور

تشـع كشـمس إذا أقبلـت ويعبق منها حـديث الزهـر
تقـلني في مركـب من دلال وتأخـذني نحو إحدى الجـزر
وعند المسـاء تضيء النجوم شـموعاً وتبسط ضوء القمر
فترقص حولي كل النخيل شـموعاً وتبسط ضوء القمر
وتأخـذني تحت أهـدابها فأغفو كطفل وأنسى البشر

يـا صاحبـي، كنت تريدها في الدنيا فقـط، والدنيا ليست بيدك ولا بيدها، ولـما أقفلـت أبوابها دونـك ودونها حدقت في تلك الأبـواب حتى الرمد.. لو رفعـت رأسـك، لرأيتها تطل عليك من شرفـات الجنة ونوافذها، لكنك لم تَرَهـا إلا مـن خلال ثقـوب الدنيا، ولو التفت إلى غيـر ذلك الباب الموصد لرأيـت الطريـق إلى النعيم نعيماً آخر.. مهما كانـت أشواكه حادة، ومهما كثرت حجارته وأخاديده.

أتفهم ذلك الآن وأعيشه، لكن كيف أتفهمه في الدنيا؟

لـو تركـت الإيمـان يأخـذ بيـدك في ذلـك الطريق لشعـرت بمتعـة السفر ولـذة المعاناة، لأخذك في ذلك الطريق إلى رحمة الله، ورحمة الله ستتولى إيصالـك إلى قصرهـا هنـا... لـو سمحـت للإيمـان أن يمـدك بالخرائط وإحداثيـات الطريق، ويحمـل قربتك وزادك وأمتعتـك لفعل بكل سرور.. لرأيته يربت على كتفيك كلما طالت المسافات.

أليست الإثارة ألا يصحبنا الإيمان في طريق الوله والحب؟

الإيمـان يغيـر مسـار الرحلة كلما أغلق مطـار أو مينـاء أبوابه في وجهك،

فيمنحك من المواني أضعاف ما يغلق.. الإيمان يفتح لك طرقاً وشوارع أخرى.. اسلكها ستجد أميرتك في أبهى حللها وفتنتها تنتظرك في نهاية ذلك الحلم، وستعثر على بقية آمالك غير بعيد عنها.. فقط اصطحب إيمانك معك دليلاً.. اصطحب الدعاء... الدعاء الذي يحقق المعجزات.. الدعاء الذي يسعفك كلما عجزت عن حيازة ما تتمنى.. الدعاء يعلمك أن كل شيء ممكن، وكل شيء يمكن تحقيقه والحصول عليه، إذا انطلق الدعاء من أعماقك استمتعت به، وهو يبدأ بأخذك أولاً في جولة في داخلك، ليطهرك من أشياء كثيرة تعيق انطلاقك وإبداعك.

وما تلك الأشياء؟

أولها الحسد.. الحسد... تلك الحرائق التي تأكل كل شيء.. إذا رأيت مركباً فارهاً أو علماً أو جاهاً أو منصباً أو رصيداً ضخماً عند غيرك، أو قصراً منيفاً، أو ابناً صالحاً، أو حليلة كاملة المحاسن، أو أي شيء مما في أيدي الناس، وتتمنى أن يكون بين يديك فأمامك خياران:

إما أن تعض شفتيك غيظاً وحسداً يشتعل داخلك حتى تتحول إلى رماد وحطام، فلا أنت استفدت ولا حتى استرحت.

أما الخيار الآخر، فهو التبسم والدعاء لهم بالبركة، ثم التوجه إلى الغني الذي منحهم ومنح غيرهم.. إلى من لو أعطى كل شخص ما يتمنى لم ينقص من ملكه شيئاً، إلا كما تأخذ الإبرة من المحيط.. هذا الدعاء سيريحك من أثقال كانت تعيقك عن الحب والعطاء والبذل، وسيمنحك حب الآخرين.. (ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)..

آه كم كنت أشفق على أعين تكاد تصاب بالعمى لكثرة ما تحدق في نعم قليلة بين أيدي الناس، ولا ترفع طرفها لترى نعماً لا حصر لها بين يدي الله..

كم كنت أشفق على من أغناه الله بكنوز الإبداع والمواهب، وهو يتسول بذلك كله على أبواب مخلوق كل الذي يملكه دراهم في جيبه... كنت أردد لهم ولي: (اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك)، لأنك قد تحتاج فتستجدي، وهو مباح وحلال.. ولكن عندما تقول: (وأغنني بفضلك عمن سواك) تتذوق معنى التحليق في حرية لا مثيل لها وأنت تشعر أن مصدر نعمتك من السماء.. تشعر بقمة التوحيد وأنت تتعلق بإلهك وحده، وتطلب منه وحده.. أتراه سيخيب ظنك أو يرد يديك..؟

أتراه لن يرحم دمعاتك ومناجاتك وتوسلاتك؟

أنا لا أتحدث عن أم رؤوم، أو أب حنون، أو ملك عادل أو ثري عطوف.. أنا أتحدث عن إله كريم لا حدود لكرمه.. إله يقول:

(أنا عند ظن عبدي بي..

وأنا معه حين يذكرني:

إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي..

وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ هم خير منهم..

وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً..

وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً..

وإن أتاني يمشي أتيته هرولة).

أتحدث عن إله كريم يقول: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني..

فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر).

أو تحسبني أحتاج إلى أحد مع هذه الكنوز التي لا حدود لها، وهذا السخاء الذي لا يعرف التوقف!

أو تحسبني أتعلق بأحد مع هذا الكريم الذي لا يمل من العطاء؟!

أتراني أنظر إلى ما في أيدي الناس الفقراء، أو الملوك والأمراء، وهو الذي يبسط يديه لي في الليل والنهار..

أو تحسبني أنظر إلى أبواب موصدة، أو طرق مغلقة والسماء كلها طرقاتي.. أأدركت كم كانت قريبة منك؟

صمت صاحبي ولم يحر جواباً.. كان يفكر فيما فاته، لكنه في الجنة التي أنسته كل مراراته...

كان حديثنا يتدفق، بينما كنا نبحر في شوارع الضاحية ذات القصور الملايينية، لم نَرَ قصراً يشبه قصراً، ولم نَرَ قصرا بشعاً أو قبيحاً، كانت القصور والميادين والحدائق والطرقات الفسيحة في مهرجان تنافس على الجمال..

وفجأة نبه صاحبي شيء لم يستطع مقاومته، فقال لي: أعلم أنك لا ترغب بذلك، لكن دعنا نتوقف في الحديث عنهن هنا، فأنا أرى شيئاً غريباً ومدهشاً.. أرى ألواناً وأنواراً تومض من بعيد.. هناك هل تراها..

ترى هل هو احتفال؟

لا أدري دعنا نسأل أحداً.

تسأل أحداً! هيه.. أنت!.. لم نعد في الدنيا! لا تخشَ الضياع بعد اليوم، فالضياع من أجمل الأشياء في الجنة.

أسرع نحوه إذاً.

بل دعني أبطئ لأتأمل القادم وأحتضنه.

كما تشاء... يا إلهي ما هذا...؟ انظر إن الأنوار والألوان تصدر من ذلك الجبل؟

اقتربنا، فقال صاحبي: إنه ليس بجبل إنه أضخم وأرفع.

يا لروعته إنه بناء.. يا إلهي، ما أبهاه وأروعه وأضخمه!

سأسير خلف تلك المركبات المتجهة نحوه.

تحركت مركبتنا خلف مركبات كثيرة جدًّا.. تكاد تزدحم، وتتنافس في روعة تصاميمها أو غرابته في طريق عريض جدًّا ينساب نحوه.

تزداد ضخامة المبنى الألماسي الرائع كلما اقتربنا، إنه يحجب عنا ما وراءه.. كلما اقتربنا شعرنا بالإثارة لدرجة قال صاحبي معها: هل هذا هو جدار الجنة؟

لم أستطع الصبر، فالتفت إلى مركبة تقودها فتاة بارعة الجمال، وبجانبها شاب ينافسها في الحسن مشغول بتسريح شعره وربطه من الخلف، سلمت عليه، وسألته عن هذا الجدار.. وإلى أين تقود بوابته؟

فقهقه الشاب ورد السلام وقال: هذه سوق من الأسواق المليينية.. ألم تمر ببعضها في طريقك؟

فغرت فمي ونسيت أن أشكره، وقلت لصاحبي: يا إلهي، كل هذا العالم الذي أمامنا سوق!

يا ألله.. سوق.. كل هذا الجبل سوق!

هيا لنترك سيارتنا في أقرب موقف.

يبدو أن المواقف في الداخل، فهذا البناء الهائل يبتلع كل شيء.

سرنا قليلاً ثم نهضت من مقعدي.. التفت بكل جسمي إلى الوراء.. تذكرت.. ثم حدقت في الوراء، ثم قلت لصديقي: يا إلهي، تذكرته.

من؟

ذلك الشاب الوسيم.

الذي سألته قبل قليل؟

أجل.. أتذكر حارتنا الشعبية القديمة.

سأتذكرها من أجلك.

أتذكر ذلك الشيخ اللطيف، الذي كان يعمل ضمن السائقين عند صاحب القصر الكبير الذي تحتل مساحته نصف حارتنا؟

أجل (العم... العم...).

إبراهيم.

ومن ينساه.. كان ودوداً معنا.. أتذكر عندما كان يتجه إلى المسجد ونحن نلعب الكرة، فيقول لنا: معي حلوى سأعطيها لمن يصلي.. أذكر أننا كنا إذا أقيمت الصلاة حشرنا أنفسنا بين الصفوف لنكون في مرمى بصره إذا سلم.. كان يقول لنا: إن ربنا عنده حلوى ألذ مما معي، ومراجيح وملاهٍ نلعب بها مجاناً..

سافرت بي مخيلتي إلى شيخ كبير في السن بالغ اللطف، ليس على قدر من الجمال، لكن جمال روحه يزين طريقه عبر ملاعب طفولتنا وهو متجه نحو المسجد، كان رجلاً طيب المعشر واللسان، نقف إذا رأيناه يقود سيارته لنلوح له بأيدينا ونحن نتقافز على جانبي الطريق، فيلوح لنا الرجل الثري بيده ظانًّا أننا نعنيه، ويبتسم العم إبراهيم مسروراً بما يراه دون أن يرفع يده.

كان العم إبراهيم يجالس إمام المسجد ويتعلم منه أشياء، فيحدثنا ببعضها كلما التففنا حوله.. يحدثنا عن الجنة التي نستطيع (التفحيط) و(التطعيس) بسيارات جميلة وقوية لا تعرف سوى التحدي، يحدثنا عن جيوبنا الملأى بالنقود.

كان يقول لنا: الجنة فيها ملاعب مزروعة وملاهٍ مجانية، وليس فيها دراسة ولا واجبات، ولا أمراض، كان يعرف أن تلك الأشياء الأخيرة متساوية تقريباً بالنسبة إلينا.

حدثنا مرة عن نهر اللبن ونهر الماء البارد العذب الصافي، وأنه أبرد من ماء برَّادة المسجد، وعن نهر العسل (آه العسل) هو أكثر الأشياء التي

تدفعني للصلاة ونحن في المراحل الأولى من الصف الابتدائي، عندما كان الفقر يحول بيننا وبين رؤيته حتى..

لكنه لم يذكر لنا شيئاً عن نهر الخمر؛ خشية أن نتعلق به في الدنيا.. كان العم إبراهيم يذوب رقة مع الأطفال، وكنا نسأله عن أولاده ونقول له: نادِ أولادك ليلعبوا معنا، فيخفض رأسه، ثم يرفعها وعيناه تلمعان قائلاً: إن شاء الله.. إذا أتوا سأجعلهم يلعبون معكم، وسأشتري لكم كرات أخرى، وشبكات لمرماكم...

اشترى لنا كرات، واشترى لنا شبكات، ولم يأتِ أولاده، فازداد شوقنا لهم.. كنا ننتظرهم على أحر من الجمر، لكنهم لم يأتوا، وبدأنا نكبر وهم لم يأتوا، وذات يوم رأينا حركة غير طبيعية، وسيارات عند باب القصر الخلفي، وإذا بالعم إبراهيم يخرج منه محمولاً على النعش. سألناهم: من هذا؟ فقالوا لنا: مات العم إبراهيم.

كانت أعيننا تدمع، وهي متعلقة بنعشه، ونحن لا نكاد نصدق ما حدث.

مات العم إبراهيم دون أن نرى أولاده، ودون أن يراهم هو.. ذهبنا خلف نعشه وصلينا عليه، كنا نود لو تمكنا من اللحاق بهم إلى المقبرة، لكن الأمر ليس بيدنا.. لم نلعب في ذلك اليوم ولا من الغد.. كنا نجتمع في ملعبنا الصغير، ونتحدث عنه.. كانت أعيننا معلقة بطريقه؛ عله يعود ليرافقنا إلى المسجد، لكنه لم يفعل..

كنت أبكيه عندما أتذكره وأنا وحدي، ومرت الأيام علمنا بعدها أن العم إبراهيم رحل ولم يرزق بولد، وعلمنا عندما كبرنا سر تعلقه بالأطفال.

انتبهت على صوت صاحبي، وهو يقول: وما الذي جعلك تتذكره في هذه اللحظات المدهشة؟

إنه ذلك الشاب الفاتن الذي سألته قبل قليل؟

لا إله إلا الله.. أحقًّا ما تقول؟

إنه العم إبراهيم، ولكن ليس بلحمه وشحمه ولونه، ولكن بأجساد الجنة وأزيائها.

سأخفف السرعة حتى يلحق بنا.

خففنا من سرعتنا حتى أصبحنا بموازاته، فابتسم وهو يكاد يعرفنا، فقال له صاحبي وهو يرفع كفه وقد قبض أصابعه: سأعطيك ما بيدي إذا ذهبت معي للمسجد.

قهقه العم إبراهيم، وأشار لرفيقته بالتوقف فتوقفت، ونزل من المركبة كالملاك، أبيض كالقمر، قد ربط شعره الناعم من الخلف، كان يلبس بذلة راقية على جسد بالغ النضارة والشباب والجمال. لا تجاعيد ولا شيب ولا حدبة.. تسابقنا نحوه نعانقه ونقبل رأسه ونتأمل هذه الأناقة الحبيبة.

أخذ بيدينا وقدمنا لرفيقته المدهوشة مما يحدث، وقال: أعرفكم على زوجتي الجميلة حالياً.. العجوز سابقاً: أم محمد.

نظرنا إلى بعضنا باستغراب ونحن نقول في أنفسنا: أما زال يحلم بمحمد.

أدرك سر نظراتنا، فقال: انظرا في المقعد الخلفي.

توجهنا نحوه، ولما نظرنا رأينا البراءة والجمال قد اجتمعا في طفل وطفلة يلهوان بلعبة بينهما على مقعد فسيح ووثير.

ناديناهما فمدا أيديهما وهما يبتسمان ببراءة لم نَرَها في طفل من قبل... قبلناهما ولاعبناهما ثم حملناهما.. يا ألله، ما أعطرهما وأجملهما.. غيبتنا براءتهما حتى نسينا العم إبراهيم دقائق.. أخذتنا البراءة والجمال حتى سمعناه وهو يقول: لقد عوضنا الله عن صبرنا وحرماننا، وعدم تذمرنا في دنيانا بهاتين الوردتين.. هل رأيتما أجمل وأعذب منهما في الدنيا؟

إلا أن تكون أنت يا عم إبراهيم؟

لكمني على كتفي، وهو يقهقه، ويقول: كانت حقًّا أيام اختبار مرير بالنسبة إلي، لكن ربي لا يخلف الميعاد.. آه لو رآها المتذمرون الناقمون على أقدار الله، المتبرمون من شظف العيش.

لقد افتقدناك ياعم إبراهيم، وتحولت حياتنا إلى مرارة بعدك.

لا أعتقد أن أحداً افتقدك بعد أهلك مثلنا.

كنتم أولادي وقرة عيني ودعواتي لله كلما رأيتكم تتراكضون في ملعبكم.

مضت بنا الأحاديث والذكريات والطفولة التي لم نستطع التخلص من عذوبتها، وسار الحديث بنا إلى اللحظة التي نعيشها، فسألناه عن هذه السوق فقال: لن أحدثكم عن هذه المعجزة التي سترون أجمل منها.

كأنها تدور، فهل تحتاج إلى صيانة؟

إن الذي أدارها هو من أدار الكواكب والشموس، والأرض التي كنا نسكنها دون أن تحتاج إلى صيانة.

سبحانه ما أعظمه، لقد خيل إلي أنها قطعة من السماء قد سقطت، أو أنها جدار الجنة ونهايتها.

في الجنة لا يتحدث الناس عن الحدود ولا الحواجز، بل عن الانطلاق والإبحار والتحليق، والاكتشاف المذهل الذي لا يتوقف.. سأترككما لتواصلا اكتشافكما.... ولكن بعد أن تسمحا لي باسترداد فلذات كبدي وقرة عيني.

أجل.. أجل كم يصعب علينا تركهما أيضاً.

إذاً إلى لقاء قريب.. تعرفان كيف تصلان إلي السوق؟

بالتأكيد إلى لقاء قريب برحمة الله.

ودعنا شيخنا الشاب، وهو يقف على قدميه باتجاهنا ملوحاً بيمينه، ومركبته تسبح به نحو الدهشة التي نقصدها...

قلت لصاحبي: هل رأيت أعذب من هذين الطفلين وأجمل؟

ما أطيب رائحتهما وأرق أجسادهما.. إنهما نعيم لا يقاوم.. تصور طفولة الجنة براءة لا حدود لها، وعبير لا ينقطع.. إن بكيا فدلال يأسر القلب، وإن ضحكا ففرح للروح.. أطفال لا يحتاجون إلى غيارات ولا لقاحات ولا معاناة.. الطفولة في الجنة نعيم و(إذا أراد المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي).

وبينما كانت المقارنة تشتعل بين أطفال الجنة وأطفال الدنيا، أخذني المبنى وما حوله مرة أخرى...

انظر لقد دخلنا طريقاً مرصوفاً بجواهر لها ألوان السوق نفسها..

واصلنا طريقنا نحو السوق، ولما اقتربنا منه سد الأفق، فلا نرى عن يميننا وعن يسارنا سواه.. ارتفاعه يذهلنا إلى درجة الخوف، فلأول مرة يرى أهل الأرض ارتفاعا لمبنى بالكيلومترات.. مبنى ضخم مكعب الشكل مبني من الألماس الملون.. كان مكونا من أدوار متعددة، أما واجهاته فمقسمة إلى مربعات ضخمة تومض الفواصل الذهبية التي بينها، أما مربعاته، فكان كل مربع بلون..

أما أضلاع السوق فتتجاوز آلاف الأمتار طولاً وعرضاً وارتفاعاً.. ضخامة وإعجاز يشعرك بعظمة مبدعه.. كان أعظم من الجبل، أما المعجز فيه، فهو أن هذا التحفة الألماسية العملاقة والمهيبة.. كانت تدور ببطء حول نفسها بشكل دائري يمنح ما حوله من عوالم ألواناً ومشاعر.

منظر يملأ الإنسان هيبة وإجلالاً لمبدعه، وكأنه كوكب من الأحجار الكريمة.. ودون أن نشعر كانت مركبتنا في المحيط الألماسي الذي يدور مع المبنى.. وشيئاً فشيئاً اقتربنا من بوابات هائلة.. مؤطرة بالذهب بشكل هندسي محكم ودقيق وأنيق، وبالغ الروعة.. كانت بوابات عدة تغريك بالدخول.. لا تدري أي ما حولك أجمل.. هل هو الطريق المرصوف بالجواهر، أم البوابات الفخمة العملاقة الملونة.. التي تشعرك بالدخول إلى جنة أخرى.. كنا نسمع الصخب والأصوات في الداخل وكأننا في طريقنا إلى احتفالية..

دخلنا، فهالنا ما نراه من عوالم ومحتفلين.. يصطف حولنا رجال غاية في الأناقة والبشاشة واللطف.. لا تعرف قواميسهم سوى عبارات الترحيب بنا والابتسام وكرم الضيافة..

صوت عذب داخل سيارتنا الفارهة، يشعرنا بدخولنا محيط السوق، ويعرض خيارات الوصف للمبنى صوتاً وصورة.. من خلال شاشة مصنوعة بشكل أنيق أمام كل مقعد.

وما عليك سوى الاختيار صوتاً، أو بلمس الشاشة، لتنطلق بك السيارة آليًّا نحو المكان أو الأماكن التي تقصدها: فنادق.. معارض.. مسارح.. صالات احتفالات.. قاعات.. أندية.. مطاعم.. مقاه.. صالات عرض.. ساحات تزلج.. ملاعب.. منتديات.. ملتقيات.. مكتبات.. أماكن تعارف وتواعد.. أسواق.. حدائق.. بحيرات وأنهار.. وأشياء جديدة لا نعرفها، ولا يمكن تخيل مسافات الإبداع فيها..

كل ما فيه يخطف العقول والأبصار.. ممرات لا حصر لها، ومصاعد مذهلة الصنع والحركة والمرونة ومراكب عدة وأدوار ضخمة وهائلة جدًّا، وجميلة جدًّا.. كل طابق عالم آخر، وجنة أخرى..

كان الدور الأرضي من الفضة.. أشبه بضاحية لا يسكنها إلا الأثرياء.. تعج بالفنادق بالغة الفخامة.. كانت الطرقات إلى تلك الفنادق من الفضة.. تسير عبرها مركبات في منتهى الأناقة.. منها ما ينزلق انزلاقاً، ومنها ما هو معلق ومنها ما يسير على إطارات ملونة بألوان المركبة نفسها، والتنقل لا يقتصر على هذا، فالقطارات الجميلة تحملك حيث تريد.. هناك أيضاً المقاعد الوثيرة المتحركة بشكل انفرادي، أو جماعي عبر مسارات ألماسية شفافة بالغة الجدة والإثارة.. السير على الأقدام كان لا يقل عنها متعة، ولا يحرمك من كل التفاصيل المذهلة..

أما وجوه المرتادين.. ففتن تتهادى..

المعارض التي تعرض الملابس والأزياء الفخمة والحديثة.. تتناثر بتصاميم جديدة وأنيقة أمام تلك الفنادق، ووسط هذا الطابق، وهناك معارض أخرى للعطور وأدوات الزينة لمن أراد الإسراف في التزين.. كان هناك مكتبات للكتب المقروءة والمسموعة والمرئية.. كأن تريد قراءة قصص من التاريخ.. إنها مجرد أيقونات تشاهدها واقعاً حيًّا يعرض أمامك، حتى لو كانت قصة حياتك وطفولتك.

هناك محالّ لأحدث ما في عالم الموسيقا والطرب، وأخرى لأدوات الموسيقا والرسم والنحت، وغيرها من الفنون..

هناك دور العرض العلمية التي تريك بدايات الكون وتحولاته، والأهوال المصاحبة لها، وعروض عن أرضنا وخلقها، وخلق بحارها وجبالها وأنهارها والحياة فيها، عروض عن آدم وخلقه ونزوله للأرض، وعروض حتى عن الشيطان.. من بداياته إلى انحداره في نار جهنم هو وفرقته المصاحبة له.

عروض تستغرق أوقاتاً لا تصيبك بالملل، ولكن تملؤك بالتسبيح لله، والتسليم بقدرته.. عروض في صالات تحف فيها الخدمات واللطف، والإجابات عن كل تساؤل مهما كان.

وخارج دور العرض تلك ووسط الأنس والاحتفالات، وفي وسط المساحة الهائلة المليئة بتلك الأسواق والفنادق وغيرها.. في وسط تلك السوق الهائلة بهو مفتوح على السماء.. بهو كبير جدًّا.. لا سقف فوقه.. تنساب خلاله مصاعد لا حصر لأنواع الإبداع في تصاميمها واتجاهات حركتها، وشلالات من الأنوار، كأشعة شمس باردة وملونة.. تبعث على البهجة

والانتشاء.. شلالات تلغي الجاذبية، فيصعد الإنسان ما شاء من أدوار، أو يهبط نحو ما شاء من العوالم، دون أن يمسك بشيء.. كان الشلال البشري يتناغم مع شلال النور الهائل في لوحة بالغة البهاء.

هناك أيضا المقاهي والمطاعم التي تزدان بالزوار، وحدائق كبيرة وصغيرة مزينة بنباتات تلائم تلك الأجواء.

زرنا تلك المعارض، واشترينا الملابس والأحذية والكتب وأشياء أخرى، لكننا لم نأخذها معنا.

فقط زودهم باسمك.. اسمك فقط، وهم يتولون إيصاله إليك في أي مكان توجد فيه.. في البر أو البحر أو حتى في السماء.

كنا نظن أن النساء أكثر حبًّا للتسوق من الرجال..

في الجنة كان الرجال والنساء يتنافسون في التسوق، واقتناء أحدث ما ينزل في أسواق الجنة من أزياء.

جولة تدهشنا محطاتها ومقاهيها، وحياة الصخب أو الهدوء الممتزجة فيها.. ارتدنا صالات الفنادق البالغة الإتقان جمالاً وهندسة وبذخاً، وتعرفنا على الآلاف، وسكنا في أجنحتها المرفهة بلا حدود...

رأينا بعض الذين كنا نعرفهم في الدنيا بوجوههم، وبادلناهم الأحاديث والتهاني بهذه الجنة العظيمة.

كان بعضنا يذكر بعضاً بسخاء الله وكرمه ودقة صنعه، فكل شيء حولنا يذكرنا أن الله جميل يحب الجمال، وكل منا يحث الآخر على ارتياد

أماكن سحرته قبل دخول السوق، وينصحه بها، ويصف سحرها وروعتها، فيزداد الحماس، وتؤخذ المواعيد على القيام برحلات جماعية لها، فإذا نظرنا إلى السقف المرتفع فوقنا، أخذنا الفضول إلى صعود الدور الأول (الذهبي) حيث تنتشر أيضاً المحالّ والمطاعم والفنادق والحدائق، ولكن بتصاميم أخرى وذوق آخر، ثم الطابق الذي يليه.. كان كل دور من مادة أخرى أجمل من الذهب والفضة وأعظم، ولا ندري ما هي إلا عند سؤالنا عنها..

صعدنا إلى أدوار بعضها عبارة عن ملاعب وميادين رياضية، ومدرجات للفرجة.. شاركنا في بعض مبارياتها، فألهب حماسنا تشجيع الجمهور لنا، كان الغالب والمغلوب يخرج مبتسماً ومتوعداً بجولة أخرى.

شاركنا في الفرجة على مباريات غيرنا بحماس، وهتاف لم تشهده ملاعب الدنيا، وبخلق تفتقره ملاعب الأرض.

استضفنا وأضفنا.. أقمنا الحفلات الباذخة في تلك الفنادق الفخمة لمن نراه من الأقارب والأصدقاء، وأقيمت لنا الحفلات.. حضرنا حفلات زفاف كثيرة وجميلة، وتعرفنا على الكثيرين.

دخلنا مسارح ومعارض فنية ودوراً لشتى العروض التي نعرفها ولا نعرفها، وكنا كلما دلفنا عالماً لم نفكر في الخروج منه، إلا بعد أن يسحبنا مشهد أو نداء، أو شخص عزيز نراه فجأة يمر بالقرب منا أو من بعيد.

أخذت منا تلك السياحة أشهراً عدة من المتعة، لا ينقلنا من متعتها سوى التحول إلى ما هو أكثر إمتاعاً.

كنا لا نغادر طابقاً إلا بعد أن نمر على كل زاوية فيه.. لذا لم نصعد إلى قمة السوق المذهلة إلا بعد أشهر من الحياة الصاخبة.. بل الحيوات التي تختلف كل منها عن الأخرى..

لم نكن نحمل هم أجرة الفنادق، ولا تذاكر الدخول، ولا مصاريف الإقامة والوجبات والمشروبات والجولات، ولا نفاد المبالغ، أو انتهاء الرصيد، أو انقضاء الإجازات، أو ضياع جوازات السفر، أو عدم امتلاكنا لملابس ملائمة لحفلة أو عرس أو وليمة أو مباراة، أو حتى مسبح، ولا ما ينغص أحلى الأسفار ويقلبها إلى نكد مرير، كالأمراض والخطف والسرقات والمنع والشجار، والقتل والغش والخداع..

جمعت تلك المصطلحات، ورميت خارج أسوار الجنة..

كنا سكارى بما نراه ونلمسه ونعايشه من حب وإخاء، وبشاشة ومرح ومزاح وجد وإثارة.. كنا في حالة تلاشٍ وامحاء بالنعيم.. كنا نعيماً يتفانى في النعيم.. كنا نعيماً يتناثر نحوى أقصى نقاط النعيم.

ثم صعدنا...

صعدنا سماء المبنى وقمته وروعته.. كنا لا نرى الناس إلا بالمناظير المقربة لبعد المسافة.. ومن شرفات السوق..

كانت روعة الجنة من حولنا تحولنا إلى عقول وقلوب مسحورة.. لا ينبض فيها إلا آهات تسبح لخالق هذه الروعة.. حدائق مهولة، وبحار وبحيرات ممتدة تتلألأ من بعيد، وأنهار كخيوط الفجر، وملاعب وميادين فسيحة وملونة، ومتنزهات وقصور لا حصر لها، ومراكب تسير، وأخرى تبحر،

وأخـرى تطير في الفضاء، وحولنا ألحان عذبة، ووجوه تسحرك بجمالها وفتنتها، وعطور مسكرة تعزفها كل ذرات الفضاء.

لا شيء إلا التسبيح يعبر عن مشاعرنا التي أتعبتنا بمطاردتها... مشاعر لا يمكن أن تتحملها قلوبنا وأجسادنا التي عشنا بها في الدنيا.

على تلك القمة انتقلنا من مكان إلى مكان.. كانت سماء المبنى أشبه بمدينة فضائية.. تناولنا ألذ الأطعمة المعروضة، وشربنا أنواعاً من المشروبات التي أضفت على الأجواء أجواء أخرى، وتعرفنا على بعض الناس وكسبنا صداقاتهم. واسترخينا ولعبنا ومرحنا.. كان عالماً علويًّا يخيل لمن يسير عليه أنه الفردوس..

يا إلهي، ما الذي تخبئه لنا الجنة..

يا إلهي، كيف سنصمد أمام المستقبل..

كان هناك من ينزل من سماء المبنى بالمناطيد الملونة.. وكان هناك من يحلق منها بطائرات صغيرة.. وهناك من ينزلق منها عبر مجرى مائي متعرج وآخر مستقيم نحو بحيرة ساحرة، وهناك من يفضل القفز نحوها والسباحة في الهواء.. وهناك جسور ألماسية وذهبية وفضية للسيارات.. كانت مشاهد احتفالية تفني أعمار الدنيا دون أن يتطرق الملل منها..

أما نحن فمكثنا طويلاً.. طويلاً.. حتى رأينا من بعيد طريقاً مستقيماً يشق مساحات ملونة أخاذة، فقررنا اكتشاف ذلك الطريق، ولما أردنا النزول انحدرنا مع أحد الجسور..

يا إلهي، ما أروعه من شعور أن تنحدر من على ارتفاع كيلومترات تحتضنك الروعة والجمال والسعادة والمفاجآت.

وصلنا إلى الطريق المنشود، ولا ندري ما محطتنا المقبلة..

ما أحلى الانخطاف والضياع في الجنة، لم نعد نريد خرائط ولا إحداثيات، نريد فقط أن نمارس الضياع تلو الضياع، والاكتشاف تلو الاكتشاف.. كنا نريد التماهي بنعيم يكاد يقتلنا من السعادة.. كنا نعيش اللحظة وكأنها تمتد بلا نهاية، وكأنها تسكرك عما قبلها وما بعدها.

انطلقنا في طريق معبد بحجارة كريمة نقية البياض دون لمعان، وتترابط فيما بينها بخيوط من الأحجار الكريمة الملونة، الطريق طويل جدًّا، ومستقيم لدرجة لا نستطيع أن نرى نهايته.. طريق طويل.. طويل.. مئات الأميال وأكثر.. طريق يشق مساحات هائلة من أمواج الورد والزهور إلى نصفين.. عندها تذكرنا أصحابنا والأيام التي كنا نخرج فيها خارج مدينتنا.

قلت لصاحبي: أتذكر تلك (العصريات) وكيف كنا نتمتع بالجلوس على تلك الطرقات الأسفلتية السوداء القاسية، وبين تلك الأراض البور التي يحدق فيها وفينا تجار العقار بشراهة.. لم نكن نرى حولنا زهرة أو حتى خضرة.. كنا لا نخرج أيام الصيف إلا قريباً من الغروب لشدة الحرارة.. قال صاحبي: لن نعبر متراً واحداً من هذا الحلم حتى أجمعهم.

أوافقك، على الرغم من أني لا أكاد أصبر عن السفر في هذا الربيع الفردوسي وألوانه وعبيره.

قمنا برحلة بحث أكثر إثارة مما سبق، حتى تم لنا ما نريد، وفي النهاية اجتمع الشمل عند مدخل من مداخل تلك الساحات الهائلة من برية من براري الجنان...

كان العناق طويلاً والفرح أطول، ثم انطلقنا، وانطلقت معنا فواصل المزاح المعهودة..

كانت حولنا ملايين الأميال وأكثر من الأعشاب الملونة، لم يعد العشب أخضر فقط كما في الدنيا.. كان بكل الألوان، ولم يكن صامتاً كما في الدنيا.. كان لكل لون عبيره وعطره المختلف، والمنافس لما قبله وما بعده، ولم يكن العشب وحده هناك، مساحات أخرى من الزهور والورد.. هناك المساحات الهائلة التي تحمل لوناً واحداً، وأكثر منها بلونين، وأكثر بثلاثة..

ملايين الأميال، ونحن لا ندري أيها أجمل.. أيها أكثر سحراً.. أيها أكثر إثارة.. لا حدود فيها ولا إقطاع، ولا اغتصاب ولا حرمان، ولا منع ولا طمع ولا جشع، فالمساحات أكبر من الخيال، والنفوس من الكرم والجمال بحيث تنافس ما حولها.

كانت السماء.. السحاب الملون.. أسراب الفراشات والطيور الصغيرة والكبيرة الملونة على جانبي الطريق.. تعزف لحناً آخر للجمال، وكأنها حدائق من الزهور تحلق فوقنا..

كانت سرعة مركباتنا مثيرة دون أن نخشى تعطلها، أو حدوث ثقوب أو انفجار في الإطارات، أو نفاد الوقود، أو الدخول في مناطق محمية أو ملغمة أو غير آمنة أو ممنوعة، أو محجوزة.

وسط تلك الحقول الملونة.. كنا نشاهد الأكواخ الخشبية المتدرجة الألوان قرب الأنهار.. كان منظر الدخان وهو يتعالى من مداخن تلك الأكواخ يغرينا بالميل والتوقف..

كانت حالمة تأخذ بالمشاعر.. كانت الأكواخ معزوفات.. قصائد شعر.. مصنوعة من أخشاب الجنة التي لا تحتاج إلى طلاء، فألوان أخشاب الجنة لا حصر لها كالأرقام، وأحجامها تتفاوت بين الكوخ الحميمي الصغير، وبين ما ينافس القصور حجماً وبهاءً..

بعد أيام من التجوال الجنوني ملنا إلى أحدها.. كان قصيدة شعر.. كان متوسط الحجم وجميلاً، ومفعماً بالمشاعر.. تزين نوافذه وأبوابه وشرفاته باقات الزهور والورد، وتتدلى من جوانبه خيوط ملونة من نباتات الجنة الفريدة.. كانت الباقات تزين مداخل مقدماته، وأطراف مقدماته الخشبية الفسيحة، التي تحتوي على الكراسي الخشبية المتأرجحة، والمراجيح المعلقة..

كان الكوخ معدًّا لنزهاتنا البرية، ففي خلفيته الفسيحة النظيفة والمنسقة من السيارات والدراجات والأدوات والخيام.. المخصصة للنزهات البرية الشيء الكثير مما لا نعرفه..

أوقدنا حطباً في موقد موضوع في مقدمة الكوخ، وفي موضع آخر خارجه، وسط بساط حريري من الأعشاب الملونة، فتصاعد الدخان بخوراً لا يضاهيه أجود أنواع العود، ولا حتى يقترب من عبقه..

صنعنا على لهبه أنواعاً مختلفة من القهوة والشاي ونكهاتها التي وضعت في أرفف منحوتة بشكل فني راقٍ، وشوينا من لحوم الطير الناعمة واللذيذة أنواعاً لا يمكن الاكتفاء من لذتها..

شربنا وأكلنا وعزفنا وأنشدنا..

تحاورنا بصخب أشد مما كنا عليه في الدنيا..

لم نحمل هم التأخر أو العمل أو الوظيفة، أو انتهاء أيام الإجازة..

كنا نريد أن نقضي كل أيامنا في هذا العالم الفريد وهذه المساحات الغناء.. نسينا دورات المياه، ولفح البرد، والحاجة للتزود بالطعام والشراب والأغطية.. كان التساؤل الوحيد: هل في قلوبنا مساحة لهذا الفرح؟

تسحرنا قاعات الكوخ وغرفه الفسيحة والشاعرية.. كانت جدرانه الخشبية كالمشاعر.. منحوتة نحتاً.. مضاءة بشموع الجنة، أما أثاثه الخشبي المنحوت فتحف لا نظير لها، وتلك الحرائر التي تكسو بعض أجزائه، فلوحات فنية تشد الناظر إليها وتسحره.. بعضها مكسو بالجلد الذي يتخذ ألوان الأخشاب وتعرجاته..

كان جلداً عجيباً.. منه الصقيل اللامع، ومنه المطفي، ومنه المعشوشب.. لم يعد الإنسان يعرق من الحر، فتلك الجلود تمنحك درجة من البرودة والراحة التي تشبه التدليك، أما اللوحات فرسومات وصور لبعض مناطق البرية الساحرة..

الستائر الحريرية كانت فنًّا بحد ذاته، بخياطتها وطريقة تعليقها وأطرافها والنقوش التي تزينها..

كان في الكوخ أسرة خشبية مكسوة بفرش ومفارش، ووسائد وأغطية مطرزة بالذهب، وملونة بأصباغ الجنة الجديدة علينا.. كانت وثيرة وناعمة.. كل مقاعد الجنة وأسرتها وأرائكها غاية في الراحة ومناسبة للجميع، فقد تخلص الجميع على أبواب الجنة من آلام الظهر والمفاصل

والروماتزم وجميع الأمراض، كما تخلصوا من قائمة الممنوعات على الصحة والمحرمات..

ومن نوافذ الكوخ الكبيرة كانت الإطلالات تنادينا.. كانت البحيرات تنادينا.. كانت الأنهار والبحيرات تنادينا.. كان كل غدير أو مصب ماء ينادينا.. كانت قمم الشلالات تنادينا، وكانت المساحات الجميلة تغني لنا وتسافر بمشاعرنا..

قضينا أشهراً طويلة حالمة.. غيرنا فيها كوخنا إلى آخر وآخر وآخر.. أكواخ تتنافس في إرضائنا واللعب بمشاعرنا وأحاسيسنا..

قابلنا بعض أصدقائنا وبعض أقاربنا، واستضفناهم واستضافونا..

قضينا أوقاتاً في تلك البحيرات وتحت الشلالات وفوقها.. ونصبنا خيامنا على تلك البسط المخملية الفاتنة.. بين ملايين الأشجار المثمرة، ولما هممنا بعد أشهر بالرحيل.. ركب كل واحد منا دراجة للرحلات فخمة وسريعة، وانطلقنا كالسهام خلال الزهور والعطور.. نكتشف الأرض طولاً وعرضاً دون أن نصاب بالملل أو نخشى السأم.. انطلقنا في مساحات نكتشفها، فيزداد فضولنا.. نلاحق قطعاناً من الغزلان الرشيقة والجميلة، والتي لم نَرَها يوماً.. لم تعد الغزلان بألوان محدودة وباردة.. هناك البيضاء والحمراء والصفراء والزرقاء والبنفسجية والخضراء، وألوان أخرى تتدرج من أشد البياض إلى أشد السواد.. وكأننا نطارد زهوراً لها أشكال الغزلان..

تجاوزنا تلك الغزلان إلى قطعان ملونة أخرى.. أسود ونمور وفهود وفيلة وغيرها وحتى - إن شئت - ديناصورات هائلة.. وحيوانات انقرضت قبل أن نخلق على الأرض..

طاردنا حيوانات جميلة لا نعرفها.. لم يعد فيها المخيف ولا القبيح ولا المفترس ولا المتوحش..

نراها بين السهول، ونحن على المرتفعات، فننحدر نحوها في سباق مع الجمال ومعها.

طاردناها قطعاناً هائلة لا بول لها ولا روث، ولا روائح كريهة تنفرك من مرابعها.. كانت تأكل من ربيع الجنة الطري العطر الذي لا يعرف الجفاف ولا الخريف، ولا الحطام ولا الهشيم، وبعد أن تأكل وتعدو.. تعطر المكان بعرقها ورشحها الفواح، وكأن أجساد تلك الحيوانات زجاجات من العطور ..

شاهدنا غيداً حساناً يسحبن أذيال فساتينهن وفتنتهن على الزهور، فيزداد تأوه عشاقهن من حولهن، ويزداد سحر المكان بهن.. شاهدنا عائلات قد نصبوا مخيمات كبيرة للغاية.. كان المرح والفرح، والرقص والغناء، والشعر والحب والتأمل وشكر مبدع الجنان ألواناً من ألوان هذه اللوحة الرائعة..

كان هناك مساحات للأمطار، ومساحات للبَرد، ومساحات للجليد، ومساحات لكل الأمزجة والأذواق.. لكن ليس فيها مساحات للمرض والحمى ونزلات البرد والالتهابات.

قال صاحبي: الشعر والمطر والربيع مفردات عشقتها وكتبتني كثيراً.. ذات يوم من أيام الدنيا الربيعية الجميلة، وعند مجرى سيل شاعري يشق أرضاً شبه ربيعية.. كان المكان يملي أبياتاً تقول:

ارقصي كالمها تحت رش المطر
واسبحي في الفضاء في شعاع القمر
سافري أبحري وأطيلي السفر
ثم عودي إلي عندما تتعبين
تجديني هنا فوق هذا الحجر
عند نهر الربيع بين همس الشجر
أمسح الحزن عنك وجراح الدهر

يا ألله.. كم من الأبيات ستثيرها هذه الأجواء من حولنا.. كم من الدواوين سيكتب شعراء الجنة عن براريها ومشاهدها الساحرة.. كم ستنهار غيدها الفاتنات أمام طوفان الشعر وأطياف المشاعر!

تهادت أمامنا ثلة من الفاتنات فسلمن علينا، فرددنا السلام، فقال صاحبي: ألم يثر تساؤلك شيء؟

كل شيء في الجنة مثير.

النساء؟

وجوههن الساحرة، أم أجسادهن الغضة، أم قوامهن الممشوق، أم شعورهن وتسريحاتهن الفاتنة، أم رقتهن وعذوبتهن، أم تلك العطور التي تشع من كل ذرة من أجسادهن.. أي ذلك؟

لست أتحدث عن أدوات قتلهن.

عن أي شيء إذاً؟

عن تلك الحالة التي كانت تنتابنا في الدنيا.. عندما نشاهد أنثى فاتنة، أو أنثى تُعدّ آنذاك ملكة جمال، بينما هي لا تطاول عُشر ما نرى اليوم من جمال.

أجل كان الرجل يتحول إلى عاشق أو حيوان.

ضحك صاحبي، حتى استلقى عندما سمع كلمة (حيوان)، ثم قال: أين ذلك الشعور؟

في الدنيا كان الرجال يطفحون بالطمع والجشع.. كانوا يريدون التهام كل شيء، ولا شيء يردعهم إلا خوف الله، أو يد العدالة، وقلة منهم يردعه الحياء.. كانوا يريدون الانقضاض على كل ما ليس لهم، لا يشبعون ولا تتوقف مطامعهم؛ لذا احتاج الناس إلى النظام والقوانين والعقوبات، لإيقاف المنفلتين عند حدودهم.

إلا ذوي الأخلاق والضمائر!

قلة هم من يتصفون بذلك، أما هنا فلكل إنسان عوالمه الخاصة، وعشقه الذي يغنيه عما في أيدي الناس، فالكل يرى أن لا أحد بموازاته.. ألا ترى هذا الطوفان الهائل من السعادة.. كيف يغمر حياة الناس العامة

في هـذه الجنـة؟ فلك أن تتصـور أضعافه في حياتهم الخاصـة... لقد قدم هـؤلاء طاعـة ربهم على انفلاتات نزواتهم في الدنيا، وحرموا أنفسهم من طيش عابـر، إرضاء لصاحـب هذه الجنة، بـل قدم بعضهم حياتـه إرضاء لمطلب الله، وها هو الكريم يفتح خزائنه رحمة ووفاءً بوعده، ومن أصدق مـن الله قيـلاً... وها هم المؤمنون والمؤمنات في أوج شبابهم وقمة جمالهم ووسامتهـم ونشاطهم وحيويتهم وأناقتهم وجموحهم.. يعانقون حريتهم ورغباتهم بلا حدود، سوى حدود الطموح والانطلاق...

لكـن ألا تعتقـد أن للارتباط بالـزواج شيئاً مـن المنغصات، ولو بدرجة أقل مما كان في الدنيا؟

صديقي العزيز .. ما زلت تحمل ذلك الانطباع النمطي عن كلمة زوجة.. التزامات وواجبات وقوامة ومحرم وولي .. نحن في الجنة!

أتذكـر مـرة كنت مع بعض الأقارب، وقد عدنا من دفن امرأة فاضلة غاية في اللطـف والحنـان.. قضـت شبابها مع الأمراض، وبعـد زواجها بسنوات قليلـة تـوفي زوجهـا، وترك لها مـع مرضها أيتامـاً، ثم تفاقمـت أمراضها وآلامهـا حتـى أسلمتهـا للمـوت في سن مبكـرة.. كنا عائدين مـن الصلاة عليهـا ودفنهـا وتعزيـة أهلهـا، فجـرى الحديث عـن الجنـة، وسألني ذلك الشاب عن سؤال أدركت جوابه الآن.

وما هو؟

سألنـي عـن الزوجة وزوجها في الجنة، إذا أراد لقاءها وهي مشغولة بنعيم آخر.. أليس في هذا ما يعارض وعد الله ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ .(الفرقان: آية ١٦).
كيف يشاء لقاءها فلا يحصل عليه؟

هـذه الأسئلـة البريئـة.. تنبثق عن تصـور دنيوي لعالم الجنـة الأخروي، كتسـاؤل الدمية التي تتحرك عن طريق الأسلاك، عن قدرة من يحركها على الحركة دون أسلاك.

ماذا تعني؟

هـذا السـؤال ناتج عن تصور الجنة على أنها نسخـة من الدنيا ولكن أجمل، وهـو تصـور محـدود، ففـي الدنيـا تضيع الأوقـات المتعـة في النـوم وأوقات الفـراغ المملـة، أو أوقـات الانتظـار والحـيرة والمرض، أو أوقـات الاضطهـاد والقمـع والشعور بالقهر والظلم والانسحاق والسجن والتعذيب... وما إلى ذلـك مـن أزمنـة كئيبة تموت فيهـا المشيئة والإرادة، أمـا في الجنة فلا وجود لتلـك المصطلحـات، فلا فراغ في الجنة، ولا مـكان إلا للفرح والمتعة والسعادة والاكتشـاف والبحـث عن الجديد والمدهش، ولا يقطـع السعادة سوى سعادة أخرى، ولا المتعة سوى متعة أخرى، ولا الإبداع سوى إبداع آخر..

وفي شأن سؤال صاحبي بالتحديد..؟

ذاك سـؤال يفترض في أثنائه أن الزوج أو الزوجـة عندما يشتاق أحدهما إلى الآخـر والآخـر مشغـول، أن المشتـاق يعيش حالـة حرمـان وانقطـاع وانتظـار حتى يـرى الآخر، أو يعيش حالة قلق وخـوف وتوجس وردة فعل غاضبة أو شاكة.. ذاك ما يحدث في الدنيا، أما في الجنة.. فالزوج والزوجة ﴿فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾ .(يس: آية ٥٥). متلذذون.. يتفجر الشوق باتجاه الزوج والزوجـة عنـد رؤيـة أحدهمـا للآخـر، أو عند اتصـال أحدهمـا بالآخر.. عندهـا لـن يقطع ذلك الشـوق قاطع، ولـن يخمد ناره سـوى لهب اللقاء الـذي يؤجـج المشاعر، ويزيـد التهابها، أما ما بين الموعـد واللقاء.. ما بين

النداء والاستجابة.. ما بين النداء والوصول.. ما بين ذلك فتتدفق موجات النعيم في كل شبر من الجنة.. تتدفق معزوفات الرخاء والبذخ والثراء التي لا يمكن تصورها. أولم تستمع إلى قول نبينا ﷺ: (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها). فهل يجد أحدنا في الجنة فراغاً أو مللاً؟

انظر إلينا، ونحن نتقلب في نعيم لا يعرف انقطاعاً، ولا نعرف مللاً أو اكتفاءً أو تعباً..

انطلقنا على دراجتينا نشق جسراً طويلاً جداً ومستقيماً من الألماس..

كان هذا الطريق عريضاً وشفافاً يعوم على نهر طويل جداً، نستطيع رؤية قاعه الألماسي من صفاء الماء ونقائه، أما ما يزيد الإثارة والجمال في هذا المشهد، فهو ما كان على جانبي الجسر من مسافة فسيحة وعريضة من المياه، وعلى جانبي النهر البعيدين يصب شلالان مرتفعان وعريضان بشكل متوازٍ، ويصبان بصورة عمودية هندسية مذهلة.. كان عرض الشلالين بطول النهر، وكأن الشلالين يرافقاننا.. كان منظر الماء المنحدر فتنة، ومنظر الماء العميق تحت النهر أشد فتنة، وكان الجسر الألماسي الشفاف أكثر فتنة.

كان على جانبي الجسر مساحات للتوقف.. كانت جزراً ألماسية للقفز في النهر، أو تناول المشروبات، كانت مقاعدها وطاولاتها من الماء.. كانت جنة مائية..

توقفنا طويلاً في إحدى استراحاته الجميلة، ثم واصلنا مغامراتنا عبر ذلك الجسر، حيث بدأ الشلالان بالابتعاد عن بعضهما، ليتسع الجسر وينقسم إلى جسور مذهلة عدة.. سلكنا أحدها فإذا هو يتحول إلى رصيف عريض تحفه المنتجعات والشاليهات والقصور.. رصيف عريض مرصع بالجواهر.

قصدنا أحد معارض الملابس، وانتقينا لباساً أنيقاً، ثم واصلنا سيرنا بمحاذاة البحيرة الصافية.. أناس كثيرون يقصدون هذه البحيرة وهذا الرصيف المترف، سكنا أحد تلك القصور المطلة على تلك البحيرة.. كان ينافس في جماله وأثاثه ما مر بنا من أجنحة وقصور، وذات يوم كنت أنا وصاحبي نسير بمحاذاة البحيرة بعيداً عن قصرنا، فقال لي صاحبي: انظر وراءك.

التفت فرأيت كرنفالاً من الجمال والأهازيج والوجوه الساحرة من الجنسين.. كان يبدو كعرس، فالمحتفلون يزفون العروسين من بين تلك القصور باتجاه جسر يربط الرصيف بيخت مسرف بالبذخ.

كان العريس شابًّا ساحر الوجه والشعر والقوام.. محاصراً بحبهم وأغانيهم ونظراتهم.. حتى وهم يصعدون للسفينة، أبوا إلا أن يحملوه وسط تلك الشلالات الضوئية البالغة الإثارة، وبينما كان أميرهم يتقلب فوق أيديهم كالكوكب الدري.. اقتربنا من اليخت، فإذا هو لوحة فنية عملاقة تأخذ بالعقول والأبصار.. ألوانه ومقدمته تشبه حد السيف، وجوانبه ملساء كحوت من الفضة هائل.

كان سطحه مفروشاً بخشب الجنة المصقول ذي الألوان الأخاذة.. يتخلله ممرات من السجاد الحريري بالغ النعومة، أما حافاته وجوانبه فتشكل مقاعد وطاولات وشرفات جانبية مؤطرة بقضبان من الألماس، ومزينة بالزهور التي تعطر المكان الذي يمر به..

وفي جانب منه طاولات عليها أوانٍ وأدوات راقية قد نقش عليها اسم ذاك العريس وحبيبته..

ما لفت نظري هو تلك الأيدي التي ترفع المحتفى به.. كانوا يرفعونه إلى أعلى ويطلقون خلفه شلالات من الأنوار، بينما كان يسبح في سحابة من الضحك والمرح.. يرجوهم التوقف، فيصرون على المزيد من الاحتفال به، وبعد مقطوعة من المرح الصاخب توقفوا ليطالبوه بكلمة أو حتى قصيدة شعر.

صعد إلى مكان مرتفع من سطح اليخت، فصفق الجميع وكبروا، أما هو فخفض رأسه وانحدرت دموعه وهو يرى ما حوله، وغاب عنهم في صمت ثواني.

أصروا على أن يقول شيئاً، فرفع رأسه وشكر الله من قبل ومن بعد، ثم انهمرت عيناه وخفض رأسه مرة أخرى، وشكرهم على هذه الحفاوة، وعلى هذا الاحتفال الرائع، ثم قال: أتدرون ما أتمناه اليوم؟

في أثناء ذلك الخطاب اقترب منا أحد الشباب وصاحبته التي ودعها لتلحق برفيقاتها في مركب سريع وجميل، اقترب منا وبادرنا بالسلام..

بادلناه التحية، ففاتتنا أمنية ذلك الشاب الباهر الجمال، فهمس صاحبي بالرجل قائلاً: أهلاً

مرحباً

هل العريس المحتفى به ملك أم زعيم أم ماذا؟

كل أهل الجنة ملوك، أما إن كنت تقصد (علينا) فلسنا في حاجة في الجنة إلى أحد ليأمرنا أو ينهانا، بل إن كثيراً من ظلمَتِهم قد... قد تم قذفهم في الجانب الآخر.

يبدو أني قد أغضبتك؟

ضحك الرجل وقال: لا.. لكن سؤالك غريب، ويبدو أنك جديد على أجواء الاحتفالات هنا.. هذا.. ال

لا، لست جديداً.. لكن الجنة تحمل الجديد في كل شبر وكل ثانية.

لا أعرف من هذا المحتفى به، لكنني أعرف ما هو.

وما هو؟

إنه أحد الشهداء الذين قدموا أرواحهم في سبيل خالق هذه الجنة.

وهؤلاء الذين يحتفلون به أصدقاؤه؟

لا، هم رجال ونساء من أهله وأقاربه.. أذن الله له بالشفاعة، فتوسط لهم عند ربه واختارهم، وقد قبلهم الله، وهم اليوم يصرون على أن يحتفلوا به قبل أن يغادر إلى عوالم الشهداء، وقد كانوا يحتفلون به منذ أيام بصخب أضفى على أجوائنا المزيد من البهجة على مباهجنا، وهم الآن

سينطلقون به إلى إحدى تلك الجزر الساحرة.. تلك التي يلتقي فيها الأحباب والعشاق والمحتفلون.

يا إلهي... أي فرح ينتظرهم في تلك الجزر؟

لو رأيت بعضهم وهم يدخلون الجنة خلف الشهداء، كان الخجل يلفهم.

ولم... أولم يكونوا سعداء؟

كادوا يطيرون من الفرح، لكن بعضهم كان في الدنيا يحاول ثنيه وتثبيط عزيمته، وتذكيره بأمواله ومستقبله والتمتع بشبابه في الدنيا، بدلاً من إهدارها في التعب والعرق والجهاد في سبيله، والدفاع عن أوطانه.

يلومونه على إبرام صفقة مع الله.. يلومونه وهو يدافع عنهم وعن أرضهم ووطنهم ودينهم.. يا لرحمة الله، كيف أصبح العاذلون من أرباح تلك الصفقة؟!

لا أحد بعد أن دخل الجنة وذاق ما ذاق يريد العودة للدنيا إلا هو وأمثاله.. إنهم يريدون العودة مرات ومرات، ليقتلوا ويقتلوا في سبيله.. لما رأوه من النعيم.

إذاً، فهذه هي الأمنية التي فاتنا سماعها. هل توضح أكثر؟

سأوضح لك بهذا المثل: لو كنت في الدنيا سائق أجرة فقيراً، تطوف على سيارتك المتهالكة في ليلة مطيرة.. تبحث فيها عن راكب تحصل منه على مبلغ تشتري به عشاءك وعشاء أبنائك، وفجأة تجد شابًا قد اصطدمت سيارته بشجرة، وهو يشير لك بالتوقف، ولما توقفت انتهزت فرصة المطر واشترطت عليه أجرة مضاعفة، فوافق دون تردد، وعندما أوصلته إلى

حيث يريد رأيت والده ينتظره داخل قصره الفخم بقلق، فأصر على أن تتناول عشاءك معهما، وبعد أن تذوقت طعاماً كنت تحلم به، وعرف الرجل الثري أحوالك قام بتوديعك، لكنه لم يعطِك أجرتك، بل أعطاك مفتاحين: مفتاحاً لسيارة فارهة في مقدمة القصر، ومفتاحاً لمنزل كبير لك ولأولادك بدلاً من الشقة الضيقة التي تسكنها.. ما الشعور الذي تخرج به من ذلك القصر؟

لا يوصف، وقد أصاب بنوبة جنون.

ولو طلب منك أن تمر عليه كل شهر لتوصله؟

لا أمانع أن أفعل ذلك يومياً.. ومجاناً.

توصله مجاناً مقابل سيارة ومنزل؟ لقد أتعبت نفسك!

ضحكت على دعابة الرجل.. فدفعني صاحبي بيده، وقال: دعونا من الدنيا وحدثونا عن هذا الشهيد الحي.

له أكثر من سبعين صديقة.. كل صديقة في عالم وقصور وأسلوب وذوق مختلف.

سبعون.. هذا كثير؟

إذا كان في الدنيا رجال عرفوا أكثر من هذا العدد من النساء، وهو لم يتجاوز الأربعين من عمره، فهل تستكثر السبعين على من سيعيش مليارات المليارات من السنوات؟!

ابتلع صاحبي شفتيه ورفع حاجبيه، بينما واصل العريس إلقاء كلمته..

وفجأة لوحت له فاتنته بوشاحها، فصدح لها بأصوات أهل الثغور العذبة وقال:

مررت على حصان مثل حتف ... تلوح ديارك مثل النواح

مررنا بالمرابع حيث كنت ... وقد قبضت يداي على سلاحي

رأيت خيامك كالحزن حولي ... محطمة تلوذ بها جراحي

أشم عبيرك في كل شبر ... وأسمع صوتك عبر البطاح

وأذكر أنك مطر جميل ... يسيل كفتنة عند الصباح

وأذكر أنك القمراء ليلاً ... فكم بيتاً كتبت على سلاحي

وكم بيتاً كتبت على الرمال ... وكم بيتاً بعثت مع الرياح

ويأخذني لذكراك وجوم ... فأخشى إن أطلت من افتضاحي

لقد أوجعت في جيش الغزاة ... وخالطت الغدو مع الرواح

يمزق صوت تكبيري جيوشاً ... ويفتك بالعلوج وبالرماح

فأرضي تحتهم جمر جحيم ... وليلي حالك وبلا صباح

فلقنت العدو بأن أرضي ... محرمة على كل النباح

ففيضي في ظلام الليل دمعاً ... أطيلي في سجودك كالنواح

وقولي: يا إلهي كان عبداً ... تحرق نحو جنات فساح

أُحب لقاءه ويهيم وجداً ... ويطلب أن يضمده وشاحي

أجب يا ربِّ مطلبه وكن بي ... رحيماً كي أبادله جراحي

صفق الجميع وصفقنا، ونهضت عروسه الفاتنة من كرسيها وهي تصفق، وألقت بوشاحها عليه وسط صياح الجميع، وانطلق اليخت وسط صراخ المحتفلين، ووداع الملوحين له على الشاطئ.

ولما غابوا عن نواظرنا توجهنا إلى الشاب الوسيم الذي عرفنا بنفسه من جديد، وكسبناه صديقاً فدعانا بطريقة لافتة قائلاً: أرجو أن تقبلا دعوتي، فلدي شيء ربما يمثل مفاجأة لكما.

مفاجأة فوق ما نراه ونعيشه؟!

يبدو أن حفلاً جامحاً ينتظرنا.

سرنا عبر الرصيف، ثم مشينا على تراب زعفراني منعش الرائحة نحو قصر صاحبنا المصبوب من الحجارة الكريمة الأرجوانية، وحالما فتحنا البوابة أشرقت مقدمته الباهرة.. قاعات وأرائك وتحف مميزة، وأثاث خشبي معطر وأرائك حرير ساحرة الألوان والملمس... في إحدى الزوايا تحفة فنية: مشرب شاعري، وفي الزاوية المقابلة طاولة طعام فاخرة قد صفت عليها الأطباق والكؤوس والفوط وبقية إكسسوارات منتقاة بعناية ومرتبة بذوق رفيع. هناك بوابات إلى أجنحة فخمة فارهة. إحداها تقود إلى قاعات وقاعات، وأخيراً قاعة أُعدت لمشاهدة الأفلام والمسرحيات والعروض، ومشاهدة آخر في الجنة من أخبار وعروض ومهرجانات واحتفالات، وحتى الأحداث التاريخية المرتبطة بالدنيا وما فيها وما قبلها، وما شئت من إثارة لا حصر لها..

وفي جهة منها بوابة أخرى تقود.

اتجـه مضيفنـا إلى المشـرب ليخدمنـا بنفسـه، ثـم عرض مـا عنـده من مشروبـات بـاردة وساخنـة، فطلبنا منـه أن يختار بنفسه، فقـد كنا ننتظر مفاجأته التي وعدنا بها..

تظاهرنـا بالتـأني وهـو يتأملنـا ويبتسـم... بينمـا كان صاحبـي يختلس نظرات نحو الباب منتظراً مفاجأة، ثم طلب مضيفنا أن نصحبه إلى قاعة العرض، فاتجهنـا إليهـا وأخـذ كل منا مقعـده الوثير والأنيـق، ثم وضع مشروبه اللذيذ على طاولته، ثم أدار جهازاً بكلمات عن بعد، لتظهر أمامنا مساحة كبيرة للعرض، ونحن نهم بتذوق ما قدمه من مشروبات...

بـدأت أحـداث العرض بأصوات مفزعـة ودون موسيقـا تصويرية، ظهرت الصورة على سماء مخيفة وكأنها فوقنا، لم تكن زرقاء ولا بيضاء.. كانت حمـراء.. كانـت سقفـاً مـن السحب الحمـراء.. فـإذا بالصـورة تتجه نحو بئـر ضخـم وعميق ومعتم.. كانت فوهة البئـر هائلة بحجم مجموعة من الملاعـب الضخمـة، أما جدرانـه فكانت مـن الصخور السـوداء الخشنة.. اتجهـت الصـورة بشـكل مخيـف إلى جـدار البئـر الدائـري، فـإذ بكهـوف موحشـة محفـورة على تلـك الجـدران، وإذا بأنواع من الحيـات والثعابين المخيفة تتلمظ وتلتف حول تلك الجدران دون أن تغادرها..

كانت الكهوف مليئة بالحشرات المقززة واللزجة.. كنا نشم رائحتها المنتنة ونحـن في القاعـة، ونسمـع فحيـح الحيات المخيفـة، أما الأكـثر إخافة من ذلـك، فصـراخ وأنين رجال ونساء يطلون مـن تلك الكهوف، كانوا غاية في القبـح والدمامـة والنتانة، كانت أجسادهم طبقات مـن القذارة والاتساخ، تعلوهـا فضلاتهـم وإفرازاتهـم المنتنة.. كانوا غايـة في الرعب مما فوقهم

وممـا تحتهـم، ثم اتجهـت الصورة إلى قاع البئر، فإذا هـو حمم تغلي فيها الحجارة...

أخذنـا هـذا المشهـد المفزع عمـا نحن فيه من نعيـم، لتتسـع أعيننا.. شدت عقولنـا وأخـذت كل ذرة في مشاعرنا وحواسنا، فالمشهـد من الوضوح كأنه أمامنا.. كنا نشعر بهول البئر وحرارته وأجوائه المفزعة.. كنا نشم العفن المنبعث من تلك الكهوف والحفر، ومن أفواه وأجساد قاطني فندق الرعب ذاك..

في الجنـة، العرض كالحقيقـة.. تنضم فيـه الرائحة والحـرارة والبرودة وكل الأبعـاد.. مـا أوشك معه الفزع أن يدخل قلوبنـا دقائق، لكن مفاجآت المشاهد كانت تأخذنا إلى حيث الإثارة المفزعة.

قلـت وقال صديقي معي: توقـف، فنحن لا نستطيع إكمال المشاهدة.. هل دعوتنا لتنغص علينا ما نحن فيه من نعيم بهذه المشاهد المفزعة.

بل لأزيدكم سعادة.

لو كنا في الدنيا لقلت: إنك مجنون؟

دعوني أريكم مشهداً آخر.

ولا نصف مشهد.

فقط هذا المشهد لتدركوا سر دعوتي لكم.

دنـت الصـورة من إحدى الحفر، فازدادت قوة العفـن، واقتـرب القبح، فإذا عينان حمراوان تائهتان خائفتان وجسد مغطى بالقاذورات. إنسان يتلفت

بحثاً عن مهرب مما حوله من مخلوقات مخيفة، لكنه كلما رأى الهاوية وما فيها من حمم أغمض عينيه والتف حول نفسه في حالة هستيرية، ثم أطلق صرخة دوت منها القاعة التي نجلس فيها.. صورة أخرى أشد خوفاً وقبحاً ورعباً، وكهف ثالث تملؤه الأهوال والرعب.

أغمضنا أعيننا، وأغلقنا أنوفنا، فأوقف مضيفنا عرضه، ثم التفت إلينا، وسألنا بصوت متهدج: هل تعرفتم على هؤلاء الثلاثة الذين يقطنون تلك الكهوف في تلك الهوة المرعبة؟

قل أنت، فالعرض عرضك.

هؤلاء... هم نحن الثلاثة.

سامحك الله يا رجل، هل أنت في وعيك؟

لم أكن في وعيي مثلما أنا في هذه اللحظة.. هؤلاء هم نحن لو كفرنا بالله وبهذه الجنة.. لو لم تبحر بنا رحمة ربنا الواسعة.. هؤلاء هم نحن لو كنا في جهنم، وهو مشهد يعد خفيفاً من معاناة أهلها...

وهل هناك أشد من هذا العذاب؟

أجل، وبشكل لا يمكن تصوره، لكن دعوني أعرض لكم أهون تلك المشاهد، فقد تتحملونه.. إنه رجل يحاول خلع حذاءه.

نشكرك، لكن أعتقد أننا اكتفينا.

وما المشكلة؟

سترى...

بـدأ العرض.. رجـل علـى حافة هوة أخـرى موحشـة، ويخشـى السقوط فيهـا، ويتـرنـح.. يصرخ من شدة الألم، فقد أدخلت قدماه في حذاءين من الجمـر، وقدمـاه تحترقان دون أن تتفحما، وبدلاً مـن أن تتفحم قدماه.. تسـري الحرارة والألم مخترقة جسـده كالكهرباء.. تصعد حرارة الجمر حتى تستقر وتتأجج في رأسه، محدثة حرارة يغلي منها دماغه، وكلما مد يديـه لخلـع ذلك الحذاء والتخلص منه، اكتوت يداه بحـرارة لا يطيقها، فيتخلى عن الفكرة، ثم يعاودها.. وهكذا..

أصابنـا وجـوم طويل مما شاهدناه، وكأننا قـد أكملنا عبـوراً مخيفاً فوق حبـل ممدود فوق بركان يغلي.. كانـت أجواء المشاهد تشعرنا بنعمة إجارة الرحمن لنا من تلك المعاناة الرهيبة..

نهضـت مـن مقعدي وخررت ساجـداً لله، شاكراً له علـى رحمته، وتجاوزه عنا، على الرغم من كثرة ذنوبنا، وقلة أعمالنا..

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه..

الحمد لله من الأزل إلى الأبد..

الحمد لله أكثر مما حمده كل عباده ومخلوقاته.

الحمد لله... الحمد لله...

أحقاً نحن في النعيم..

أحقاً قد أجارنا الرحمن الرحيم من الجحيم...

سالت دموعنا شكراً لله على ما منَّ به علينا من نعمة النجاة من تلك الأهوال... سجدنا لله سجوداً طويلاً، وبللنا مواضع السجود بدموع الشكر والامتنان...

أشعرنا سجودنا بمعنى السعادة والنعيم الذي نعيشه..

كم هو جحود هذا الإنسان الذي لا يعرف قيمة الماء حتى يعطش، ولا الأمن حتى يخاف، ولا الصحة حتى يفتك المرض بجسده ويعجزه عن الحركة، ولا السعادة حتى ينخر الشقاء في عظامه...

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذي هدانا لهذا

الحمد لله الذي أجارنا من عذاب القبر

الحمد لله الذي أجارنا من عذاب النار

الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا من غير حول منا ولا قوة

الحمد لله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته

الحمد لله عدد كل شيء وملء كل شيء

الحمد لله عدد ما أحصى كتابه وملء ما أحصى كتابه

الحمد لله عدد كل شيء وملء كل شيء

الحمد لله عدد ما في السماوات والأرض

الحمد لله كما ينبغي لجلاله وعظمته

الحمد لله ......

أخذنا الشكر مسافات ومسافات من العرفان.. بعدها شعرنا أن شيئاً يعيدنا إلى النعيم.. شيء يذكرنا بأنها لحظات توقف وتذكر وشكر، وإضافة سعادة معنوية إلى سعادة حسية لا حدود لها، وأن هذه الجنة لا تكاليف فيها ولا عبادات ولا واجبات.. وكأنه يقول لنا: انصرفوا إلى نعيمكم، وما أنتم فيه من انطلاق وإبحار..

كأننا خلقنا من جديد، لنعانق الجنة من جديد..

استأذنا مضيفنا بالانصراف، فاعترض بأن الوقت لا يزال مبكراً.. أصر بأن نشاركه المتعة، فقد ولدنا من جديد، وعلينا البدء من جديد، وبعد مدة استأذنا صاحبنا حتى نمنحه بعض الخصوصية.. على الرغم من أنه كان شغوفاً بصداقتنا ونحن أكثر شغفاً منه.

وافق بعد إلحاح، ثم استأذننا بمحادثة قصيرة..

رأينا بعد مكالمته تلك.. طائرة فخمة من الفضة الخالصة تقترب من القصر، وتهبط بشكل عمودي في إحدى زواياه.. كانت قد هبطت من أجلنا، لتأخذنا حيث شئنا في رحلة نحو مزيد من الضياع في الجنة.

حلقنا بتلك الطائرة المكشوفة السقف، دون أن نحتاج إلى أحزمة أو أقنعة أو نظارات.. كان نسيماً خفيفاً يلامس وجوهنا ويحلق بنا.. كانت الأرض من تحتنا سحراً نتبارى بالإشارة إلى ما فيها من دقة وجمال وروعة.. لم نركب الطائرة لقطع مسافات متعبة، أو لاختصار أزمنة مملة، فليس في الجنة مسافات مملة، أو فواصل تجلب التثاؤب والنعاس، أو تجعلنا نتململ على مقاعدنا تذمراً من التأخر، أو انتظار الصعود، أو الإذن

بالهبوط، أو الإذن بالتحليق.. لم يكن في تلك الطائرة خوف من التحطم أو الاحتراق، أو عدم نزول العجلات أو نفاد الوقود، أو تعطل المحركات أو احتراقها، أو الخطف والترويع والإرهاب.

كنا نحلق لنغير زاوية الرؤية، ونزيد من مساحات الأنس والبهجة... لم نكن وحدنا في الأجواء.. كانت الطائرات بأشكال وتصاميم، وألوان وأذواق جديدة تمارس جنونها وطربها في الفضاء.. هناك من يحلق مع حبيبته، وهناك من يحلق مع أصدقائه، وهناك من يصطحب والديه أو أبناءه، وهناك من تحلق مع صاحباتها وصديقاتها.. كانت سماء الجنة لا تقل إثارة عن أرضها.

فوجئنا بمحطات وموانٍ عائمة في الفضاء.. فوجئنا بمقاهٍ ومشارب في السماء.. فوجئنا بجزر سماوية تهتف بنا للتوقف بها.. كانت بأحجام المدن وأكبر.. وكأنها أقمار أو نجوم ملونة وشاعرية ترغمك على التوقف.. كلما قطعنا مسافة التقينا مفاجأة، عندها أدركنا سر تلك الألوان السماوية الجديدة.

كل يمارس ما يهوى في تلك الأماكن الطائرة.. هناك من يقرأ.. هناك من يكتب.. هناك من يرسم.. هناك من يمارس الرياضة.. هناك من يعزف ويغني، وهناك من يتلذذ بأصناف الطعام والشراب والمشاهدة، وهناك من يحتفل، وهناك من يعتزل، وهناك من يكتشف، ويتأمل الفضاء الجديد بمناظير مقربة.. وهناك .. وهناك..

كان للسماء مذاق آخر..

قال صاحبي: أشعر بشيء؟ فقلت: بِمَ تشعر؟

لا أدري لكن دعنا نتوقف فوق إحدى هذه المدن الطائرة.

أخذتنا الطائرة نحو مدينة هائلة طائرة.. هبطنا عليها أم صعدنا نحوها. لا تدري أي العبارات أنسب، وعندما سرنا فوقها وجدناها شفافة لدرجة أننا نرى ما تحتها بوضوح، فوقها نسير وكأننا نسير في الهواء، شاهدنا المناطيد والطائرات تهبط منها وعليها، بينما توجه البعض إلى أطرافها حيث تتناثر الإطلالات والشرفات، والاستراحات الفضائية ذات المشاهد المذهلة والأجواء الشاعرية.

اخترنا مكاناً من أجمل شرفاتها، وجلسنا على تلك المقاعد الفضائية التي لم نَرَ مثلها، فأتانا الساقي الأنيق يعرض علينا خدماته، فقال له صاحبي ممازحاً: الأستاذ رائد فضاء؟

ابتسم الساقي بلطف، فقلت له: اعذرنا، فقد كنا في الدنيا نصف من يصعد للفضاء بعلبة معدنية لا يخرج منها إلا داخل بذلة بشعة.. كنا نسميه رائد الفضاء. فعقب صديقي قائلاً: وكان رائد الفضاء إذا حلق في الفضاء، لا يستطيع التخلص من الأرض على الرغم من أنه قد غادرها..

إنه يأخذها معه.. يحمل هواءه وطعامه منها.. كانت الأرض تضعه أمانة داخل تلك البذلة البشعة التي تحوله إلى مخلوق سمين مخيف، وهو مضطر إلى العودة إلى الأرض إن أراد ممارسة حياته بشكل طبيعي.

يبدو يا صاحبي، أننا نزعجك بأمور لا تهمك.. أليس كذلك؟

بالعكس، فأنا أستمتع بقصص أهل الأرض وحكاياتهم، فهي مليئة بالإثارة والمعاناة والبؤس والطرافة والجمال.

والطمع والجشع، لدرجة أن عشر سكانها يتقلبون في خيراتها.

والبقية؟

عليهم انتظار ما يلقيه هؤلاء الجشعون من فتات وبقايا.

كانت الدنيا اختباراً للعشر.. هل يشكرون ويشاركون غيرهم، وللبقية هل يصبرون ويكافحون ويبدعون.

أما هنا فلا عشر، ولا كسور عشرية.. إنه النعيم والبذخ والثراء للجميع دون حدود.

تذكرت في أثناء حديثنا: (أدنى أهل الجنة منزلة) عندما تحدث عنهم أحد أصحاب النبي رضي الله عنه فقال: إن النبي ﷺ قال: (إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً.. رجل يخرج من النار حبواً..

فيقول الله: اذهب فادخل الجنة. فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع، فيقول: يا ربِّ، وجدتها ملأى!

فيقول: اذهب فادخل الجنة.

فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربِّ، وجدتها ملأى!

فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها......

فيقول: أتسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك؟

فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة).

لكنها عشرة أمثال من ناحية الأسماء، فليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

لا أحتاج إلى تذكير، وأنا أرى جسدي ووجهي، وملابسي ومراكبي وقصوري وما حولي، وما أنا فيه.

هز مضيفنا رأسه وهو يبتسم، ثم قال: إنه نعيم يستحق قضاء الدنيا كل الدنيا في الشكر..

كم كنا نشكر الناس كلما قابلناهم على معروف بذلوه، أو خدمة قدموها لنا.. كم كنا نشكر أناساً على أنهم أعطونا بعض حقوقنا التي لنا عليهم... ما أعظم عفو الله وكرمه إزاء جحودنا!

تمتعوا بكرم الله وجنته.. تمتعوا بأجوائنا على هذه الجزيرة المحلقة في سماوات الجنة..

قال لي صاحبي:.. ماذا تطلب..؟

عصير سحاب.

دمك أصبح خفيفاً بعد ذلك الفيلم المرعب.

ضحكت، فدفعني من كتفي، فازددت ضحكاً ولم أستطع التوقف حتى كدت أسقط عن الكرسي، فقام صاحبي وهو ينادي مضيفنا، ويقول له: ساعدني كي نرميه نحو الأرض..

تقطع ضحكي وأنا أصارع صاحبي، وقلت للرجل: أي شيء.. أي شيء... فانصرف، وهو يبتسم..

واصلت عراكي معه حتى سقطنا من مقاعدنا، فقد كان الضحك يفقدنا توازننا جميعاً.

وبينما كنت أغالبه سكت صاحبي فجأة، وأفلتني، وهو يشعر بارتباك شديد، وكأنه طفل رأى شيئاً مرعباً...

قال لي: أرجوك.. أرجوك.. أرجوك أن تجلس بسرعة.. أرجوك.

استلقيت على الأرض من الضحك، ولم أعر كلامه اهتماماً، فقد عجزت عن القيام، فالرجل يهذي.. ثم يسحب كرسيه ويرتب هندامه وهو يلتفت إلي، بينما عيناه متعلقتان بشيء مقبل من بعيد.. كان يهذي بكلمات لا أفهمها، ولا هو يعيها: اجلس.. إنها.. يكفي مزاحاً.. توقف عن الضحك.

التفت نحو مرمى عينيه، لأرى القذيفة التي أصابت عقله.. كانت قذيفة تتهادى سحراً نحونا.. كان قوامها قصيدة، أما شعرها وعيناها فديوان شعر.. ثيابها الحريرية كانت أمسية شعرية..

تقلص فمي واتسعت عيناي، وشعرت أن صاحبي قد وقع في ورطة، فهممت بالانصراف؛ حتى لا أتورط معه..

كنت بانصرافي أريد أن أتيح له فرصة للخروج مما هو فيه، والدخول فيما يغمره.. كان مرتبكاً، وهو يرى مشاعره تهفو إليه من بعيد، لكنه أمسك بيدي وهو يقول: أرجوك لا تذهب.. لا أدري ما أقول....

ولا أنا .. لا تورطني، فأنا لم أفعل شيئاً؟!

أرجوك ابقَ معي.. ساعدني.. ادفعني نحو الأمام...

وهل أنت سيارة غارقة في الرمال؟!

أرجوك.

أردت أن أخفف بعض معاناته ببعض الدعابة، فقلت له: دعني لا أم لك... لكنه لم يأبه بما قلته، فقد تمكنت القذيفة من قلبه.. كان لحن أقدامها يقترب منا، فعدت لمقعدي، أما هو فتسمر قائماً ينظر إليها، ولم يتخلص من ذلك التسمر إلا على نغمة كالمطر تقول بكل أدب: مرحباً.

مر.. حبتان.

ثلاث.. مر.. حبات.

ابتسمت وعيناها تتعلقان بصاحبي الذي بدأ يتصبب عرقاً فواحاً.. فقالت: أأنت فلان؟

أشفقت على صاحبي وهو يجيبها بلوعة لم أَرَها في عينيه من قبل.. كان وكانت يتنافسان في الحسن، ويتناغمان في المشاعر، لكن صاحبي يشعر ولا يعرف، أما هي فتشعر وتعرف أيضاً.

أجل، أنا هو.. فمن تكون سيدتي؟

أنا.. أنا سيدتك..؟! بل أنت سيدي وقرة عيني.

لكنني لا أعرفك، ولم أشاهدك من قبل!!

أما أنا فأعرفك وأهيم بك دون أن تشعر بي أو تعرفني.

سامحيني.. ذكريني.

لن تتذكر شيئاً.. أنا من يحمل الذكريات والمعاناة.. أنا وحدي فقط..

لا بأس، ولكن ربما تذكرت شيئاً.

أشك في ذلك، بل أجزم.. في الدنيا.. في عالمنا المنصرم كنت تملك قلبي ومشاعري.. كنت تظلني وتقلني وتبحر بي.. كنت حلمي وأملي، وها أنا أفيق على أروع من الحلم.

ما أقساك وأبخلك على قلبي.. تتحلين بهذا الجمال، وتحملين كل هذه المشاعر، ثم تشحين بكلمة على من تحبين، لا بد أنك التقيت شابًّا لا تستطيعين الالتفات عن محاسنه.. ملك قلبك وأشغلك عني، وأنت لا ترينه في الجنة، فبحثت عني.

أنت واهم.

ما السر في عدم بثّك كل هذه المشاعر لي؟

أنت تصر!

فوق ما تتصورين.

لم تكن لتقبل بي.

يا إلهي، ومن المجنون الذي لا يقبلك، لو رأيتك في الدنيا لرضيت أن أكون خادمك.. لو رآك ملوك الأرض لتنازلوا عن عروشهم من أجل زنزانة في قلبك.. أنت تستحقين حملة انتخابية للفوز بمقعد بين حناياك.. سيدتي أي كلمات جارحة تطلقينها في جنات لا تعرف الجراح؟

لكنني لم أكن بهذه الفتنة في الدنيا، وما كان الشباب ليقبلوا بمثلي إلا من أجل علاقة محرمة وعابرة، وأنا أرفضها ولو كنت أنت طرفاً فيها.. كان خوفي من الله هو الذي أبعدني منك، ورحمته هي التي جمعتنا فوق هذه المدينة المرفرفة في النعيم.

لا يمكن أن أتخيل أنك غير هذا السحر الذي أمامي.

لا.. بل تخيل، فما كانت الدنيا سوى ساعات اختبار، وها نحن، برحمة الله، نبتهج بنتائجها.. كانت أشكالنا وألواننا وجمالنا أو دمامتنا أوراق اختبار.. نملؤها بالرضى فنرضي الله، أو نسخط ونتبرم من قضائه أو أحكامه، ونرفضها، فنكون في الجانب الآخر.

عزيزتي، ليس أجمل من عباراتك إلا جمالك وعذوبتك.. إنني أسأل الله أن تكون مشاعرك في الدنيا ما زالت كما هي تجاهي.

اعذرني.. ليست كما كانت.

هل من سبيل إلى استعادتها؟

لم أفقدها ولم تعد كما كانت..

كفى.. لا تلعبي بقلبي... أرجوك.

إنها تتعاظم كل ساعة.. حبك ملك شغاف قلبي، ولا يشغلني عنك سوى ما يمر بي من النعيم، فهل تقبل بي؟

أصبح صديقي مذهولاً من هول المفاجأة.. فغر فاه، والتفت من الذهول يمنة ويسرة، فوقعت عيناه علي، وكأنما وقعت عيناه على كابوس ثقيل، فقال لي: ألا ترى في هذه الجنة غير هذا الكرسي الذي تجلس عليه؟!

لم أستطع منع نفسي من الضحك على غضبته، فقلت له: آسف، لكنك أنت من طلب مني البقاء.

كنت غبيًّا.. وأنت أغبى حين صدقتني.

وهل نزل الذكاء عليك فجأة؟

قمت وأنا أعاني نوبة ضحك، فأحببت أن أغيظه، فأخذت الكرسي وحملته معي.

أما هو فنظر إلي ثم قدم لها مقعده، ثم لحق بي مسرعاً، فنزع مني الكرسي ودفعني حتى سقطت، فانفجرت من الضحك على هذا العاشق المجنون..

عاد إليها وكلمها.. كلمها طويلاً حتى ألقت بوجهها الساحر بين كفيها، لتنهمر شلالات الدموع والمشاعر..

مضت ساعات، فإذا بهما ينفجران بالضحك ويقومان بالمشي والتنزه في أرجاء المكان.. يقفان عند مشرب، ويتناولان المشروبات والمثلجات والحكايات التي أنستهما من حولهما، مع إشارة باليد يتلطف بها صاحبي نحوي بين فترة وأخرى، وكأنه يقول لي: انتهيت منك.

أمضى الاثنان وقتاً طويلاً، لكنني لم أشعر به، ولم أكن لأستعجلهما فما فوقي وما حولي، وما تحتي من المشاهد والأحداث في هذه السماء يكفي من يعيش فيه إلى الأبد..

بعدها عاد صديقي مع حبيبته، بعد أن تحولت إلى زوجة له على طريقة الجنة، التي لا تحتاج إلى إجراءات الدنيا من شهود وإذن ولي، أو ورقة تكفل حقوق كل منهما تجاه الآخر وواجباته.

كان صاحبي وصاحبته في حالة من الوجد، وكأنهما قد أمضيا الدنيا بحثاً عن بعضهما.. كانت تعتذر منه بشدة، فهي مرتبطة بموعد حاشد، وتدعوه لينضم إليه، لكنني أشرت له بالبقاء، فأمامنا الكثير.. الكثير مما لم نَرَه فاعتذر مهدداً بنظراته.

بعدها ودعته بطريقة تقطر شوقاً وفرحاً:

الحمد لله أنني عثرت عليك.. يالجنة ربي ما أروعها! وما أروع الحب فيها! لو أمضيت دنياي في سجدة شكر لما عادلت ما أنا فيه الآن ...

ثم التفتت نحوي قائلة: سررت بالتعرف إليك دون أن تعرفني، أو حتى تسألني عن اسمي. فقلت لها ممازحاً: سررت بتعرف صاحبي عليك، هل حددتما موعداً لاحتفالات الزفاف؟

خفضت رأسها حياءً، فأخذ صاحبي يدها بكلتا يديه وسحبها بعيداً.

أما هي فأسكرته بكلمات لم يسمع أصدق ولا أعذب منها:

إلى اللقاء أيها الوعد الذي أرغمني على الصبر..

إلى اللقاء أيها الحب الذي أشتاقه وهو أمامي..

إلى اللقاء ....

انصرفت وانصرف قلب صاحبي معها، وبعد أن غابت عن عينيه هوى على الكرسي، وهو يقول: يا ألله هل أستحق كل هذه الفتنة والكلمات؟

ألم تسمعها، وهي تتحدث عن نفسها؟

أكاد لا أصدقها.. شككت أنها فتاة لعوب تعبث بقلبي.

أتتذكر ما قلته لك، عندما قابلنا آلاف الفتيات الساحرات في السوق وعلى تلك الشواطئ والجزر، ألم تستغرب أدبك معهن، وانضباط سلوكك تجاههن، واكتفاءك بالإعجاب وإبداء الدهشة من روعة الجمال، وإبداع الخالق سبحانه، وكأنك تشاهد طبيعة ساحرة، أو لوحة غاية في الروعة.. كنت أدرك أن قلبك سيهوي يوماً أمام معشوقته، وأنه سينهار حالما تراها عيناك، أو تسمعها أذناك.

حقًّا إنه شعور جارف لم يسبق لي أن شعرت به من قبل، كأن زلزالاً يهدمك ويبنيك من جديد، هل حقًّا كانت مأخوذة بي؟

وهل أنت كما كنت عليه في الدنيا؟ وحتى لو كنت وسيماً، فوسامتك في الدنيا قبح مقارنة بجمالك اليوم.. تلك الفتاة عرفت أقرب الطرق إليك.. الطريق إلى الله.. عرفت ضعفها وقلة حيلتها، فرمت بحاجتها عند باب الكريم الذي لا يرد سائلاً.

صدقت، فقد تلت علي أبياتاً حكت معاناتها في الدنيا.

هل لك أن تقولها؟

بكل سرور.. كيف لا وأنا المعني بها.. كانت تقول:

كأن الذي بيننا لا يشيب ... ونحن على الشيب كم ننطوي

كأن الذي بيننا لا يموت ... ولا يستكين ولا يرعوي

كأن الذي بيننا أنهر ... وأودية دون أن أرتوي

تعبت من الركض خلف السراب ... وخلف القصيد وخلف الروي

فقلت لحظي التعيس: بنا ... نلوذ بباب الكريم القوي

والكريم لم يخيب لها ظنًّا، ولم يرد لها طلباً، فها هي تفوز بفارس أحلامها الوسيم.

شكراً

لا تشكرني.. اشكر الله، ألم تَرَ وجهك في تلك الحفر المرعبة.

لا.. نظرت إلى وسامتك بجانبي.

وحالاً بدأنا عراكاً جديداً، وإذ بالساقي ومعه آخرون يحضرون لنا مائدة شهية الرائحة والطعم، فقلت لصاحبي: لقد عادت.

فنهض فزعاً حتى كاد يلقي ما يحمله النادل.

بدأ مضيفنا يسكب لنا مشروباً خاصًّا بهذه الجنة الطائرة، فقال صاحبي وهو يرتشف من كأسه: أود لو ألحق بها.

أين اتفاقنا من قبل؟

ألم يخالجك هذ الشعور؟

بلى، لكنني التزمت بالاتفاق.

أخشى أن تتعلق بغيري، فالجنة ملأى بالفاتنين.

لا أحتاج إلى تذكيرك بما قلته سابقاً.. لا تخشَ عليها من الضياع، فقد وجدك قلبها، وقد التقت بغيرك من قبل فلم لم تحسم أمرها معهم.

يبدو أنك محق.

تناول طعامك، وانتقِ من هنا محطتنا المقبلة، فعشاق الجنة تقودهم قلوبهم.

انتهينا من طعامنا، فمرت أميرته بمركبتها الطائرة ملوحة له، فأخذت قلبه وأصر على أن يحلق بها..

رأفت لحال صاحبي بعد أن اتعدت وإياه بعد أيام..

أما أنا فأخذتني الجنة من جديد.. وملأت روحي من جديد..

وجدتني في مدينة من مدائنها أسير وأسير لا أريد التوقف، وإذا توقف صرت لا أريد المسير.. كل شيء في هذه الجنة يريد احتضانك، والتعبير لك عن حبه وشوقه.. بدءاً من حبيبات اللؤلؤ.. وانتهاءً برسول الله ﷺ..

آه كم أشتاق إليه.

لا تدري هل أنت الذي تقبل على أشيائها، أم أشياء الجنة هي التي تهش للقائك..

كل ما في الجنة ومن الجنة صاحبي وحبيبي. يا لها من صحبة، ويا لهم من أحبة.

تذكرت ذلك الملل الذي يعتريني في الدنيا، فيضيقها ويقتل جمالها..

تذكرت ضيق الصدر الذي يهجم فجأة، فتعاف معه كل شيء..

تذكرت ذلك التعب والإرهاق، الذي يتسلل خفيفاً ثم يثقل شيئاً فشيئاً حتى يعجزنا عن الحركة، ثم يكمل النوم بقية المهمة.. ذلك النوم الذي يحرمنا وجوده المتعة واللذة والزمن..

اختفى النوم في الجنة فهو (أخو الموت وأهل الجنة لا يموتون).

تذكرت شوارع الدنيا التي طالما امتلأت بحوادث السير، والسرقة والتسول

والتلوث والزحام، وأحياناً بمستنقعات المياه والنفايات المزعجة، بل أحياناً تدور فيها معارك بالمسدسات والسكاكين وأحياناً الدبابات..

في بعض شوارع أرقى البلدان في الدنيا وأكثرها تحضراً.. قد تفقد روحك ومعها الدنيا بأسرها، من أجل محفظة نقودك التي قد تكون خاوية..

في بعض شوارع الدنيا قد تفقد روحك، ومعها الدنيا بكامل زينتها عندما تعبر الطريق دون أن تنتبه لسيارة مسرعة..

الدنيا بأسرها.. بزينتها بأموالها ومناصبها وأيامها ولياليها.. تفقدها بلمحة بصر.. برصاصة طائشة أو موجهة.. بطعنة سكين.. بغصة لقمة.. بانفجار شريان.. بتوقف قلب.. بوشاية حاقد..

أحياناً تخسر الدنيا بغيبوبة أو جنون حتى الموت، بينما ينبض جسدك بالحراك.. كل هذه الأفكار مرت أمام عيني، وأنا أتجول في هذه الشوارع الجديدة..

شوارع خلت من المتسولين والمحتاجين، فالكل أثرياء، والكل أمراء، والكل ملوك، والكل عشاق، والكل ودود، والكل يثقف نفسه بحضارة كان يحلم بأعتابها.

خلت شوارع الجنة من المتزلفين والوصوليين الذين أفسدوا البلاد والعباد، وداسوا على غيرهم من أجل أنفسهم، فلا نفاق ولا وصول على حساب الآخرين، ولا ثراء على حساب الضعفاء والمساكين والمغفلين.

شوارع مليئة بالحب.. مزدحمة بالمشاعر والأسماء الجميلة، والألوان الساحرة واللافتات الترحيبية.

شوارع يزداد جمالها بالوسيمين والجميلات، والملائكة تختلط بهم.. تبادلهم التحيات، وتتعرف عليهم، وعلى جنباتها تجد البارات والمقاهي والمعارض والأسواق والمطاعم والمسارح والمكتبات وما تشتهيه وتتمناه.

تحلق عيناك وروحك كجناحين يسافران بك، وعبر تلك الشوارع المبهجة ركبت مركبة فاخرة لا تصدر ضجيجاً أو تلوثاً، ولا تحتاج إلى عناء في قيادتها، تأخذك إن أردت بطريقة آلية سلسة، وكأن خرائط الجنة مبرمجة داخلها..

مدن ملايينية زاهية خلت من الشرطة فلا قمع ولا انقلابات، ولا صراع على السلطات، ولا حدود ولا معابر مليئة بالحرس، ولا جوازات سفر أو تأشيرات دخول وخروج، ولا تفتيش للملابس، أو تدقيق في هويات تحاصرك داخل حفنة من التراب، أو تمنعك من الدخول في أراضيها، ولا كلاب تفتيش تتوق إلى نهش لحمك.

كنت أنطلق نحو موعد صاحبي وكان الوقت مبكراً جدًّا.. الوقت في الجنة مبكر دائماً.. لا يعرف الفوات ولا الحسرة ولا الندامة..

ألتقي صديقاً هنا وجاراً هناك، وعالماً في مكان ثالث ومفكراً في مكان رابع.. أشرب مع هذا قهوة، ومع الآخر كأساً.. وأتناول وجبة لذيذة مع ثالث، وأحلق مع هذا، وأبحر مع ذاك..

شاهدت عالماً جليلاً طالما تعلقت به دون أن أكحل عيني بمرآه، ولما رأيته.. رأيت شابًّا في غاية الوسامة والفتنة.. يرتاد مكتبة لإكمال مشروعات وافاه الأجل قبل إكمالها.. صافحته، فلم أكتفِ، فعانقته عناقاً طويلاً، وطبعت قبلة على جبينه الساحر..

أخذنا في الحديث عنه، وعن حبي له وعن مشروعاته، وعن الجنة وما فيها من نعيم..

قلت له: هل ستكمل مشروعاتك في الجنة..

فضحك، فتلألأ وجهه كالقمر، ثم قال: أتلومني على إكمال مشروعاتي العلمية، ولا تلوم ذلك المزارع على إكمال زراعته...

عذرته، فالجنة مكان أرحب لإبداعات لا تتوقف. ثم استأذنته بمشاعر كتبتها شوقاً إليه واحتفاء به، فرحب بمشاعري، فقلت له:

تنصب شيخنا من الجبال

كجدول من السماء

كفارس من نور

يشق ظلمة العماء

يعود هامة من النقاء

يعود من جديد

يفيض بالجديد

يعود مردفاً حبيبتي

كالشمس لي تعود

كالشمس لي وأحرفي

وموجتي التي لا تعرف الحدود

ووجهتي التي أضعتها

مع شيخنا تعود

أخذت مع الشيخ الشاب في حديث طويل وشائق ومفيد، ثم استأذنت حتى ينصرف هذا الأستاذ العظيم لما جاء من أجله.. ودعته بعناق حار ومواعيد أجمل.. ثم انصرفت للإبحار في جديد الجنة من جديد..

قطعت مساحات من الجمال الأخاذ الذي يسحرك عما سواه..

أخذني يخت فاتن في سياحة عبر المياه، وبمحاذاة القصور والمناظر الخلابة.. تركته يتهادى على الماء، واسترخيت على كرسي وثير على في مقدمته.. أتأمل ما حولي، وأحتضن أجواءه..

كنت أحدث نفسي عن هذه اللحظات التي كنت أحلم بامتلاكها في الدنيا، ويتمنى الملوك الظفر بأجوائها.. أجواء من الأمن والحرية والسلام والجمال.. كل ما حولك يحتفي بك.. لا يوجد من يكرهك أو تكرهه أو يضمر لك شرًا أو يتمناه لك... الكل يحبك حتى الجمادات.. لحظات يمكنك أن تعيشها وتشعر بها، لكن من المستحيل أن تصفها..

أخذني مشهد الجموع تتهادى ذهاباً وإياباً على رصيف عريض من الجواهر.. عريض كالترف، وطويل جدًا كالأمل، فاشتقت إلى الاختلاط بهم، والأنس بهم، والتحدث معهم.. كان منظرهم يشرح الصدر وهم يتمشون على ضفاف البحيرات والأنهار والميادين، أو يطلون من نوافذ القصور وشرفاتها..

توقفت، ولبست حلة أنيقة وجديدة، ثم أخذت بمغادرة اليخت وفي نيتي أن أتمشى طويلاً.. طويلاً..

ليس من أجل المحافظة على نظام رياضي، أو خوفاً من سمنة أو مرض، أو استجابة لنصيحة طبيب، فهذه الأشياء أصبحت من الماضي.. السير

في الجنة له متعة الركوب والإبحار والطيران، أما الصحة والجمال، والنشاط والشباب والحيوية، فتتجدد كل ثانية، كما يتجدد الهواء في الرئتين في الدنيا.

رصيف عريض جدًّا من الأحجار الكريمة الكبيرة الملونة، تتصل فيما بينها بخطوط مصبوبة من الذهب، وكلما قطعت مسافة تغيرت ألوان تلك الأحجار وطريقة رسمها، وعلى جانب الرصيف تبعد المباني.. مانحة ذلك الرصيف مزيداً من الاتساع، ليتشكل بعد كل مسافة ميدان كبير للجلوس والاجتماع والتأمل، وتلتف حول كل ميدان نصف دائرة من المقاهي والمشارب بمقاعدها وشجيراتها الزاهية..

مشيت طويلاً.. طويلاً..

مشيت ساعات لا تنقضي فيها العجائب، ولا ينتهي فيها الجمال ولا المفاجآت، ثم توقفت بعد أن تجاوزت المئات من تلك الميادين والاستراحات والألوان.. أحسست بحاجة إلى تناول مشروب ما..

اخترت مقعداً مريحاً في اتجاه النهر، كان المكان ينبض بالأهل والأصدقاء والعشاق والأفراد... لاحظت بالقرب مني فتاة تتأمل النهر، وكأنها تسبح فيه، والنسيم الخفيف يراقص شعرها الطويل الداكن، الذي يتدلى حتى خصرها النحيل.. كانت تضع خماراً حريريًّا خفيفاً يعطر المكان على رأسها..

كانت غارقة في التأمل لدرجة كدت أظن أنها لا تستطيع الالتفات.. ظننتها تمثالاً في منتهى الدقة والجمال..

كدت أتجرأ فألمسها لأتحقق من ظني، لكنني آثرت السلامة فاتجهت لمقعدي..

رحت أتأمل المكان وسحره، وبعد أن وضعوا لي القهوة وملحقاتها اللذيذة على الطاولة.. ارتشفت منها رشفة وجدت طعمها يجول داخل رأسي وعيني المغمضتين..

لم أستطع منع نفسي من اكتشاف سر هذه الفتنة الشغوفة بالإبحار والتأمل، فحملت قهوتي ونهضت واقتربت منها، ولما أحست بقربي التفتت ورفعت رأسها، بعد أن تسللت أناملها بين خصلات شعرها الحريري، الذي يغطي جانب وجهها لتسدله خلف ظهرها، بينما كان ذلك الحرير الأسود لا يكف عن اللمعان والغناء.

سلمت فردت التحية بأحسن منها، فقلت لها: منظر ساحر أليس كذلك؟

وهل لك رأي آخر؟

كل يوم أبحث عن مصطلحات جديدة قد تفي بمشاعري تجاه ما أراه.

وهل تجد كلمات تتماهى بما تراه.

الكلمات لا تكف عن الولادة، والمشاعر لا تهاب الجموح.

وما أشد ما تراه فتنة هنا؟

حتى في الجنة لا تكف النساء عن الحصول على كل شيء.. الجمال والإطراء!

ابتسمت، ودعتني للجلوس، فشكرتها وأصررت على أن تتذوق هذه النكهة الرائعة، فوافقت، فطلبت لها كوباً آخر.

وبعد أن جلست قلت لها: لم تعلقي على ما قلت؟

فقالت: لم أكن أبحث عن الإطراء.

نسيت (الكيد) حلي المرأة المميز.

ابتسمت، فزاد بريق النهر بتلك الموسيقا العذبة.

عرفتها بنفسي، فعرفتني بنفسها بطريقة تفصح عن عمق ذلك التأمل الطويل الذي كانت غارقة فيه.. تحدثت عن نفسها فتفجرت شلالات المشاعر وهي تحدق في البعيد وتقول:

أنا من كادت تتأخر عن رحلتها، فتفقد كل شيء..

هذا الجمال الذي لم يتوقف الإطراء حوله منذ أن وطئت قدماي الجنة كدت أحرم منه.. كاد يتحول إلى مزع من اللحم والقبح..

هذا العطر الذي يتضوع من شعري وجسدي.. كاد يكون عفناً لا يطاق الاقتراب منه..

هذا القوام الذي لا يقاوم سحره.. كاد يكون تقوساً وترنحاً وشمطاً..

أدركتني رحمة الله حين فتحت قلبي وعقلي.. بعد أن كنت أحاول تجاهل الجنة، وأمارس السخرية بها، وبمن يحلمون بها، وتأخذهم مطاياهم إليها.. كنت أصفهم بالظلاميين والظلاميات..

كنت أرى الطهارة عقداً نفسية..

كنت أرى الحجاب تعبيراً عن شعور بقبح لا بد من ستره..

كنت أرى العبادات نوعاً من التكاليف والأشغال الشاقة المؤبدة..

كنت أكره هذا الدين، فلا أظهر كرهي له خشية ردات الفعل، فأرتد إلى كره من يحملونه ويبشرون به..

كنت أدعي تقديم رؤية جديدة للدين، ولكني في الحقيقة كنت أقدم رؤية تقصي الدين عن الحياة..

كنت ألتمس الأعذار لكل من يهاجم الإسلام.. حتى لو كان بدافع من دين آخر، بينما أضيق برأي من يحملون هذا الدين، حتى لو كان صوابه واضحاً كالشمس..

كنت أضع الأديان كلها في زنزانة واحدة، لكنني لا أجلد، ولا أشتم منها سوى الإسلام...

كنت.. وكنت..

سكتت طويلاً وأنا أتمنى أن تكمل.. لكنها خفضت رأسها، فتداعى شعرها لتنبعث منه العطور كلما اهتز وارتعش.. تداعى شعرها ليستر مشاعرها ودموعها، ثم زفرت بمناجاة تذيب القلب.. وبصوت متهدج بالعبرات:

إلهي، ما أحلمك.. إلهي، ما أحلمك.. إلهي، ما أرحمك وأكرمك..

والله إن ما صدر مني من إساءة لربي ولنبيي ولديني، ليستحق أن أكون خارج هذا العالم..

ليستحق أن أشقى بقبح ودمامة وعفن لا ينتهي..

إلهي، ما أرحمك.. ليتني أعود للدنيا لأصرخ في وجوه أصحابي وأوقظهم.

إذاً، فقد كنت من الشلة إياها؟

أجل، أنا كنت من مدعي التقدم الذين لم يبروا للأمة قلماً.. كنت من مدعي الديموقراطية، الذين لم يبنوا سوى السجون والمعتقلات..

كنت من ملحدي الحداثة الذين لا يعرفون سوى حداثة الألبومات والأزياء والمراقص والمشروبات..

كنت من زاعمي الحرية، الذين يرفضون الآخر، ويرمونه بالظلامية، مع أنني لم أوقد شمعة واحدة..

كنت من أدعياء العلم الذين لم يثبتوا خطأ واحداً في القرآن والسنة..

كنت ممن يدعون فتح الآفاق، مع أننا لا نرى أفقاً أبعد من غرائزنا..

لا أود مقاطعتك، لكن ما الذي أبقاك داخل هذه العقلية الخشبية الجامدة، والأحكام الجاهزة؟

كنت قد حشرت أصابعي في أذنيّ، وأغمضت عيني عن كل مشهد وحقيقة لا تروق لي.. في الحقيقة كنت أخشى الاقتناع..

ولِمَ يخيفك الاقتناع؟

كنت أتصور أن حياتي ستتحول إلى عباءة سوداء تتأرجح فوق سجادة..

كنت أتصور أنني سأفقد صداقاتي وعلاقاتي الجميلة، وسأفقد متعي الحسية كلها لأبقى في حالة صيام مؤبد.. كنت أرى أن المتدينات يعشن في كهوف من الحرمان والتخلف، وهو أمر لا أطيقه..

وما الذي أيقظك؟

مثلي يصعب استيقاظه مادام غارقاً في طيشه.. لا بد من صدمة توقظه... امتدت رحمة الله، فانتزعت مني كل ملذاتي.. أصبت بمرض نقص المناعة نتيجة علاقة محرمة طائشة مع فتى وسيم أكثر طيشاً.. تسلل نحو جسدي بداعي الإعجاب، فكانت النتيجة أني فقدت كل شيء.

إذاً، فهو المرض؟

لا.. أبداً.. المرض كان كشفاً لأقنعة كثيرة كنت أتعامل معها.. أقنعة تخفي قبحاً كنت أعانقه ببلاهة.. صديقات وصداقات فرت من حولي.. انهار المسرح فوق رأسي، وهرب الممثلون بعيداً عني.. اكتشفت بعد ضياع الوقت أن أسئلتي الحقيقية كانت مختبئة في جيب طالما تجاهلت مكانه..

اكتشفت أن تلك الشلة لا تملك سوى التشبث بحياة.. أي حياة.. كنت أريد أن أعيش فقط:

أريد أن أعيش

أريد أن أعيش

بأي صورة أريد أن أعيش

أريد أن أعيش

بين البهائم التي تسوقها الوحوش

تحت الحذاء

أم في الجحور

أريد أن أعيش

بأي شكل.. لا يهمني

أريد أن أعيش

أنا بألف مبدأ أعيش

بألف وجه

بألف جلد وألف لون

بالفرو أكتسي وأكتسي بالريش

ودون ريش

أنا مواطن في السلم

أنا مناضل

وعندما أرى العدو

أنا عميل

أنا مخرب

أنا مصمم الدمار والنعوش

فما يهمني

هو البقاء

هو البقاء بالتأكيد

وحفنة من القروش

اكتشفت شلتك، فأين عثرتِ على عنوان هذه الإطلالة الساحرة؟

حينما أصبت بانحدار في صحتي، وتجاهلني الأصدقاء، وتحرج من علتي الكثير من الأهل والأقرباء.. وجدت في طبيبتي العزاء.. كانت تحدثني عن الله كلما ناشدتها أن تجد لي علاجاً .. كانت تربطني بالله.. وكنت أهاجم نظرتها، فالطب والإيمان لا يلتقيان.. كانت تكشف لي يوماً فيوماً طبقات الغبار والجهل الذي ران على عقلي وقلبي.. كنت أصر على رأيي، لكنني جاهلة بالطب مبدعة في التمني والكسل والمكابرة، أما هي فكانت مبدعة في تخصصها الذي أوصلها إلى حدود قدرتها.. تلك الحدود التي تبدأ عندها قدرة الله وعظمته..

اكتشفت في النهاية جهلي أمام علمها.. عندها تحول تعالمي إلى تلميذ شغوف أمام علمها وإيمانها.. بدأت أعد الدقائق في انتظار زيارتها.. لم أكن أطمع في الشفاء، كنت أطمع في العلم.. ناشدتها أن تزورني كثيراً وتحدثني أكثر، لكن جدولها مزدحم بالمواعيد والمرضى، وذات يوم دخلت علي امرأة لا أرى سوى عينيها.. كشفت وجهها وسلمت علي، فرددت السلام.. كنت أظنها مخطئة في رقم الغرفة، لكنها نادتني باسمي وسلمتني كتباً ظننتها مثل تلك الكتب التي كنت أزدريها في مكتبة والدي.. لم أعرها اهتماماً، لكني جاملتها بابتسامة باردة، ولما رأت ردة فعلي الباردة عرفتني بنفسها، وأنها المسؤولة عن الشؤون الدينية للمريضات في المستشفى، فقلت باستغراب: ما علاقة الشؤون الدينية بالمستشفى؟

في فنادق الغرب تجدين نسخة من الكتاب المقدس في كل غرفة، وكل حملات الغرب الاستعمارية كانت تسبقها حملات تبشيرية تحمل الكتاب

المقدس، على الرغم من أن الطب والعلم قد كشفا ذلك الكتاب، وأسقطاه علميًّا من حياة الغرب.

ذكرتني بمجادلاتي في الإنترنت ومعاركي مع الظلا...

عموماً التي بعثت لك هذه الكتب ليست ظلامية مثلي، إنها طبيبتك فلانة ...

سامحيني.

لم تفعلي شيئاً يا حبيبتي، أسامحك عليه.. أسأل الله لك الشفاء العاجل.. هذا رقمي إن أردت التحدث إلى ظلامية..

استأذنت، وخرجت مبتسمة تدعو لي بالشفاء، وتدعو لي ولها بحسن الختام، أما أنا فدون أن أتفوه بكلمة شكر، رميت بطرفي على خاتم كان في أصبعي المتآكل، ورحت أديره بعصبية ودون شعور، فقد غيبتني سراديب من الخجل والندم الحارق..

رحت أعض شفتيَّ المتيبستين ندماً على هذه الجلافة التي طالما رميت بها أمثال هذه المرأة الطيبة، التي لم تفعل شيئاً سوى أن حملت لي رسالة ودعت لي.. حاصرني الخجل، وأحسست بآلام تفوق آلامي..

استخرجت عقلي من كيس حشره أصحابي فيه، وبدأت بتنظيفه؟ وضعته أمامي، ورحت أطلق عليه أسئلة كالرصاص:

ما الذي يمنعك من قبول الآخر؟

ما الذي يحملك على حمل أفكار تستعيرها لا تصنعها؟

ما الذي ستخسره إن جربت الإيمان؟

لِمَ تفكر بالطريقة التي يفكر بها الآخرون؟

أين الإبداع في أن تدع غيرك يفكر عنك؟

لِمَ قضى أمثالك قرنين من الزمان دون أن يستطيعوا حذف حرف واحد من القرآن والسنة؟

أي ورطة وضعت نفسك فيها، إن كان ما يقوله من تسميهم بالظلاميين حقيقة؟

ليس أمام جسدي من خيار، أما أنت فأمام خيارين: إما أن يكونوا على حق، فقد دمرت دنياك وآخرتك.. وإما أن تكون على حق، فلن تخسر شيئاً.. أخذت تلك الكتب بكلتا يدي، ورحت أهزها أمام وجهي، وكأني أتحداها وأصرخ: سأقرؤك.. سأقرؤك مهما كانت النتيجة.

وهل فعلت؟

التفتت إلي، وهي تدير خاتماً ألماسيًّا يزيد أصبعها الفاتن فتنة وقالت: قرأت فيها عقلي.. لم تكن كتب مواعظ وإرشاد وتذكير بالموت كما توقعت.. لقد أدركت طبيبتي ما أبحث عنه، فأحضرت لي كتباً ألفها أطباء، وعلماء فضاء، وعلماء بحار وعلماء جيولوجيا غربيون عن إعجاز القرآن العلمي، أما ما لفت انتباهي فهو تلك المجموعة الكبيرة من الأطباء والعلماء

التجريبيين المسلمين الذين تخصصوا في الإعجاز العلمي.. كنت بعد نهاية كل فصل أضرب السرير بقبضتي الضعيفة، وأقول لنفسي: أحقًّا كان أولئك الظلاميون يعيشون تحت الشمس والمطر، بينما كنا نفاخر بشموعنا داخل حفرنا وأنفاقنا المعتمة، حقًّا إننا الظلام نفسه؟

كنت أبكي بحرقة ومرارة تلك السنوات التي دفنت فيها عقلي في الرمال..

وعمن كنت أدفنه؟ عن إلهي الذي منحني ذلك العقل.. كم كنت جحودة! كم كنت ناكرة للجميل وأنا أتجاهل إلهي، وأيمم نحو قوم لا يقلون جحوداً عني!

كم كنت معتوهة وأنا أسلم عقلي لقوم لا يجيدون استخدام عقولهم.. كم كنت ظلامية العقل والقلب والمشاعر!

كم كنت ضيقة الأفق وأنا لا أرى في الحرية أكثر من نفث السجائر وشرب الخمر، والتخلص من مساحات من ثيابي..

لم أَرَ فيها أكثر من زرع مفاتني على تلك العيون الجائعة..

ههه.. مفاتني.. ههه..

كنت في الدنيا أقضي معظم وقتي في انتشال تلك المفاتن من بين إفرازات ذلك الجسد الدنيوي الذي لا يكف عن التلوث والترهل.. إزالة الشعر وتنظيف الأسنان ومزيلات الروائح والشعر وأشياء لا أكف عن تعقبها..

مفاتني.. تحتاج في السهرة الواحدة إلى تحضير قبلها، والتردد على دورات المياه مرات عدة لتفقد تماسكها..

مفاتني.. كم كنت عديمة الثقة بمفاتني.. أخشى أن تخونني، فأنا ألاحقها كالجواسيس حتى لا تخذلني، فيتخلى عني مطاردوها، وقد صدق حدسي، فقد تخلى عني العشاق عندما تآكلت مفاتني والتهمها المرض.. لم أعد نافعة لهم.. مفاتني في تلك الحياة كانت تلتهم وقتي وجهدي ومالي، ومع ذلك لم تصمد.. بل لم تقف إلى جانبي على الرغم مما بذلته من أجلها..

أما مفاتني اليوم.. فأكاد أكذب مرآتي وهي تريني هذا السحر الذي يتلألأ أمام عيني..

هذه الفتنة التي تشرق من وجهي، وهذا الوهج الذي يلف قوامي، وهذا العطر الذي يتضوع من شعري ومن كل ذرة في جسدي دون انقطاع، وهذه الأنفاس التي تسكر من يقترب منها، دون أن أخشى تغيرها إلا إلى الأفضل.. هذه المفاتن الخالدة تغمرني بالثقة بنفسي وبها، فهي لن تترهل بل ستزيد شباباً ونضارة، ولن أحتاج معها إلى دورات مياه ومنظفات ومزيلات فلا نفايات هنا، بل لا دورات للمياه، فأجسادنا ليست في حاجة إليها..

كنت بخيلة جدًّا على هذه المفاتن الخالدة التي أمامك.. بخلت عليها في الدنيا، مع أنها لم تكن لتكلفني مالاً.. لم تكن تستدعي مني وقتاً أو جهداً، كما استدعى ذلك الجسد الدنيوي المتآكل..

من يأبه لملكة جمال في الدنيا، وهي تبلغ الخمسين أو الستين؟

من تمتلك أنوثة، وهي في السبعين؟

كنت في الدنيا عندما أنظر إلى عجوز محدوبة الظهر ترتجف في أثناء حديثها وحركتها.. أنتفض في مكاني رافضة هذا المصير..

كانت عيوني متعلقة بأبواب مختبرات الغرب.. تنتظر آخر كشوفهم حول عمليات التجميل وشد البشرة وقطعها..

كنا ننتظر دون أن نقدم أدنى مبادرة، ونرفض الموت.. ليس لأننا نبدع في الحياة، بل لأننا لا نرى أبعد منها أفقاً..

تعرفت على نبيي محمد ﷺ بعد سنوات كنت أرفض الإنصات إليه، فتغيرت آفاقي..

علمني ﷺ كيف أرفض الترهل والشيخوخة، بطريقته النابضة بالطموح الذي لا حدود له.. عندما تهادت عجوز نحو باب أستاذتي عائشة (التي أتوق للقائها في إحدى حدائقها الغناء) تهادت تلك العجوز فوجدت رسول الله ﷺ، فقالت له: (يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة.

فقال: يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز).

انكسرت تلك العجوز من ذلك الجواب الذي رأت سطحه، ولم يَرَ عقلها أعماقه، فولت تلفها الفجيعة ويقتلها الحزن، فقال ﷺ: (أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾.(الواقعة: الآيات ٣٥-٣٧).

هذا هو رفض الشيخوخة الذي كنت لا أعرفه قبل تعرفي على محمد ﷺ، وليس تعبئة تجاويف الوجه بأكداس من الطلاء الذي يثير الشفقة..

يا إلهي، ما مصيري لو لم تدركني رحمتك؟

ما مصيري لو لم أتعرف على حبيبك ﷺ؟

دعني أبكِ كثيراً وأشكر أكثر، قبل أن أحتفل بنعيم لا أستحقه لولا رحمة ربي..

دعني مع هذا المشهد الذي يأخذني في مراكب الامتنان والعرفان..

لن أدعك، حتى تخبريني ما نهاية دنياك.

عندما بدأت أفيق بدأت أحاسب نفسي.. كنت في السابق أحصر حقوق المرأة في أن تتعرى وتمارس الرذيلة وتسخر من الحجاب.. كنت أحارب تعدد الزوجات، كنت ضد الزواج بكل صوره.

كنت أرفض الحلال بحجة استغلال المرأة، بينما كنت أتعامى عن قطيع المسكينات من النساء اللواتي يتم بيعهن بصورة جديدة، من أجل السياحة وجذب رؤوس الأموال.. يرغمها الرجل على أن تعاشر أكثر من عشرين رجلاً في الشهر، وأكثر من مئتين في العام.. تعاشر الآلاف خلال عمرها.. من أجل رغيف خبز يرميه لها الرجل..

كنت أتعامى عن قطيع الفتيات الجميلات الفقيرات المتراقصات حول مغنٍّ له صوت أجمل بقليل من صوت حمار..

كان ذلك القطيع هو من يسوق الأغنية..

كان المغنون يكبرون، ويشيخون، لكن القطيع يتجدد بعد أن تتحول القطعان الأولى إلى إماء أو دمى.. أو ...

لا أدري كيف أسامح نفسي على تجاهل أولئك المسكينات والسكوت عن

معاناتهن.. كم كنت أمارس خيانة بنات جنسي لو لم تدركني رحمة الله.

وما الذي أعماك عن معاناتهن؟

المبدأ..

أي مبدأ؟

ضحكت طويلاً.. ثم قالت: أجل، أي مبدأ؟ لم يكن لدي مبدأ سوى الغريزة وكره الدين والمتدينين.. كنت أكره حتى عصاة المتدينين والمتدينات الذين قد يشربون أو يمارسون الخنا.. كنت أريدهم أن يكونوا مثلي.. ضد الدين وضد أدنى التزام به.. حتى عندما تسألني غير مسلمة عن الإسلام، وتريد مني أن أشرحه لها باختصار.. أحذرها منه ومن التفكير في اعتناقه.. كنت لا أنصت إلا لغرائزي.. ما يتوافق معها فهو حق، وما يتنافى أحكم عليه بالكبت والتخلف والرجعية والظلامية، ولا أقبل النقاش في ذلك.

قهقهت بصوت مرتفع، حتى التفت بعض المارّين من حولي فابتسموا، ثم قلت لها: كم كنت مجرمة!

فضحكت وهي تخفض رأسها وتحاول كبح ضحكتها، لكنها لم تستطع.

قلت لها: حدثيني عن أكثر مواقفك إثارة للضحك؟

هي عندما نجتمع ونتناقش حول المتدينين، كنا بالطبع نسلخهم ونرميهم بالتخلف والغباء ومعاداة التقدم... إلى آخر تلك القائمة المعروفة والمملة.

وما المضحك هنا؟

المضحك هو أننا على الرغم من وصف خصومنا بما مضى، وعلى الرغم من كثرة حديثنا عن التقدم والرقي، لم نكن نعرف شيئا عن هذا العلم الحديث والرقي إلا أنواع المشروبات، وآخر ما في الأسواق من العطور والأزياء وأسماء الشوارع والمراقص والحانات في الغرب.. في الوقت الذي تغص فيه كليات الهندسة والصيدلة والطب والجيولوجيا والعلوم التجريبية بالمتدينين، وفي الوقت نفسه الذي يظهر فيه علم اسمه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة يقوده فريق ليس من الفقهاء ولا من الوعاظ ولا من المفسرين، بل من الأطباء والفلكيين والصيادلة والمهندسين وعلماء البحار والرياضيات والجيولوجيا وغيرهم.. عندها نتجه للسخرية من ثياب المتدينين ولحاهم وحجاب المتدينات.. كم أشعر بالخجل والسفه!

ألم تكونوا تشعرون ببعض الخجل آنذاك؟

كنا في سكرة الهيمنة، فلا نمكن أحداً من خصومنا من الرد علينا، لذا فنحن لا نسمع إلا أنفسنا، فنصدقها.

لكنكم كنتم ترددون أن خصومكم يملكون المنابر.

المنابر.. تلك التي تهزنا وتزلزلنا، وتجعلنا نتناثر كالزجاج.. خطبة واحدة تعيدنا مئة عام للوراء.

وهل سرتم يوماً للأمام حتى ترجعوا للوراء!

عادت للضحك مرة أخرى. فتركتها وعدت لارتشاف قهوتي. ثم قالت: الحمد لله.. الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني.

عندها ضحكت أنا، حتى كدت أسقط عن الكرسي.

وبعد صمت قليل قلت لها: لكنني أعترف أن بعض من يحملون تلك التوجهات على الرغم من غباء مضمونها.. يحملون في الشكل الكتابي والشعري جمالاً وجدة في التعبير.

ربما كان هذا أحد أسباب غرورنا.

ربما، فأكثر من يكتبون أطروحاتنا العميقة والجادة يقدمونها في قالب تقليدي ممل، وكأن نبيهم ﷺ لم يقل يوماً: (إن من البيان لسحراً)، فقد كان أصحابك يكتبون بلغة جميلة وجديدة شكلاً، لكن أفكارهم قديمة قدم قوم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً.. الأحرف الجميلة تأخذ بالقلب وتطمس العقل، فينساق المفتون معها حيث تريد..

لكن الأحرف الجميلة تظل أصباغاً وطلاء لا تغير حقائق الأشياء.

أجل، لكن أهل الإيمان كانوا مأخوذين بالحقيقة مهما كان لون أحرفها.. كانوا يأخذونها بقوة، ويقدمونها بسرعة، أما أصحابك فيجهدون في صنع العلب والأغلفة والألوان وانتقاء العبارات ليغلفوا خواءً بطريقة رائعة، والضحية هنا المتلقي الذي يأخذه جمال تلك العلب، ويستمتع بطريقة فتحها واكتشافها، وكلما كانت الأغلفة أكثر وأجمل تأخر اكتشاف المتلقي لذلك الخواء.. عندما تصور الحداثة في بلاد غير المسلمين الفضيلة على أنها عقد نفسية وقيود تقتل الحرية.. بينما تصور الدعارة والانحراف على أنها الحرية وكسر الحدود والحواجز، فأنا لا ألوم القوم في رسم علاقاتهم وحقيقتهم بأيديهم، بعد أن فقدوا عناوين الحقيقة في كتبهم المقدسة، لكنني أسمي تلك الحداثة التي تطمس الحقائق في بلاد المسلمين، وتردد العبارات نفسها كالببغاء..

حداثة سوداء.

ربما.. إنها تسير في العماء ونحو العماء، فلا هي التي قرأت ما في القرآن ولا ما في العلم، ولا هي التي استطاعت إسقاط القرآن، فهما وجهان لحقيقة واحدة، ومن المستحيل قبول وجه دون الآخر.. الحداثة السوداء (كما سميتها) تبشر بآفاق جديدة من الخرافة على حساب العقل والإيمان.

بل كانت مأخوذة بصناعة الصمم للآخرين.

هذه الحداثة رأت آلات الغرب، فاعتنقت أفكاره، وكفرت بآلاته.. استوردت الخواء والفراغ الروحي والإلحاد والبارات والمراقص، ورفضت استيراد العلم والمختبر والمصانع، بل رفضت حتى الديموقراطية، فكانت نتيجة استيراد ذلك الخواء كما قلت أنت: (حداثة سوداء تكفر بكل شيء).. العلماني الغربي كان يعيش مع الآلة التي بدأت بتحويله إلى آلة أخرى.. لا روح لها ولا أخلاق ولا قيم ولا مبادئ ولا دين.. بدأت بتحويل الغربي إلى ترس في آلة.. إلى رقم بارد دون مشاعر.. عندها انتفض عليها الكثيرون من المبدعين.. منهم من رفض الآلة نفسها، وأعلن عبثية الوجود، ومنهم من هرب إلى الرومانسية والحلم والروحانية، ومنهم من حاول الغوص في أعماق أعماق الإنسان؛ عله يجد ذلك الخيط الرفيع بين الشعور واللاشعور.. سالكاً طرق المخدرات والتنويم المغناطيسي وغيرها من الآليات التي زادت من الخواء، لكن أحداً منهم لم يفكر في العودة للكنيسة والكتاب المقدس، ولا حتى للتصالح معهما؛ لأن محاكم التفتيش تلوح في مخيلته كلما اقترب منها.. لأن خرافات العهدين مازالت تجوب بين جدرانها؛ لذا ظلت الحداثة تركض كالمرأة تماماً بحثاً تارة.. وهرباً تارة أخرى...

وما علاقة حداثتنا السوداء بمحاكم تفتيش؟

الجواب في هذه الحكاية القصيرة: ورث شاب مغفل أموالاً كثيرة بعد وفاة والده، وسافر ذلك الشاب إلى بلاد كثيرة، وفي إحدى تلك البلاد سمع عن تعاطي الناس عقاراً نجح في شفاء أو تخفيف مرض مستشرٍ في تلك البلاد، فاتصل على صديق له في بلاده وطلب منه أن يسأل عن وجود هذا الدواء في موطنه، وهل له من وكلاء؟ فلما أخبره أنه غير موجود ولا معروف.. قام هذا الشاب المغفل بشراء كميات كبيرة منه بكل ثروته الطائلة، وشحنه إلى بلاده ووضع الملصقات على الجدران، ولوحات الإعلانات وشاشاتها عن وصول الدواء الشافي لذلك المرض العضال في تلك البلاد التي اشتراه منها.

وتمر الأيام، فلا يشتري أحد ذلك الدواء، وتتكدس تلك الشحنات نظراً لعدم وجود مصابين بذلك المرض... عندها تحول الشاب من مغفل إلى لئيم، فقام بترويج إشاعات عن انتشار ذلك المرض في بلاده، فاستخفت تلك الإشاعات بعض الطائشين المرتعبين، فاشتروا منه دون استشارة طبيب، أو حتى الشعور بأي أعراض، لكن الأيام كشفت كذب الإشاعة، كما تحول ذلك الدواء إلى داء من جراء تناوله دون استشارة طبيب.. عند ذلك أدرك ذلك الشاب تورطه وكساد بضاعته، فتحول إلى مجرم.

مجرم؟!!

أجل.. لقد قام بإحضار مجموعة من الموبوئين من تلك البلاد لعلاجهم، وبذلك يستطيع إصابة ثلاثة طيور بحجر واحد:

الطير الأول، أن يثبت أن الدواء مفيد، والطير الثاني، أن يروج للدواء من جديد... فما الطير الثالث؟

أن يثبت أن تلك الإشاعة كانت حقيقة، وأنه كان مخلصاً لبلاده ووطنه أكثر من كل الأصحاء والتجار والأثرياء.

وما الذي ترمي إليه تلك الحكاية؟

أقصد بها عقلية الشخص الذي يرى مشكلة في عالم آخر، ويعجب بطريقة تناول الناس لها في ذلك العالم، وعندما يعود إلى عالمه يقول لهم: أنتم لديكم المشكلة الفلانية، وهذه هي حلولها. فلما قال له قومه: نحن لا نعاني تلك المشكلة. رماهم بالتخلف والجهل والظلامية.

اعترف أن هذا ما مارسته الحداثة السوداء.

أنت سميتها سوداء.. مع أنني أرى في جدة لغتها، وتمردها على السائد والنمطي من الأساليب بياضاً وجديداً.. لكن الشيء المقزز فيها هو أنها لا ترى شيئاً جميلاً في الإسلام، إنها تتجاهل إنجازاته ومشروعاته ونهضته بالعالم ككل.

أنت تكشف لي شيئاً خطيراً عن عالم يشبه عالم السحرة، لكثرة ضبابه ودخانه وتمويهاته، وكلماته المكتنزة بالغموض، التي قد لا يفهمها أحياناً إلا من يكتبها.

الغموض شيء جميل، وهو أحد كنوز الشعر والأدب، لكن هؤلاء يدعون الغموض، بينما تقف كلماتهم عارية تماماً.. فمن لا يرى في القرآن والسنة سوى خرافات العهدين، ومن لا يرى في الإسلام سوى محاكم

التفتيش وأقبيتها الأوروبية.. لا يمكن أن يكون غامضاً أو جميلاً.. إنه يوظف الشعر نحو الشر... من يرى في السِّفاح حرية، وفي الزواج رقًّا وعبودية لا يلام إن كان ينظر إليهما من خلال صفحات المقدس المزيف، الذي جعل الزوجة قطعة أثاث والمطلقة زانية وشيطانة، وحوَّل المرأة إلى مصدر لكل النجاسات والشرور، لكن إذا كان يتحدث عن القرآن بهذه النظرة فهو أجهل من حمار.

وهل حقًّا يصف المقدس الأوروبي المرأة بتلك الصفات؟

وأشنع منها، إن المرأة تتحول داخله إلى شيطان، لكنه بالتأكيد ليس كلام الله.. إنه كلام الكتبة. فالله جعل الإنسان (رجلاً وامرأة) خليفة في الأرض، وأعطاهما القدرة على النجاح وحرية الاختيار... الذي يحيرني هو أن الحداثة الغربية قامت بالتفتيش عن كل نقطة مضيئة داخل الكتاب المقدس لتوظفها إبداعيًّا شعراً ونثراً، بينما أعمى التعصب أصحاب الحداثة السوداء عن كل إضاءات القرآن والسنة، وبدلاً من ذلك جعلوهما محطًّا للتندر والسخرية.. ما يبين الفارق بين الحداثتين.

مثل ماذا؟

في الكتاب المقدس رموز كحمامة السلام، وغصن الزيتون، والتيه، وغرق فرعون، والهيكل، والمذبح، والتعميد، والصلب والصليب، والعشاء الأخير وشمشون وغيرها.. يتم توظيفها بشكل جميل في الشعر والرواية من قبل حداثيين ينتمون إلى الإسلام، بينما لم يقم هؤلاء بأي استثمار لأي رمز إسلامي.. حادث الفيل، مولد النبي ﷺ مثلاً، الغار، نزول الوحي، تعذيب الصحابة، سجنهم في شعب أبي طالب، عدم حمل النبي للسلاح

طوال مدة بقائه في مكة المكرمة، بيعتي العقبة، الهجرة، المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، بدر وأحد والخندق ومؤتة وفتح مكة المكرمة.. العفو عن الطلقاء بعد الفتح.. كتابة المصحف، تحويل العرب من أمة أمية وثنية متخلفة إلى أمة موحدة متعلمة نظيفة، العدل.. الزكاة.. بر الوالدين.. صلة الرحم.. معاملة الأسرى.. ناهيك عن شخصيات كانت ترمز لأشياء ثرية.. أبوبكر والصدق، عمر والعدل، عثمان والعطاء، علي والشجاعة، الأنصار والكرم والإيثار، بلال، خباب، وغيرهم وغيرهم..

ألا تثير هذه الرموز الرائعة مبدعاً..؟ لا إنها تثير السخرية لدى الحداثة السوداء.... قارني بين تلك الأحداث، والتعاطي معها عند هؤلاء المبرمجين.. دعيني أخبرك شيئاً غاية في الألم.

ما هو؟

أتذكرين عالم السينما والأفلام الجارف.. الملايين من الأفلام الغربية كلها تحتوي على مشهد لكنيسة أو صليب أو عبارات مسيحية، وأحياناً يكون الأبطال فيها متدينين وقساوسة وراهبات، وقد تتمحور القصة كلها حول بناء كنيسة، والمسيحية تكون غالباً في تلك الأفلام إضاءة وإضافة جميلة.. كل هذا على الرغم من أن من يفعلون ذلك يعترفون أن دينهم غير عقلاني، وأن كتابهم قد تعرض للتحريف، بل ربما كان المخرج غربيًّا ملحداً..

في الجانب الآخر انظري إلى الأفلام التي تنتجها الحداثة السوداء.. الإسلام والتدين بها تهمة في كل الأفلام.. حتى التاريخ الإسلامي يؤدلج.. يوظف لصالح البلد أو الشخص أو الجهة المنتجة.. المتدينون

في الأفلام مغفلون أغبياء أو مرضى أو إرهابيون.. المحجبات عجائز أو ملوثات سابقات.. في الأفلام الغربية تعطى البطولة لرجال الدين وللقضاة والمحامين وحتى اللصوص، بل للكلاب والدلافين والقطط والفئران، ووصل الأمر إلى الحشرات، بل إلى حيوانات منقرضة.. أنا لا أتحدث عن أفلام كرتونية، بل عن أفلام يمثل فيها ممثلون مشهورون، بينما لا يمكن لمتدين أن يظهر بصورة إيجابية في فيلم واحد من أفلام الحداثة السوداء.

شيء مخجل ومقزز للغاية.. أشعر بالقرف من صحبة أولئك القوم...

أكملي الحديث عن نهاياتك على الأرض.

لقد شفاني الله قبل رحيلي، وعشت حياة ليست بالطويلة. لكنها سعيدة بحب ربي.

وماذا عن أصحابك؟

لم يعودوا أصحاباً لي.

لكنهم كانوا يحبونك.

كانوا يحبون أنفسهم وغرائزهم؛ لذا تخلوا عني حينما لم يجدوا في قلمي وجسدي مساحات لغرائزهم وهرائهم.

ألا تدرين ما مصيرهم؟

الله أعلم بمصيرهم، لكنني علمت أن الكثير منهم تراجع عن عناده بعدما تبين له فشله.. من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، كانوا سيغرقونني..

كانوا سيحرقونني.. لا أريد أن أتصور نفسي خارج هذه الأجواء.. لا أريد أن أتصور نفسي محرومة من هذا الجمال والرفاهية والدلال.. لقد كان النوم يطير من عيني حينما كنت أغمضهما، ثم أتصور أن البعث والحشر قد تمّ، فدخل أهل الجنة جنتهم، وسحب أهل النار إلى جحيمها.. كنت أسأل نفسي: أين مصيري؟ كان هذا السؤال يثير الفزع في نفسي.

لا ألومك فهو سؤال مفزع حقًّا، لكنني أحببت أن أطمئن هذا الجمال الذي يشرق بجانبي أنه... أنه آمن في جنة الله ورحمته، وأن رحمة الله ستشمل كل من مات من أصحابك السابقين وهو يؤمن بأن (لا إله ألا إلا الله) مهما عمل، فالجنة مصير من مات وهو يؤمن بها حقًّا، وإن عذب في النار، هذا ما قاله نبينا ﷺ: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير).

سبحان ربي ما أرحمه! شعور يملؤني شكراً وامتناناً وخجلاً من الرحمن الكريم.. من أنا لولا حبك يا ربي، ورحمتك.. كنت في الدنيا أردد:

حبك يا ربي

حبك يا ربي شيء آخر

شيء آخر

أسمى من كل خيالي

أبهى من حلمي

وأقرب من نبضي

من دمعي

حبك غيم يأخذني

يجمعني من تيهي

يمطرني

ينثرني في كل بقاع الكون ربيعاً

حبك كون آخر

وبحار من شوق ومراكب

حبك يجتاح تفاصيل حياتي

يملؤها عرساً ومواكب

يملؤها شوقاً

حبك يحملني عرفاناً

ويقيناً

يعرج بي

ينثرني كشعاع

ينثرني أنواراً وكواكب

حبك شيء أكبر من قلبي

حبك يا ربي يجعلني

أنساب كغيث

أشتاق كطفل أنصاري

للقاء لمحمد

ورفاق محمد

حبك يا ربي أفق

مدار تهواه مجرات فؤادي

حبك يا ربي

أنوار تملؤني

تغسل أغوار ظلامي

أعطاف ظلالي

حبك يا ربي

لو لم أعرفه لكنت غبار جحيم

غبار جحيم

يتطاير

يا رب فزدني من حبك

زدني من حبك

فأنا رغم عطائك أشواق

وأنا رغم سخائك مشتاق

زدني من حبك

حتى لا أحتاج إلى أحد

زدني من حبك حتى تجعلني

أنسى أبواب الناس وسلطتهم

أنسى سطوتهم

زدني من حبك حتى أصنع آفاقي

ظني بك يا ربي كريماً

ومحبًّا ورحيماً

زدني حبًّا يغمرني طوفاناً

يجرفني عبر الجنة

صدقت.. ما الذي فعلناه لنستحق كل هذا؟ في الدنيا كان هناك من يقتل ويظلم ويكذب ويرتكب الموبقات، من أجل منصب أو قليل من المال.. كان الشعراء في الدنيا يمسحون بلاط الزعماء والأثرياء وأحذيتهم بشعرهم وإبداعهم.. من أجل حفنة من الدراهم قد تذهب في دقائق، وقد يقولون تجديفاً في ذلك الشعر، وفي النهاية لا شيء.. يفنى المادح والممدوح.. أين هم؟ أين هم ليروا فقط سحر هذا المكان ومن عليه وما عليه؟

ذكرتني بشعراء الجسد الذين أرهقوا حروفهم بالتغني بأجساد سرعان ما يتنكرون لها ساعة تآكلها.. أين هم ليروا أجساداً تعجز حروفهم عن التماهي بها؟

وهل لهذا الجسد من مشروعات؟

ابتسمت خجلاً.. لكن خجلها لم يمنعها من انتهاري.

وما شأنك أنت.. أليس لك مشروعاتك الخاصة؟

نحن نتحدث، ولا خشية في الجنة من التأخر على المواعيد، فالأجمل دائماً في الطريق.. سأغير السؤال.. ما مشروعاتك؟

ولِمَ إلحاحك؟

أريد معرفة المزيد عن جميلات الجنة وفاتناتها.

قد عرفت مشروعي الآني، أما الآتي فلا أستطيع تصوره.. إنها الحرية التي كنت أدعيها..

لم أفهم؟

لم تفهم أم أنك تريد انتزاعي لتلك العوالم الصاخبة؟

ما أنت فيه الآن جزء مما أعنيه.. لن تري شيئاً يفوتك، ولن تشعري بحرمان على أي شبر هنا.. إن انتزعتك فإلى نعيم، وإن بقيت في تأملاتك فأنت في نعيم.. أطلقي لروحك ولحدسك ومشاعرك العنان.. مارسي الضياع في الجنة، فلن تندمي... والآن دعيني أواصل انخطافي وهيامي.

ألا تستطيع البقاء قليلاً.. لقد استمتعت بالحديث معك والتعرف عليك؟

أمامك وأمامي الكثير.. الكثير.. حالما تنهضين من خلوتك الرائعة ستجدين الطرقات روعة تحتضنك، وتهبك أجمل ما لديها.. ستجدين حبك الذي تحلمين بمثله.. ستجدين من يتغنى بك وتتغنين به.. ستعثرين على خلوات أروع وقلوب أنصع، وأحاديث تحلق بك حيث لا ترغبين في التوقف.. دعيني أواصل التيه الساحر الذي لا أريد له أن ينقضي...

يا له من تعبير.. التيه الساحر.. في الدنيا كنا نشعر بالنشوة، ونحن نستيقظ من نوم طويل، فنشعر أن الدنيا جديدة، على الرغم من أن البيوت هي البيوت، والشوارع هي الشوارع التي رأيناها بالأمس ومنذ أعوام.. والوجوه هي نفسها.. والأطعمة هي هي.. فكيف والنوم قد تحول إلى نشاط متجدد، والشوارع لا تتشابه، ولا تمل العين منها، والوجوه

لا تمل من إملاء الفتنة، والأطعمة والأشربة لا تعد ولا تحصى، والفن لا يمكن إحصاء أشكاله وفروعه، والمدن تعج بالجديد والغريب والمدهش.. إنها الجنة يا صديقي.. لا يديرها شخص يريد توجيهها كما يريد.. يطفئ أنوارها متى ما شاء، ويشعلها متى ما شاء، ويحرقها بجشعه وغروره.. إنها الجنة يا عزيزي، وهو اسم أنثوي، فنحن الرابحات فيها.

كأنك تستفزين إطالة الحديث؟

تبتسم وتطول ابتسامتها القاتلة، وهي تقول: أرجو ذلك.

إذاً سأطلب شراباً آخر يضفي على هذا الحديث تيهاً آخر.

كما تشاء؟

أحببت أن أحضر المشروب بنفسي، فنهضت متجهاً نحو مشرب خلفنا ذي واجهة حجرية داكنة وخشنة.. كانت حجارته الداكنة الكريمة تضفي عليه طابعاً مفعماً بالدفء، أما داخله فكان خافت الإضاءة، حيث تتلألأ الشموع في تجاويف داخل جدرانه وعلى طاولاته الخشبية الداكنة، وذلك البلاط الداكن أيضاً يجعل من ذلك المشرب كهفاً حميماً للأسرار والمشاعر.. كانت أجواؤه تغريني بدعوتها إليه.. لكنني لم أرد أن أقطع عليها تأملها الجميل.. فطلبت زجاجة من مشروب من مشروبات الكهف الخاصة.. بينما كنت أنظر إليها، وهي تزداد تشبثا بطبيعتها الأنثوية على الرغم من تأملاتها.. لقد أخرجت من حقيبة يدها مرآة، وراحت تزيد من تحريض جمالها وفتنتها.. كنت أريد المزيد من الشغف بموعدي؛

لذا لم أتورط في المزيد من التأمل في جمالها.. شكرت المضيف على تلك الزجاجة التي تتخذ شكل المشرب ودكانته، ولما أراد أن يحمل المشروب لي شكرته، فأنا أفضل أن أخدمها بنفسي..

مشيت نحوها وأنا منتشٍ بهذه الأجواء التي أخرج منها لأدخل فيها.. التفتت وهي تتأمل تلك الوسامة المقبلة عليها، ولما انحنيت لوضع ما أحمله على الطاولة، وبدأت أسكب بعض الشراب في كأسها أراد شعري الطويل أن يشاركني.. أخذته وألقته خلف ظهري، وقالت: في الدنيا كنت أدفع عمري لقاء يوم واحد أقضيه مع من هم في عشر جمالك وأناقتك.. ليت من أعمتهن شهواتهن عن الله ينظرن إليك.

ابتسمت، وقلت لها: سينظرن إلي وإليك وإلى غيرنا.

أتمزح.. أين مثل هذه الوسامة وهذا العطر.. أين مثل هذا الشباب الساحر في جحيم يغص بالقبح والدمامة والنتانة؟

من خلال شاشات كبيرة وصافية جدًّا، سيرى أولئك الرافضون لدين الله مشاهد من الجنة، ليشعروا بفداحة خسارتهم، وربما كنت أنا وأنت أبطال فيلم السهرة لإحدى صديقاتك الرافضات للإسلام.

ياله من شعور كالجحيم! آآآه... إلهي، كيف أشكرك شكراً يليق بك..

من الرجال من هو أكثر إجراماً.. ألم تري أولئك المدفوعات بجبروت الرجل الذي يجلدهن بسوط سلطته، ويسمي ذلك الجلد نوعاً من ممارسة الحرية.

من تقصد بالتحديد؟

أولئك المسكينات المدفوعات بالفاقة، أولئك الجميلات المسكينات اللواتي يبتزهن أحط الرجال بلقمة العيش، وتأشيرة العمل لممارسة البغاء، أو تجسير أجسادهن كي تعبر عليها مشروعاته السياحية وأطماعه وثرواته....

الفقر ليس مبرراً أبداً، والمرأة التي تسلم جسدها للرجل بدعوى الفاقة لا تستحق أن تطالب بحقوقها بدعوى المساواة أو الإنصاف.. لقد تنازلت عن آدميتها ببيعها جسدها للرجل من أجل حفنة من الدراهم.. لقد تحولت إلى بهيمة للإيجار، فكيف تريد أن تكون بهيمة وإنساناً في وقت واحد.. إنها كالمرأة التي تطالب بالمساواة الكاملة مع الرجل، ثم تطالب بعد ذلك بحقوق إضافية لها بوصفها امرأة..

لا أدري كلما سمعت قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾.(الحج: آية ٤٦). أشعر بأن القلب مفتاح من مفاتيح العقل.. أشعر بأن القلب المليء بالحقد والحسد والغيرة والكراهية يقف حائلاً دون دخول الحقيقة للعقل.. دون الاعتراف بالغلط.. دون التراجع عن الكارثة.. كلما رأيت شخصاً حنوناً عطوفاً متصدقاً أحسست بحسن خاتمة تنتظره.

هل تظن أن ربي رحمني لبرِّي بأمي وعنايتي بها طوال مدة مرضها؟

لا أعلم... لكن عملك رائع، وقد ذكرني بصديق لي لم أر أبر منه بأمه أيام شبابه، على الرغم من أنه كان يترك الصلاة أشهراً، كان يغادر مجلسنا في أوج متعته وأحسن أوقاته من أجل أن يقوم بإعطائها حقنة الأنسولين، فقد كانت مصابة بداء السكري.. استمر صديقي ببرّه الجميل ذاك على

الرغم من أن مظهره يوحي بعكس ذلك، فقد كان محبًّا للسفر والأناقة.. كان يعيش حياة الشباب وطيشه دون تحفظ، ومع ذلك لم تشغله تلك الأشياء عن والدته الحبيبة، وما إن فارقت أمه وقرّة عينه الحياة حتى اقترن بفتاة صالحة.. استأنف معها حياة جديدة مزدانة بالاستقامة والصلاح، وقد مرت بي حالات كثيرة مشابهة تبشر ذوي القلوب الطيبة والأيدي السخية، وأصحاب (الفزعات) والمعروف بخاتمة حسنة.. عزيزتي عملك رائع والراحمون يرحمهم الرحمن.

لقد أسكنني رحمته على الرغم من كل ذنوبي وخطاياي، وعاملني بما لم تعاملني به أمي.. الآن فقط أدركت معنى أن الله ورسوله أرحم بنا من أمهاتنا وآبائنا، كان آباؤنا يتمنون لنا نعيماً زائلاً غير مضمون، ويخشون علينا شقاءً غير دائم وغير حتمي.. كانت نظرة الآباء لا تستطيع اختراق جدران الدنيا. أمي كانت تخشى علي من نار الدنيا، التي لو احترقت بها فلن أتعذب بها أكثر من دقائق معدودة، بينما كان الله ورسوله يحذراني من نار لا تنطفئ، ولا أنا أموت، فأستريح من عذابها... كم أتوق لشكر بمساحة هذا النعيم!

كم أتوق لشكر يليق بكرم الله ومقام ألوهيته!

الحمد لك يا ربي، أكثر مما حمدك كل عبادك..

الحمد لك حمداً يليق بجلالك وعظمتك...

الحمد لله الذي أكرمني، وأغدق علي من غير حول مني ولا قوة..

الحمد لله...

غابت صاحبتي عني في شكر طويل ودموع شاركتها، فرددت خلفها.. كنت أشعر بنبض أعماقها.. كنت أرى وجهها يزداد تذللاً لله وامتناناً، فيزداد جمالاً ورقة ووقاراً... كنت أشعر بها، وهي تنتشل من أعماقها ذلك الشعور الذي يخالجها كلما تذكرت مصيرها لو انتهت دنياها، وهي على ما كانت عليه..

لأول مرة أرى وجهاً يتلون بالجمال والفتنة والوقار والخشوع والبهاء والعطور في وقت واحد..

أرى عينين تحلقان بمن ينظر إليهما حيثما شاءتا دون إرادته..

فضلت الانسحاب، فهذه الشابة لم تفق بعد من دهشتها.. لم ترفع رأسها بعد فوق أمواج الكرم المتلاطم حولها.. لم تكمل بعد حسابات المفاضلة بين تاريخها المعتم وحاضرها الذي يزداد نوراً كل لحظة.. فضلت الانسحاب؛ حتى لا أمنع تلك المشاعر من التدفق.

استأذنتها، فنظرت إلي، فكادت عيناها اللامعتان تنسيني استئذاني..

أحببت أن أتركها مع مشاعرها.. سلمتها ورقة، فقرأتها وابتسمت، ووضعتها في حقيبتها.. واستأذنتها؛ لألحق بصاحبي الذي لا أدري أي نعيم يختطفه..

وعندما هممت بالخروج من ذلك المكان الرحب وأجوائه الحميمة.. كنت أخطو خطواتي الأولى مرة أخرى على ذلك الرصيف الساحر.. بإطلالته المائية الفاتنة.. بحجارته الكريمة الجديدة والزاهية الألوان والمختلفة.. حجارة يخيل لمن يراها، أنها قد ابتلت بمطر فردوسي، ومن بعيد.. تتلألأ

المبـاني، وتتـدلى مـن نوافذ وشرفـات المقاهـي والبارات والأسـواق خيوط الأشجـار الملونـة بألـوان لا حصـر لهـا، التي تكتنـز في نهاياتهـا باقات من الزهور والورود التي تعطر الطريق..

بينمـا كان الطريـق المرصـع بالجواهر يأنـس بصخب الشبـاب والشابات، وجمـال الابتسامـات والمراكـب والعربـات والمقاهـي والجلسـات والمقاعـد الوثيرة الملونة، وباقات الزهور والهمسات والضحكات والمشاعر الفياضة.. تذكـرت صاحبي، فمتعة كهذه لا ينبغـي أن تفوته، فهممت بالاتصال به.. لكن شيئاً أذهلني عنه، وصرفني عما هممت به..

شيء حولني لدقائق كالتمثال منخطفاً أمامه..

سيارة متوقفة بانتظاري في أحد الميادين المدهشة..

سيارة فخمة مكشوفة.. مفتوحة الباب تهتف بي وبقلبي..

سيـارة فخمـة تـكاد تضيء مـن بياضهـا.. كل ما فيهـا أبيض.. مقاعدها الوثـيرة وفرشهـا وكل ما فيهـا.. حتى عجلاتها ومقودهـا.. حتى إطارات زجاجها الألماسي.. سيارة لم أَرَها إلا مع أميرتي.

آمـين

كتب للمؤلف

(في ظلال السيرة)

وهو مادة الفقرة الإذاعية السردية الصحيحة

(السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة)

أسلوب قصصي وأحاديث صحيحة: نشر مكتبة العبيكان

(الصحيح من أحاديث السيرة)

تخريج علمي لنصوص السيرة الصحيحة

(التوراة والقرآن والإنجيل)

نشر العبيكان

(الفقه السهل)

كتاب لمن يحب قراءة الفقه بألفاظ سهلة ودون تعقيد.
نشر العبيكان

(العقل العربي)

بحث في اللا مفكر فيه والمسكوت عنه في مقاربات العقل العربي.
كتاب يكشف علميًا سكوت العلمانيين المتطرفين كأدونيس وأركون
عن أهم مكونات العقل العربي وتآمرهم على القرآن والسنة فقط.
توزيع العبيكان

(لماذا تعلمنت الفتاة الغربية)

كتاب إلكتروني وفي طريقه للطبع